هل أخطأتُ العَزْف؟

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ ـ ٢٠١٩م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/١٣٢٩١

بطاقة فهرسة

عبده ، سلام

هل أخطأت العزف؟: فيتوريو أريغوني: رواية/ سلام عبده - ط١ القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٢٦٤ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٩-١٧٧-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

عمرو الحو

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

"فيتوريو أريغوني"

هل أخطأتُ العَزْف؟

إهـداء

بالطبع، إلى أمي وأبي، كما دائمًا وإلى الأبد

فخرُكُما بي فخرٌ لي

***

إلى تلكَ اللحظةِ التي تمتصُّ فيها روحي رحيقَ الموسيقى، ثمَّ تُخرِجها شهدَ الكلمات.

***

إلى كلِّ مَن أخذتْه الحيرةُ يومًا، متسائلًا :

كيفَ يكتبون الروايات؟ كيفَ أصيرُ شهرزاد الحكايات؟

شكرٌ وتقديرٌ

إلى كلِّ صديق/ ة كتبوا يحثونني على المزيد مِن الروايات.

وثِقْتُم بي فكانت ثقتكم بثَّ ثقةٍ فيَّ.

حين كنتم همْسَ اللهِ لي ألّا أتوقف عن الكتابة في لحظةِ عصفٍ قاسيةٍ.

إلى

كلِّ قلبٍ أخضرَ تمنّى لي الخيرَ يومًا

فعلًا أو قولًا

صدقًا لا كذبًا

لولاكم أنتم لَما كنتُ أنا

تملّص وتخلّص

تفوّقَ الواقعُ على الخيالِ، حتى غَدَتْ كلُّ قصةٍ، إذا بلغَتْ شَأوها في الغَرائبيّةِ، أنْ يُقال "ولا في الخيال!"

ولَمْ تَعُدْ لكُتّاب القصص والروايات حاجةٌ لاستحضار الخيالِ واختلاقِ الأحداث وتأطيرِها بإطار الواقع. حتى في روايات الآكشن والخيال العلمي، تتبُع القصة، ويكون مُرتكزها حدثًا أو موقفًا أثراه الخيال، لإيماني العميق بألّا وجودَ للخيال المَحْضِ، فكلُّ ما يمكن تصوُّره، نابعٌ مِن واقع ما.

كلُّ ما في الأمر، أنَّ الكاتب ينتقي تُنَفًا ثم يؤلِّف بينها بطريقة، لتبدو مِن نسج خياله، وهذه هي المفارقة! كما الفسيفساء الصغيرة تتجمع لتصنع لوحة كاملة.

لقد أصبح الواقع أكثر تشويقًا وتراجيديةً مِن مسارح الخيال والدمى الخصبة!

ولكنني -هنا- من باب المسؤولية الأخلاقية أنوِّه إلى أنَّ كل شخصيةٍ في هذه الرواية، قَزَمُ ظاهرةٍ، أو حالةٍ مُجتمعيّة في توصيفٍ لمجتمعٍ ازدحم بالتناقضات، أو المفارقات الثقافية كما لم يكن مِن قبل.

لن تجدوا في السجلات المدنيّة تلك الأسماء، ولكنْ لو فتّشتم الضمائر والوقائع ستجدون ألْفَ ألَفِ حنين وعبد وفهد و و و.

لذا، فالاعتذار عن فرط تشابهٍ، لا يليق إلّا بأبطال روايتي الذين أعدمْتُهم، فقد التهمتْهم ذاكرة التاريخ لتبقى هي البطل والشاهد.

الرواية

الفصل الأول

"إنّي رأيتٌ"

ليت الذي لا يهتم، يتوقف عن تقديم طقوس الاهتمام المُجامِلة، ويكتفي بصفعة واحدة فقط.

(١)

"نزلتُ سريعًا بثوبي الأبيض أسفل الدرج المخيف لأنه بلا حوافٍّ حمايةٍ، طوَّحَتْني الريح واشتدَّ الظلام، عريسي الوسيم بدأ يُخيفني كلَّما نظرتُ إليه، وهو يتحوَّل إلى دمية بلاستيكية ضخمة بملامحه نفسِها وبضحكةٍ أخرى ليست بريئة.

أهلي يرقصون رقصًا عجيبًا غير متناسق، يُديرون لي ظُهورهم كلَّما مررتُ بجانب أحدهم.

أسفلَ الدرج تفاحٌ يتناثر، يعطيني أبي واحدة آخذُها فتنخلع يده معها ولا أصرخ، بل أقضُم التفاحة، ويبتعد أبي، العريس ينادي مِن بعيد، لا أحاول الذهاب إليه، أركض نحو أبي، لكنه لا يراني كأنني أصبحتُ شبحًا، وأبحثُ عنه فلا أراه كأنه صار ظلاً.

ثم لا أحد حولي، أمامي درجٌ طويل وفي آخره ثنايا نور، أصعدُه فيصير ثوبي أزرق ويتدحرج لؤلؤٌ مِن تحته على الأرض ليُبهِرني، وحولي سَمَكٌ حيٌّ كثير ولا ماءَ يُغرِقني، صعدتُ نصف الدرج فإذا بكلاب تنبح عليَّ فرفسْتُها، ثم أصواتٌ مُخيفَة مِن بعيد تَخفت وتعلو كجرس كنيسة وصداه، وفي آخر الدرج جدار كبير بلا باب، ونوافذ ينبثق منها نورٌ، يتجمّع كلّ النور حولي وعليَّ كأنني عدسة تجمع الضوء، لم أشعر أنَّ الضوء المُسلَّط عليَّ يُعميني، بالعكس زاد الرؤية وضوحًا.

في يدي فجأةً، ظهرتْ ثلاثة أقلام: قلمُ رصاصٍ، وقلمُ حبرٍ جافٍّ، وقلمٌ سائلٌ.

كتبتُ بالرصاص فانكسر القلم، واختفت الكتابة كنفْخ الريح في الرماد، ثم كتبتُ بقلم الحبر الجافّ على الجدران، لكنَّ الكتابة اتَّسخت وتقطَّعت خطوطها فمسحتُ ما كتبتُه، فعادت الجدران نظيفة كأنها بِكْرٌ لم تمسَّها يدٌ.

كنتُ أشعر بهلع، والأصوات تعلو والنور يخفت، نظرت أسفل الدرج فرأيت فلاحًا بسيطًا بزيٍّ عسكريٍّ يذود عني ويبتسم لي، فهمتُ مِنه بلا كلام أنَّ عليَّ الكتابة، فعدْتُ لأكتب فوجدتُني أمسك القلم السائل وأكتب وأكتب حتى امتلأ الجدار كتابة.

الغريب أنَّ ما كتبتُه صار لوحة لرجلٍ بغليون وقبعة وابتسامة لطيفة. وامتلأتُ بهجة."

استيقظتُ مِن النوم، ألهث وقتها كأنني في سباق ماراثون، وأنا أردد لا شعوريًا: " سأكتب كتابي... سأكتب كتابي."

ثم عدتُ إلى نومي، فغدًا حفل زفافي.

أيقظتني أمي مبكرًا، قمتُ وجسدي مرهق، والعرق يتصبَّب منه، أتلَفَّتُ حولي، نظرت إلى أمي برهة قبل أنْ أستوعب الوقت والمناسبة، كأني نسيت تمامًا أنَّ اليوم حفل زفافي، لعل ملامح أمي الواجمة التي لا تنبئ عن فرحة أم العروس جعلتني أفقد الذاكرة مؤقتًا.

أمي تحثُّني على الاستيقاظ لأصلّي الفجر وأشرب قهوتي، وأستحم قبل الذهاب إلى الصالون، فالساعة الآن الخامسة والنصف وموعدي في الصالون السابعة.

قلْتُ كلمات لا أذكُرها تؤكِّد أني منتبهة، كلمات آلية لم أعرف يومًا ما هي، لكنَّ الطريقة تبدو مُجدية فقد خرجت أمي من الغرفة كالعادة بعد سماعي، وبقيتُ مُعلَّقة في فراشي بين اليقظة والمنام، أتذكر الحلم الذي راودني، أو أتذكر أني حلمت ليلاً حلمًا مهمًا، لكنْ ماذا كان في الحلم؟ أنه ضبابيٌّ الآن، أذكر فقط أني قمت ليلاً منزعجة، ماذا كنت أردد؟ "سأكتب كتابي"، انتقلتُ في فراشي من جانبي الأيمن إلى الاستلقاء على ظهري، نظرت إلى النافذة

ذات الستائر المخرَّمة، كان الفجر قد لاح، جوَّالي يرنّ، إنه هو العريس، كان يستحثُّني للنهوض، كان صوته رقيقًا ذائبًا لفرط الشوق، ابتسمتُ في سرِّي، تعمّدتُ أنْ أجعل صوتي كمَن أيقظها الاتصال؛ حالمًا كسولاً متغنِّجًا مثيرًا فهذا أكثر إغواء وأعمق تأثيرًا، لأنه يأتي بلا قصد.

تحدثنا قليلاً، فالوقت يمرُّ وبقيتْ ساعة فقط قبل الطقوس، قمت لتوِّي نشيطة وقد أخذتُ نفسًا عميقًا، واخترت مِن ثيابي ما كان بأزرار ليسهل خلعه بعد تجهيز التسريحة العالية دون المساس بها.

صليت الفجر على عجل، دون أنْ أتطيّب أو أنظف أسناني أو حتى أمشط شعري، وكانت رائحة القهوة التي أعدَّتها أمي مثيرة للحواس، دومًا آمنتُ أنَّ رائحة القهوة أطيب من مذاقها، فاللذة عندي في اللحظة الفارقة بين الرغبة بالشيء والحصول عليه.

مرَّتْ نصف ساعة فارقة، فأنا مستعدةٌ لخرق كل القوانين إلَّا أنْ أشرب قهوتي على عجل، فالاستمتاع بقهوتي يصنع يومي، تستحثني أمي، لا وسيلة للتهرب إلّا ببعض الأسئلة حول أجمل تسريحة شَعْر، وأفضل ماكياج يناسبني، وحول تجهيزات حفلة الغداء، كانت أسئلةً إجاباتُها تحددت سابقًا، لكنني تعمدت بعض التردد في كل ذلك، فقط للتملص مِن زَنِّ أمي قبل أن يطلبني آخر رمق في قهوتي، لن أشرب القهوة بَلْعاً تباعًا، سأنتظر أنْ تناديني الرشفة من الكوب الكبير، حسب المزاج.

ماذا رأيتُ في المنام؟ أتذكر الحلم وأنا أغتسل، لا أذكر سوى تلك العبارة: "سأكتب كتابي"، سرحتُ قليلاً حتى كاد نفسي ينقطع من دفق المياه على وجهي، أعلم أنّ الحلم بآخره وبالأثر الذي يتركه، ما دمتُ سأكتب كتابي، إذن فالحلم في صالح زواجي الذي لا يُرضي أهلي، وأرغمتُهم عليه بعنادي الطويل، كيف سأتزوج رجلاً آخر وهذا قد انكشفت عليه قلبًا وجسدًا؟ لم أَعُدْ بعده لا عذراء الجسد ولا القلب، لا يعرفون ذلك، ويجب ألّا يعرفوا، لكنْ يجب أن يوافقوا، تصرفتُ مِن هذا المنطق، وأرغمتُهم على القبول به، لكنَّ أبي كان قاسيًا حين قال لي أخيرًا: "تريدين الزواج به فليكن، لكن لا تتوقعي أنْ أدعوكما مرةً لمنزلي، ولا تظنّي أني سأزورك يومًا في منزله." لماذا كل هذا؟ أَلِأَنَّني وافقتُ على رَجلٍ لا يروق له؟ لا بأس سيعود ويتقبل الأمر، الحلم جميل يؤكد أنني سأتزوج وسأكون سعيدة.

لكنْ لماذا ذلك الانطباع السيِّء؟ لماذا الانزعاج من الحلم الذي لا أتذكره؟ ليتني أتذكره! سأفهمه بشكل أفضل وسأجيد معرفة سبب ضيقي، هل سيحصل مكروه في حفل الزفاف؟ هل سيصرُّ أبي على موقفه؟ هل أخطأت الاختيار؟

هبط قلبي عند هذا السؤال، أكملتُ حمّامي سريعًا، وخرجت، مشطت شعري، بينما حضر العريس ليأخذني إلى الصالون.

(٢)

أنا أكتب الآن، بعدما مضى وقت لا بأس به، وقت كافٍ لأتذكَّر الحلم، ولأفسِّر بعضه، مازلت لا أعرف معنى أنني "سأكتب كتابي"، فقد كتبت كتابي فعلاً يوم زفافي، لكن...

كان حفل الزفاف عاديًّا لا جديد فيه، فلَمْ ينقلبْ إلى مأتم، ولَمْ نوزِّع التفاح، لم يحصل شيءٌ غيرُ طبيعيٍّ يومَها، شيءٌ يستحق أنْ أكتبه هنا، أو أنْ يوافق ذلك الحلم. هل أخطأت فهم الحلم إذن؟ أم أخطأت قراءة الواقع؟

الشيء الوحيد الذي تغيَّر ويشابه حلمي البغيض الذي يرافقني منذ سنة -منذ زواجي- هو أنَّ زوجي فعلاً بدأ يتحوّل إلى دمية بلاستيكية، لا أقصد المعنى الحرفي، (كيف يمكن للكاتب أنْ يضع وجهًا مبتسماً وهو يقول هذه العبارة؟ ليرسلها إلى القارئ؟) قصدت أنَّه لَمْ يَعُدْ كما كان، لَمْ يَعُدْ زوجي كما تمنيته، أو كما وعدَني، فأنا لن أحاكمه بالأمنيات التي لم نتفق عليها معًا.

كيف أوضح لكم ذلك؟ ستفهمني النساء حتماً، لكنَّ الرجال يحتاجون بعض الأمثلة ليفهموا مقصدي، ولعلهم بعد التوضيح سيسخرون مِن هذه التفاصيل الصغيرة قائلين لأنفسهم إننا معاشر النساء نبالغ، لكنْ صدقًا؛ هذه التفاصيل الصغيرة هي المؤشّر الحقيقيّ على ما سيكون لاحقًا، كما يشمُّ الطيور رائحة المطر، أو كما تشمُّ حيوانات الغابة رائحة الزلازل.

حسنًا، ما زال مثاليًّا في طريقته الكبرى، ما زال كما تتساءلون، يقوم بواجباته اليومية على أكمل وجه حسب كاتالوج الزوجية الذي يستخدمه الرجال، لكنه حسب المُلحق الذي تحمِله النساء لا يفعل أيًّا من ذلك.

فهو مثلاً، يقوم بواجبه في الفراش، لكنه لم يَعُدْ بتلك الحماسة، ولا يُشعِرني بذلك الاشتياق، لَمْ يَعُدْ يضمّني خلال الفعل كالسابق، ينتهي بسرعة كأنها مهمة خاطفة كالطلقة عليه إخراجها ليقتلني بها، لا ليرتاح مِنها، لا مداعبات، لا ملابس خاصة، لا عناق أو قُبلة بعد الانتشاء، يقوم سريعًا ليغتسل كأنه يزيل ما علق مِن رائحتي بجسده، وأحيانًا لا يغتسل بل يغفو وقد أولاني ظَهره كأنه يريد أنْ يستيقظ مِن كابوس طويل يخنقه ثم يقوم ليلاً لمشاهدة التلفاز فينام هناك، فتفوته صلاة الفجر.

يعود إلى البيت في موعده، لكنه يعود منهكًا غير مشتاق.

يسألني عن أحوالي، لكنه لا ينتظر الجواب، ولو سمعه فإنه ينظر إليَّ بنظرة غريبة لا أفهمها، نظرة كأنه يقول لي بسخرية "أما اكتفيت من هذه الأسطوانة؟!" فأنا دومًا أشكو له جفاء أهلي الذي لم يتزحزح من وقت

زواجنا، كأنَّ أبي صار أبا الهول بَيْدَ أنَّ شيئًا لم يكسر أنفه ليتنازل عن موقفه تجاهي وزوجي.

ينفق على البيت كما يجب، لكنه لم يعد يهتم بإحضار الفواكه التي أحبها.

نتحدث على الجوال خلال النهار، لكنني أنا التي تتصل به الآن دومًا، بينما كان لا يستطيع انتظار عودته إلى البيت ليسمع صوتي.

هو يقوم بكل واجباته، لكنْ مع كل واجب تخرج لي (لكن) كأنها رؤوس الشياطين تفسد عليَّ متعتي وتسبب لي قلقًا لا أملك عليه أيَّ شاهد أو دليل، سوى ذلك الحدس الأنثوي الذي يتفوق على حدس الرحم لاستقبال الأجنة، ويتفرع عن هذا الحدس احتمالات أعتى من برامج الاحتمالات الصناعية.

ومِمّا فاءَ على هذا القلق بظلِّه؛ الحلم، كان حلمي يظلِّل كلَّ موقف ليزيد قلبي نبضة قلق، كان كالمنبه الذي يوقظني مِن حُبّي الذي أعيشه ليذكِّرني بأنَّ شيئًا ما سيحصل وأنَّ عليَّ النوم بنصف عين والحب بنصف قلب.

لكنني كنت أتجاهل كل ذلك، وأُطمِئنُ نفسي بأنَّ حلمي قد تحقق بغضب أبي، وبرود زوجي، ولن يحدث أكثر، كنت دومًا أسأل نفسي: هل أخطأَتُ الحدس؟

ترى، وبعد كل هذا: هل أخطأتُ حين ظننتُني أخطأتُ؟ أم أنه كان يجب أن تجري الأمور كما جرت؟ هل كان فعلاً لا بُدَّ مِمّا لا بُدَّ مِنه؟

(٣)

دخل زوجي البيت متأخرًا على عجل، نَبَّش خزانة الثياب، لحقتُه باستغراب فالمفروض أنَّ عمله قد انتهى، وأنَّه الآن سيطلب العشاء، سألته عمَّ يبحث، لَمْ يُجبْني، طلب مني الخروج فورًا من الغرفة بطريقة عصبية آمِرة لا تحتمل النقاش، خرجتُ بسرعة، فقد بات مؤخَّرًا كثير التوتر شديد الانفعال، حتى إنه في مرة كاد يضربني حين ذكرتُ له أنَّ فرح أخي اقترب ولا أعرف هل سأحضره أم لا.

بقيتُ في الصالة وقد تحوَّلتْ أُذناي إلى فتحة بُوقٍ تمتصُّ كل صوت، كان يفتح الخزائن ويغلقها بعنف، وكأنه الآن يرفع الفرشة عن السرير، ثم ما هذا الصوت الغريب؟ لَمْ أميِّزه، حسنًا، انتظرتُ حتى خرج من الغرفة، لم يلتفت إليَّ، صفق باب البيت وعاد السكون.

دخلتُ غرفة النوم، لا شيء في مكانه، عاصفة عاثت بالمكان خرابًا، الثياب منثورة كأنها أعجاز نبت منقعر، الفرشات خارج حدود السرير،

والأغطية كجريح تكوَّر على الأرض. رفعتُ بصري إلى أعلى بتأفُّفٍ أشكو إلى الله، فرأيت صناديق الأباجورات الخشبية فوق النوافذ فاغرة فاها، هذا هو الصوت الغريب الذي لم أميِّزه.

حيرة تامَّة، جلستُ على الأرض، المكان الوحيد المتاح للجلوس عليه في هذه الفوضى العارمة، كنتُ دراميَّة في ردة فعلي، استمتع للحظة بشعوري أنني أحد منكوبي تسونامي شرس، أنني الناجية الوحيدة وسط كومة الخراب هذه.

بقيتُ على حالي لمدة لا أعرفها، دقات الساعة الرتيبة أنبأتني عن وجودي الحيّ الفعليّ، لم أكن أفكر في شيء، كنت أشعر ببلاهة محببة، تلك اللحظات التي لا نحمل معها عبء أيِّ سؤال أو موقف علينا تفسيره وفهمه.

بدأتُ أرتب الغرفة بهدوء تامٍّ وبصمت عقليٍّ تامٍّ، لم تَدُرْ في ذهني أية أسئلة حول: لماذا؟ وعمَّ كان يبحث؟ وإلى أين ذهب؟ لعلني كنت أخاف الإجابات كلها، الشيء الوحيد الذي فكرتُ فيه في تلك اللحظة أنني وحيدة، أتمنى أنْ أتصل بأبي لأبثَّه نَجواي، الآن أشعر أنني أحتاج إلى أبي، كي يستعلم عن زوجي.

خطر لي سؤال غريب: لماذا رفض أبي زواجي منذ البداية؟ سؤال متأخر جدًّا، لكنه يستحق الفضول بعدما مرَّ الوقت، لم أفكر وقتها بسؤاله، وهو لم يوضِّح لي موقفه، كنَّا أبكمَ وصماءَ في قارب يغرق. أحيانًا حرية اتخاذ القرار

الشخصيّ أمر خطير للغاية، كمن يمنح طفلاً سكينًا يجرح بها نفسه ليشبع فضوله، أو يريح نفسه من صراخه.

هل أخطأتُ حين أجبرتُ أبي على عدم التدخُّل في اختياراتي الشخصية؟

أحتاج الآن لأبي حاجة طفل تائه للطريق، أصعبُ اليُتمِ هو يُتْمُ الابن مِن ظلال أهله فالأموات لا ظلال لهم، ولا نتوقع منهم أمرًا، لكنْ أنْ يكون أبي على قيد الحياة فأُحرم من ظِلّه، كم هذا قاس! كنت أظن أنَّ الزوج دومًا كفاية من كل شيء، لكنني أدرك الآن ألَّا أحدٌ يحلُّ محلَّ أحد، لا أحد يقوم بغير دوره، لا يمكن لبرتقالة أنْ تقوم بدور كوكتيل فواكه لكنها تندمج معه جيدًا، زوجي لم يكن صالحًا كفاية ليقوم بدور أبي في لحظات ضعفي، ولم يبذل جهدًا لتحسين العلاقات مع أهلي.

بقيتُ على الأريكة أنتظر عودة زوجي حتى غلَبني حرُّ الصيف والنوم، حين استيقظتُ صباحًا، لم يكن قد عاد بعد، مِمّا زاد ارتباكي وفضولي، كدْتُ أبكي، لكنَّ الدموع الآن أمرٌ فائض عن الحاجة، أمام زحام الأسئلة وارتباك الإجابات، فالحدس القوي لا يقبل استضافةً على موائد الحزن الأنثويّ الرقيق.

اتصلتُ بزوجي فلم يردَّ، جواله مغلق، خَطَرَ لي الاتصال بأبي، لكنني أحجمتُ، خِفْتُ أنْ يرفض الحديث معي، فأقسى من البعد تأكيدُه.

طرقاتٌ خفيفة على الباب، في هذا الصباح المبكِّر، أنظر إلى الساعة، آه! مبكِّرٌ لي فقط، فالزمن يمضي لا يسجِّل حضورًا أو غيابًا لأحد، كانت قد تجاوزت التاسعة، وكنتُ أظنها السادسة، حسب مواعيد استيقاظي.

فتحتُ الباب بعدما هضمتُ صوتها، كانت جارتي، بالتأكيد جاءت تبثُّني الأخبار وتؤنس وحدتي كالعادة، تظن أنَّ زوجي نزل إلى عمله، تزداد وحدتي لولاها.

تحدثنا كثيرًا، ولم ألتقط كثيرًا مِمّا قالته، لكن حواسي تنتبه فجأة إذ تذكِّرُني بموعدها الصباحي مع طبيبها النسائي إذ وعدتُها بمرافقتها، كدتُ أُسرِع لتجهيز نفسي، لكنها استدركت بأنّ الموعد تأجَّل بسبب حادثة الاغتيال التي حصلت.

كنتُ قد سمعت في المذياع خبرًا كهذا بين نومي وصحوي، لكنني لم ألتفت إليه إلّا كما نلتفت إلى لسْعة بعوضة عابرة، فأنتَ لا تتذكر من المذياع إلا أخباره التي تهمك شخصيًا، لكنني استغربت واعتراني الفضول، فما علاقة موعدها بحادثة الاغتيال؟!

- البلد كلها غاضبة، أبو جنى قياديٌّ شهير في الجماعة الإسلامية، كما أنه صديق وفيٌّ لأبناء فتح، كل الفصائل تحبُّه وتتضامن مع اغتياله، توعُّدٌ وتهديدٌ بكشف الخائن الذي قدم المعلومات للعدو الإسرائيلي وتتبع خطوات الشهيد وبلَّغ عنها.

- وكيف سيعرفون العميل (الخائن)، لا بُدَّ أنّه هرب الآن، وإن انكشف فقد يهرب إلى اللد أو الرملة ليختبئ هناك ومِن ثَمَّ سيمنحونه الجنسية الإسرائيلية.

- أنت لا تعرفين، هذا الجاسوس (الخائن)، رشَّ مادةً على سيارة الشهيد، شفافةً، تمكِّن الإسرائيليين من ملاحقة السيارة، وبعدها قاموا برصدها وأطلقوا قذيفة من طائرة الهيلوكبتر عليها، ألم تسمعي صوت الانفجار؟

- كنتُ شبه نائمة، لم أنمْ الليلة من شدة الحرّ، كما تأخرت في تنظيف البيت. (يا للحسرة! مضطرة للكذب).

- المهم، الإضراب يعمُّ الضفة كلها، وبالتالي فكلُّ المَحالِّ التجارية مغلقة، كما أنه يُتوقَّع حدوث مواجهات إثر جنازة الشهيد.

- لكنَّ موعدك مع الطبيب صباحيٌّ، هناك وقت قبل الجنازة والمواجهات.

- صحيح، لكنَّ الإضراب منذ الصباح، كما أننا لا يمكننا محاصرة الغضب بمنحه موعدًا كمواعيد الأطباء.

(حككْتُ رأسي بأصابعي ورفعت حاجبيَّ وقلت هازئة مازحة):

- يبدو أنَّ مواعيد الأطباء تسيطر عليك.

لم تخرج جارتي من عندي إلّا مع صلاة الظهر، كأنها اطمأنَّت أَلَّا أشغال لديَّ، فقد أعطيتُها جواز القعودُ بكذبي، أو كأنها وعَدَتْ نفسها بالخروج في موعد، لا يهمُّ موعدٌ في بيتي أو عند الطبيب، المهم أنَّ وقتها هذا قد وهبَتْ إنفاقه زكاةً خالصةً خارج البيت، فأتمَّتْ ما عزمت عليه عندي.

(٤)

لمْ يَعُدْ زوجي، وبدأ صبري يموت مع أمطار حيرتي الحمضيَّة، قادتني حواسي إلى غرفة النوم، حيث بدأ كل شيء، أنا الآن على السرير (طبعا ليس الآن! فأنا الآن أكتب روايتي، والـ "آن" خاصَّتي غير الـ "آن" خاصَّتكم فأنتم الآن تقرأونها، لكنني أريد أنْ تتخيلوا معي الموقف بكل بساطة)، وكلُّ حواسي متيقظة تسأل الغرفة عمّا جرى فيها ليلة البارحة، أتلَفَّتُ حولي، أبحث عن شيء لا أعرف ما هو، كَمَنْ يحاول معرفة سبب بكاء رضيع، عليَّ فقط أنْ أبحث عن إجابات لغياب زوجي، أفتح الأدراج، أيكون متزوجًا من أخرى؟ لعل وثيقة الزواج أو بعض صورها بين ملابسه الداخلية أو أوراقه الخاصة، لا شيء، كل ما الأدراج والخزانة صامت.

لعله يخبئ نقودًا تحت فرشات السرير؟ يخبرني السرير أنَّ زوجي لا يملك أسرارًا تحته -حسب علمه-، أقفُ مُنتصِبةً كفزَّاعةٍ في حقلٍ وقد حلَّق طائر

يريد الانقضاض، جواز سفر زوجي! أهرع بحثًا عنه بين أوراق زوجي، وفي جيوبه، لأجده أخيرًا مُسْتلْقٍ بكسل غير عابئ بشيء في درج بجانب السرير، أتفحص آخر مرة سافر فيها، لأكتشف أنه في سبات عميق منذ سنتين.

لكنني اكتشفت شيئًا:

هذه الطريقة التي بحثت فيها هي تقريبًا طريقة زوجي وهلعه ليجد ما يخبئه، ترى ما هو وأين كان؟

آخذُ نفسًا عميقًا، وأنظر في السقف في مشهدٍ مكرَّرٍ غريبٌ أن أكون نسيته، لتقع عيناي على الصندوق الخشبي للأباجور فوق النافذة، وبكل ما فيَّ من تهور واندفاع أقفز متعلِّقة بحديد النوافذ بِيَدٍ وأفتح الصندوق بِيَدٍ أخرى، لأترك الغطاء يتدلّى، رأسي لا يصل (مشكلة القصيرات الدائمة التي أدَّتْ إلى ما يليها) فأمدُّ كفَّ يدي وأصابعي مفروشة بحذرٍ خوفَ صرصار أو حشرة ما، أرى الآن بيدي لا شيء، كأنني أتخبط في ظلام دامس، ثم فجأة يظهر النور، تلمس أصابعي طَرَف شيء يصدر حفيفًا، أتحسَّسُه، ظرفٌ ورقيٌّ، يبدو كبيرًا بعض الشيء، أسحبه لكنني أفقد توازني، أتمسك جيدًا بالحديد وتتعلق ساقاي في الهواء أحاول القفز والظرف في يدي، لكنني يجب أن أغلق الصندوق قبل عودة زوجي، حاولت الصعود مجددًا على بلاط النافذة، لكن يدي المعلَّقة بالحديد آلمتني جدًا، كلُّ شيءٍ سيءٌ يحصلُ أسرعَ مِمّا نتوقع، الظرف في يدي، وقد هوى جسدي على الأرض فيَدِي لمْ تَعُدْ تحتملني.

سقوطٌ مؤلمٌ لولا السجاد، سحبت نَفْسي واتكأتُ بظهري على حافة السرير أرضًا، فتحت الظرف بارتجاف لا أدرَي أهو من الألم أو الخوف، بكل حال حتى الخوف مؤلم، لذا لن أبحث عن السبب.

دسست رأسي في الظرف، صور وأوراق وأقلام، هل يشتغل زوجي مصورًا؟ أو صحفيًا؟ أَلَهُ مهنة سرية؟

لعلها الأوراق التي أحدِّث نفسي بها، عقد زواج أو صورة عروس.

حسنًا لنَرَ!

أخرجت الصور، كانت مذهلة (الذهول لا يكون أمرًا جيدًا أو مبهجًا دائمًا)، فتيات عرايا ورجال وشباب ملامحهم فلسطينية، أشخاص محليّون، ليسوا بشخصيات عامة على ما يبدو، ملابسهم، خلفيات الصور، وضعيتهم في صورهم. مَن هؤلاء؟ وما علاقة زوجي بهم؟

ثُمَّ... الفتيات؟! عرايا بالكامل، لَسْنَ عارضات أجساد، ولا فتيات نوادي التعري، لَسْنَ كفتيات المجلات، ملامح شرقية، وأجساد منهكة، أو نائمة، يبدو أنَّ مَن التقط الصور التقطها في غفلةٍ مِن هؤلاء الفتيات، ويتعمَّد أنْ يُظهِرَ وجوههن وظُهورَ مَن يستلقي فوقهن.

إنها صورٌ فضيحةٌ! هذا أقل ما توصف به، ما علاقة زوجي بكل هؤلاء؟ (هذا ما يهمُّ الأنثى ويخطر لها بداية)، قلَّبت صور الفتيات في محاولة للتعرف على أيِّ ملمح يشي بالرجال المشاركين في ذلك الفعل، البنية الجسدية تقريبًا

واحدة، كأنه رجل واحد وعدة نساء أو فتيات، لكنه ليس زوجي، هذا ما أريد التأكد منه، ليس زوجي في أيٍّ مِن كل تلك الصور، ومع كل هؤلاء الإناث.

إذن، ما علاقته بالأمر؟ وكيف حصل على تلك الصور؟

الصور... التصوير... المصور!

كيف سأتأكد؟ ألقيت كل ما في الظرف على الأرض، هناك مجموعة سيديهات، على الأغلب ستكون تصويرًا حيًّا متحركًا لتلك العينات، رغبت جدًّا بالتأكد، أخذت واحدًا، قمت سريعًا، فأدركت أنني تأذيت كثيرًا مِن أثر السقطة، زحفت ببطء شديد نحو الصالة حيث اللاب توب، لكنني قطعت طريقي خوفًا مِن قدوم مفاجئ لزوجي، سيثور غضبًا بلا شكٍّ، ماذا أفعل؟ الصعود ثانية والتعلقُ بالنافذة ثم إخفاء الملف حيث كان أمرًا شاقًّا مع إصابتي، لكنه حتميٌّ، سحبت كرسيًّا بلاستيكيًّا وآخرَ في يدي الثانية، رصفْتُهما فوق بعضهما، تناولت الملف وأعدته مكانه، عاد كل شيء كما كان إلا هواجسي... وإلَّا زوجي الذي بقي خارج البيت، وبقيت أنتظره.

قلبي يخفق بقوة مائة حصان، كأنه الصوت وصداه معًا، الصور تتسلق جدران عقلي فلا أرى سواها، وقد بات لها ظلال في خيالي نبتت تحتها أفكار واحتمالات لا تطاق.

هل أواجه زوجي؟ هل أخبر أهلي؟ هل أصمت؟ هل أنتظر؟

رن جرس الهاتف، قمت ببطء أردُّ بسبب وجع قدمي ووجع قلبي، فلا جسد يعين ولا همة تقاوم، لكن الصوت القادم من بعيد، المحبوس داخل الجهاز، كان لي بردًا وسط قيظ الفكر؛ إنها أمي! كم بكيت! سنة لم تكلمني فيها أمي حرفًا، سنة كاملة تشيح بوجهها عني لو التقيتُها في مكانٍ صدفةً، سنة كاملة ظننت أنها نسيت اسمي فيها، لم تَطُل المكالمة، يبدو أن أمي لم تحتمل دموعي، فقد بدا صوتها مرتجفًا غير واثق متلهفًا، لكنها حاولت إخفاء كل ذلك بحديثها السريع، أخي سيتزوج قريبًا، وأنا! أنا مدعوَّة لحفل زفافه بشرط ألَّا يحضر زوجي، سألتها إن كان أبي يوافق على قدومي، بلا شكٍّ يوافق! لكنني أردت السؤال عنه بطريقة غير مباشرة، أبلغتني منه السلام ثم أغلقت الهاتف.

يا للمعادلة القاسية التي عليَّ ترتيب عناصرها دون إحداث أيِّ انفجار! كيف سأقنع زوجي بذهابي وهو غير مرحّب به؟ كرامته ستهان، وكيف سأقنع أهلي بدعوة زوجي؟ قولهم فَصْلٌ ولا مجالًا لأيِّ حوار.

حتى أذان المغرب، حتى عاد زوجي. الطعام يحتاج لتسخين الآن، وأنا مرهقة من قسوة التفكير وألم قدمي وسطوة الواقع المبهم عليَّ، لم يقلْ كلامًا كثيرًا، وإن كان يعرف أنني أنتظر تفسيره للأمر، لكنني لم أسأله، وهو لم يبالِ بأيِّ توضيح، كأنَّ شؤونه ليست جزءًا مِن حياتي، أو كأني لستُ جزءًا مِن حياته خارج حدود البيت.

جلسنا نشاهد التلفاز معًا بصمت مُطْبِقٍ، فهو لم يتفوَّه بحرف منذ عاد،

كان باديًا عليه التوتر والإرهاق، حتى إنه لم يلحظ أنني أعرُجُ على قدمي حين قمت لإحضار القهوة له، كان هذا مريحًا فهو لن يسألني عن سبب ذلك، لكنني مضطرة لتأجيل الحديث عن زواج أخي، وهذا أيضًا جيد، لعلني أجد طريقة أو فكرة مناسبة أقنعه بها.

كنا نشاهد التلفاز معًا، قناة الجزيرة تحديدًا، لا بُدَّ أنَّ أحداث اليوم استرعت انتباه زوجي، لكنني لم أكن أعرف أنها ستقلب حياتي كلها، كان زوجي يتابع خبرًا يهمُّه، أما أنا فحين رأيت وجه الشهيد، كنت كمن يشاهد جريمة قتل حيَّةٍ أمامه، ويعرف القاتل، ولا يتحدث بالأمر حتى لنفسه!

كم من أمور تمرُّ دون أن نجيد فهمها فقط لأننا قررنا ذلك، قررنا أننا نريد أن تسير الأمور بهدوء، قررنا أننا أغبى من ربط الأمور ببعضها، قررنا أن كل شيء سيكون على ما يرام إذا أردنا أن يكون كذلك.

ما حلمتُ به الليلة الماضية مع ذلك الخبر الذي نقلته الجارة بداية، وتزامنه مع غياب زوجي، ثم ما جرى بعدها، يستدعي غابات من التساؤلات؛ أذكر جيدًا أنني رأيت في الحلم رجلاً لا أعرفه على كرسيٍّ مرتفع والناس تلفُّ به الشوارع، كان بلا قلب، ورأيت زوجي يمسك قلب الرجل بيده يأكل منه.

هل عليَّ أنْ أصدِّق أحلامي؟ هل أربط بين تلك الصور في غرفة النوم وذلك القيادي الشهيد الذي رأيت وجهه في التلفاز ليلة البارحة؟ ورأيت صوره في الملف؟

حاولتُ تجاهل الأمر، أقنعت نفسي أنَّ هناك سوء فهم كبير، لكنَّ رغبتي في حضور حفل زفاف أخي، دفعني إلى اتخاذ خطوة جريئة، هل كنت شريرة وقتها؟ أم كنتُ على حقٍّ؟ لا أدري نسبة ذكائي غير المفتعل، هل خططت لكل ذلك حقًّا؟! أم أنَّ الأمور سارت على النحو الصحيح وحدها؟

صباحًا، بينما نتناول فطورنا، طلب زوجي ألَّا أخبر أحدًا أنه أمضى وقتًا خارج البيت، ولو حصل وسئلت فعَليَّ أن أقول إنه كان مريضًا مقيمًا في البيت ليومين مضيا.

لكني قلت له:

- لكنَّ هذا كذب.

نظر إليَّ نظرة كأنه يقول لي "منذ متى يهمُّك الصدق والكذب؟"، ثم قال لي:

- افعلي ما أطلبه منك، فقط!

- دعني أفهم السبب على الأقل لأجيد التصرف، أو الكذب.

رمى قطعة الخبز من يده، أمسك ذراعي حتى التوى، وقال بغضب وهدوء:

- فقط، قولي ما أطلبه منك، هذا لو وجدت من يسألك، فأنت مَرْمِيَّةٌ هنا، لا أحد يهتم بك.

- بلى! لقد دعتني أمي لحضور حفل زفاف أخي، وسأذهب... وحدي.

كانت تلك فرصتي الذهبية، أن أتحدث في الأمر تلك اللحظة، في عزِّ قيظ غضبه، وبرودة وحدتي التي عيَّرني بها، كان لا بُدَّ أنْ أستغلَّ الموقف، لكنني لأُحْكِمَ الأمر قلت له بمنتهى البرود ونظرتي مسدَّدةٌ بالضبط صوب عيونه:

- ما علاقتك بالشهيد؟

ترك يدي سريعًا كأنه يقذفها، وبحث عن أيِّ شيء يهيِّئ به لقمة جديدة، لكن يده تلعثمت بين الأطباق، ولم يجبني بشيء، فقلت بتحدٍ:

- ما علاقتك بالشهيد؟ لقد رأيت الصور في غرفة النوم.

نظر إليَّ طويلاً، طويلاً جدًّا، حتى ظننته تجمَّد، للأسف نظرته الطويلة لم تكن في صالحي، فقد ارتبكت لا أعرف كيف أتصرف، هل عليَّ أنْ أقول شيئًا؟ هل عليَّ أنْ أتجمَّد مثله ليبقى على حاله حتى يهدأ؟ هل عليَّ أن أبتسم؟ قد أزيد استفزازه أو أوصل له رسالة أنَّ الأمر لا يستحق، لكنه يستحق، فلِمَ الخداع؟

بقينا على حالنا، كأننا تمثالان أو موديلان ينتظران ريشة رسام تلتقطهما معًا لتحبسهما داخل لوحة.

من سيتحرك أولاً؟ أيُّ ردَّة فعلٍ منّي سيجعله يتحرك، وساعتها لا أعرف ما سيحصل، فردود فعله باتت غير متوقعة منذ مدة، ليتني أعرف بماذا يفكر على الأقل، عيونه صامتة لا دهشة ولا بريق ولا غضب ولا حزن

ولا فضول، لا شيء، عيون ميتة كأنها معلَّقة في الفراغ أو كأنها بلا أعصاب تمنحها حياة، أيَّ حياة.

لا أذكر جيدًا بعدها ما حصل، أو لا أريد أنْ أتذكَّر قسوة ما حصل، لكنني حين استفَقْتُ كنت مُمدَّدة على الأرض، كان كل شِبر في جسدي يتألم، على الأرض بقع مِن دماء، تحسستُ فمي وأنفي، آثار الدماء، وجهي لم أستطع لمسه، ريقي لم أستطع بلعه، وجسدي لم أستطع حمله، ألم شديد في بطني وظهري، شَعري أحس به شجرة نتفتْها مخالب طير ما، لم أَعُدْ أشعر بألم قدمي أمام هذه الوجبة الدسمة.

سحبت نفسي إلى الأريكة في الصالة، حاولت مسح الدماء عن وجهي، لكنني شعرت بدوار ألقى بي بين يدي الغياب لساعات.

حين أفقت، كنت على حالي، قمت وغسلت وجهي ورتبت شَعري بمجهود كبير، تفقدت غرفة النوم بخوف وقلق، لا أحد هناك، لكن يبدو أنَّ الصور قد خُطِفتْ من مكانها على عجل.

بقيت وحدي يومين، بدأت البقع الزرقاء في وجهي تتسع مع انسحاب الألم من جسدي قليلاً قليلاً، كنتُ وبطريقة عجيبة أتعافى سريعًا، وكنت وباستغراب أفكر فقط في أنني يجب أن أتعافى قبل حفل زفاف أخي!

أحيانًا، ليس غضب أحدهم هو الذي يُحزِننا، إنما طريقته في التعبير عن غضبه، سهلٌ أنْ تتفهم الغضب، صعبٌ أن تتفهم التعبير القاسي عنه، تزول القضية ويبقى الأثر، لذا لم أسامح زوجي.

خلال غيابه، فكرت كثيرًا، كنت مشتتةً إلى الحدِّ الذي دفعني للاستعانة بورقة وقلم لتنظيم أفكاري، هذه عادة جميلة اكتسبتها في مرحلة مبكرة من عمري، فأنا في البداية قارئة ممتازة، وطالبة ذكية نوعًا ما، وثرثارة على الورق إلى حدٍّ لا يُصدَّق، لأنني في الواقع مع الآخرين مقتصدة جدًا في الكلام.

احْتَجْتُ إلى هذه العادة كثيرًا، حتى باتت تلازمني منذ شابهت أهل الكهف في عزلتي الإجبارية في بيت زوجي، خاصة بعد أن ضيَّق عليَّ الخناق بدعوى الغيرة فمنعني من الفيسبوك.

وضعت مخططًا لأهم الأمور التي يجب أن أفكر فيها، وما يتفرع عن كل فكرة:

- الملف وعلاقته بالشهيد، والحلم.
- علاقة زوجي بأهلي.
- حفل زفاف أخي.
- لماذا ضربني زوجي؟ وما سبب غضبه.

وتفرَّع عن كل قضية الكثير من الأفكار والتكهنات، والأسئلة، كنت كمن يسقي نبتة صغيرة وكبرت جدًا حتى التفَّتْ حولها وخنقتها، كل ذلك لإنتاج حبة بازيلاء واحدة فقط.

هذا الملف فيه صورة الشهيد، أيْ أنَّ زوجي يعرفه مسبقًا، ولعله يعرف حقيقته وما سيؤول إليه حاله، وهؤلاء الفتيات كذلك مرتبطات بزوجي أو

بالشهيد بطريقة أو بأخرى، هل كان لزوجي علاقة بالاغتيال؟ أم أنَّ للشهيد علاقة بالفتيات؟ أحدهما نظيف والآخر ليس بوطنيٍّ ولا نظيف، أحدهما مناضل والآخر عميل، لا يمكن تفسير الأمر بغير ذلك، قياديٌّ في حركة الجهاد وزوجي، إمّا أنَّ زوجي نظيف ويعرف عن القيادي الخائن، أو أنَّ القياديّ نظيف وزوجي ساهم في قتله.

هل يمكن ألَّا يكون أدنى علاقة بينهما؟

لعل زوجي صحفيٌّ يجمع المعلومات فقط.

عند هذه النقطة ارتحْتُ قليلاً وهدأْتُ، وضعتُ دائرة وثلاث نجمات عند هذه النتيجة.

لكنني مِن باب الحياد المطلق غير المُحبب، أجبرت نفسي على وضع خطٍّ ضعيف تحت الاحتمالات الأخرى.

عليَّ أنْ أعرف لماذا رفض أبي زوجي منذ البداية؟ هل يعقل أنَّ أبي رجل سيء ويخاف من كشف زوجي له؟ لو كان زوجي مكشوفًا لأبي لأخبرني حفاظًا عليَّ، هل يعقل أن يرمي بي أبي لرجل خائن دون أدنى رحمة؟ إذن؟ لماذا رفض أبي زواجي؟ ويرفض مجيء زوجي إلى بيته؟

تجاوزت أمر حفل زفاف أخي، كل ما يهمُّني أنني سأَحضُره وفقط، وسأستغل ما فعله زوجي بي ليرضخ لذهابي دون أدنى اعتراض، سوف أبتزُّ زوجي أوطنيًّا كان أو خائنًا.

أمَّا لماذا ضربني، فقد تراوحت الاحتمالات بين معلومات سريَّة يجب ألَّا أعرف عنها وخوفه من فضولي، أو أنْ يكون وراء هذا الملف ما هو أخطر، أنْ تُوصِل هذه المعلومات إلى معلومات أكبر، أو لعل الأمر مرتبط فقط بحفظ الأمانة من قبل زوجي الذي شعر أنه خانها حينما أشركني فيها بغير قصد، أيْ لم يحافظ على السرِّ كما يجب عند من يشاركونه فيه.

إذن بخصوص الملف: هو مهم إمَّا لِما فيه أو لِما يرتبط به من معلومات أكبر أو أشخاص آخرين.

عند هذا الحد، لم أحتمل، خبأت الورقة والقلم تحت مخدتي، تناولت حبة مسكن، تمنيت ألا أحلم بشيء، ثم نمت.

(٥)

وافق زوجي على حضوري حفل زفاف أخي، بل إنه اشترى لأبي ولأخي هدية العرس بنفسه، بعد يومين من الحادثة اعتذر لي وصالحني بموافقته على حضور حفل الزفاف، طالبًا ألّا أتحدث في موضوع الملف حتى يحدثني هو وسأفهم ساعتها كل شيء منه.

(المهم هنا أنكم أيها القراء ستخرجون معي من الكهف الذي حُبِسْتُ فيه سنة كاملة وشهرين، لعلكم أثقل عليكم وصفي في بضع صفحات لِما يجري معي في مكان واحد، فكيف لو عشتموه سنة وشهرين مثلي؟ حتى أصبحتُ مثل نملة أحفظ كل شقوقه وما خلف جدرانه؟)

اشترى زوجي لأبي ساعة يدٍ فاخرةٍ هديةً، واختار لأخي ثريا فاخرة للصالون، وساعة يد بديعة.

سألني يومها إن كنت لا زلت أحبه، للحقيقة لم أعرف الجواب لأنَّ السؤال لم يخطر لي، كان الأمر أشبه بسؤال وردة قُطِفَتْ إنْ أحبَّتْ الرجوع

إلى أخواتها في البستان، لم تكن علاقتي به في ذلك الوقت علاقة حب، بل علاقة احتياج، والحاجة أحيانًا تجبرنا على اختيار أقسى مما يجبرنا عليه الحب، تزوجته، نبذني أهلي، لا مكان أذهب إليه، ولا أملك استقلالاً ماديًّا، فماذا عساي أن أفعل سوى أنْ أحبَّه، فأنا أفرُّ مِنه إليه ولا أعرف سواه ولا ملجأ لي غيره.

كان الجواب كلقمة غير ممضوغة عليَّ بلعها سريعًا أو لفظها سريعًا، بلعتُها ولفظت جوابي بـــ "نعم"، ولأتمَّ المشهد المصنوع عانقته وشكرته للهدايا ولقبوله بحضوري الحفل.

ربَّتَ على شعري بهدوء، ثم أزاحني، وخرج دون أنْ ينطق بحرف.

حفل الزفاف منزوعُ دَسَمِ الفرحةِ بالنسبة لي، لأنه اختبار مشاعر، وإعادة بناء، فرصتي لأستعيد أهليَ، هل تفكيري هذا محاولة لضمان مهربٍ من زوجي مستقبلاً؟ أم شوق إلى الأهل؟ أم شعور بالحاجة الطبيعية إلى السند والدعم الخارجي؟

تباطأت كثيرًا صباحًا وأنا أجهز نفسي للذهاب، حقيبة ملابسي، فقد قررت الذهاب يوم الحفل والبقاء يومًا بعده، كنت أتمنى الذهاب قبل الحفل بيومين لوزن الأمور ومحاولة إصلاحها، وكان ينتزعني من هذه الرغبة تردُّدٌ بأنني أضع نفسي في مواجهة مباشرة مع كل شيء قبل الحفل، خفت المواجهة المباشرة، وفضلت أن أتحصن بالضيوف من ردود فعل أهلي، وبأهلي من عيون الضيوف الفضولية.

بقي أن أقرِّر إن كنت سأصِلُ قبل الغداء بقليل أو خلاله.

لكنني شعرت أنني سأكون بغيضة لو وصلت موعد الغداء كالغرباء، فرغم غربتي إلا أنَّ قوانين المجتمع تحتِّم أنني من أهل البيت وعليَّ الوصول قبلَ الآخرين وإلَّا أَثَرْتُ انتقاداتهم.

وصلتُ ومظاهر البهجة تختلط ببخور يوم الجمعة السماوي مِن دَعَة وألفة، وباختلاط رائحة الصيف والعطلة مع مظاهر الاحتفال، ممزوجة بأصوات الصغار يتقافزون أمام البيت، كل ذلك أثار في نفسي شجنًا لم أستطع استقباله دفعة واحدة، فبلعت ريقي ولجمت حنيني بمخاوفي ورهبة اللقاء، واقتربت أكثر حتى وصلت الباب، كنت أريد الدخول بهدوء حذر لكنْ تبًّا للأطفال أولاد أخوتي الذين نسيت طباعهم في غربتي! فضحوني إذ تذكَّروني، وأقبلوا عليَّ مصافحين ببراءة دكَّتْ آخر معاقل صمودي فعانقتهم وبكيت، وندمت جدًّا إذ لم أحضر لهم معي بعض الحلوى والفستق.

يا هذا! نسيت اسم ابن أختي! فَرْخُ الجِنِّ ذاك! هرع إلى البيت كصفارات الشرطة يصرخ باسمي وبمقدمي.

انتصبت واقفة، وتقدمت يساعدني أولاد أخوتي في حمل حقائبي وأكياسي الثقيلة، جيِّدٌ ألَّا ولدَ لي وإلَّا كنت سأحشوه في أحد الأكياس لأحمله، لكثرة ما معي، بقيت واقفة بباب البيت مطرقة رأسي، حين سمعت صوتًا يقول لي: "أهلا وسهلا"

كانت تلك الـ "أهلا وسهلا"، أجمل ما سمعت من الأغاني في حياتي، كانت عزفًا قادمًا من أعماق ذكرياتي، كان الصوت أشبه بجوقة كاملة تحتفل بمقدمي، صوت أمي! ثم انفجرت بالبكاء وأنا أقبِّل يديها ورجليها ورأسها، أهبط مرة وأرتفع مرة، أحضنها بقوة مرة ثم أبتعد قليلاً، اختلطت دموعي بدموعها الآن كما اختلط دمي بدمها يومًا قبل ميلادي، كأنني أولد ولادة ثانية، ما أقسانا! أكان علينا أن نبتعد كل هذا ما دُمْنا سنعود فنقترب ثانية أكثر؟ أكان يجب أن يحصل كل هذا يا أمي لنختبر نقاء دمائنا؟ كما الأوطان ندرك حبنا لها حين تنسلُّ من بين أيدينا بعيدًا وتتنصلُّ منا، فنغنّي لها أغنية جميلة.

كان مشهدًا دراميًّا، وكان الجمهور الذي احتشد ولم أنتبه له من العائلة، كله يبكي خلف أمي كأننا عائلة لم تكن قبل أيام تماثيل من رخام.

غاب أبي وأخي عن المشهد، تذرَّعت أمي بانشغالهما بالإعداد للحفل، كان ذلك مريحًا لي، فقلوب النساء دومًا أرقُّ في هذه الظروف، ما لم تحمل عداوة حقيقية، فإذا حملت العداوة كانت قلوب الرجال المحاربين أرقَّ منها وأقل عنادًا، المرأة تفقد المنطق عند العاطفة، لذا تلين بسهولة وتقسو بسهولة، عكس الرجال الذين يغلبهم المنطق على العاطفة فيسهل إقناعهم أو يصعب حسب المنطق، لكنني في ذلك الموقف كنت في أمسِّ الحاجة للعاطفة اللينة لا للمنطق المُحكَم.

جلست والعائلة ساعة نتحدث، عرفت فيها الكثير من أخبارهم، مَن تزوج ومَن تطلَّق ومَن أنجبتْ، لكنني لم أستطع تعبئة فراغ الآذان بأخبار كثيرة كما فعلوا، أخباري كانت ضعيفة، كان عليَّ اختلاق بعضها لأملأ صورة حياتي الفارغة، لكني شعرت أنَّ أمي لم تُصَبْ بخيبةٍ ثقيلة حين أخبرتها أنَّ زوجي بخير ويعاملني جيدًا، وأنَّ موضوع الأولاد أمرٌ خارجٌ عن الإرادة ننتظر فيه إذنًا من الله (كيف أخبرها أنني فقدتُ جنينيْن بسبب سوء التغذية وسوء المعاملة؟) أحضرتُ خير أثوابي التي تُعَدُّ أغلبها غير مستعملة بسبب عزلتي، ولمَّحت لها كثيرًا أنَّ الهدايا التي أحضرتُها هي ثمرة عملي الخاص، وليست من نقود زوجي، لتهيِّئ قبول كلٍّ من أبي وأخي للهدية، كم وكم كذبتُ لأُشعِرَهم أنَّ زواجي كان قرارًا موفَّقًا، وأنَّ زوجي يحتفظ بأمانتهم على أفضل وجه! فهل أخطأت التصرف؟

سحبتني أخواتي من وسط هذه المشاعر الجياشة، فالفرح يحتاج فرحًا لا توترًا، سرقْنَني من حضن أمي وركضن بي معهن إلى الصالون لتجهيز نفسي معهن.

(٦)

عُدْنا مِن حفل الزفاف، ونفسي مطمئنة بدفء العائلة، كان أخي بهيًّا في عرسه، وقَبِلَ هديتي، لا أعرف إن كان إرضاءً لأبي، أم حرجًا مِن الناس، أم تلطُّفًا في معاملتي بعد غياب طويل، لكنني رقصت معه مرتين، وقبَّلت خدوده اثنتين، وعانقت عيوني ملامحه ألفين.

لم يحصل مِن المُنغِّصات إلا بعض المواقف التي تستدعيها كلُّ ريحٍ جديدةٍ تهبُّ في تعاقب الفصول؛ أهمُّها أني غفوت في الحفل على الكرسي رغم ضجيج الموسيقى، حتى صرتُ مادة للتندُّر بين أخواتي ومادة للغمز البريء حول قصة امرأة متزوجة تنام مبكرًا تاركة زوجها على أعتاب الليل يصارع رغباته أمام الجميلة النائمة، لم أخبر أحدًا أنها أعمق خمس دقائق نمتُها منذ سنة، لشدة الاسترخاء الحاصل مِن شعوري الغامر بالفرح والراحة الناشئة وسط هذه الألفة التي اشتقت إليها، كقطةٍ تحت المطر نامت لحظة عثورها على موقد مشتعل في مكان جاف.

تفاجأت أنَّ كثيرات سلمن عليَّ وسألنني عن الحياة في ليبيا، ناصحاتٍ لي بإقناع زوجي بترك الغربة والعودة إلى الوطن! هكذا إذن! هكذا غطى أهلي غيابي الطويل.

صديقتي المفضلة من بنات العائلة سافرتْ إثر حصولها على منحة تعليمية، إلى بريطانيا، كم تمنيتُ رؤيتها، تعجبتُ كيف سافرتْ وحدها وسط هذا المجتمع المحافظ، يبدو أنَّ أبي فقط هو المحافظ وألَّا شيء مِن مخاوفه يتحقق، كنتُ قد تمنيتُ قديماً أنْ أسافر في منحة دراسية حصلت عليها لكنَّ أبي رفض بشدة، غير مُبْدٍ أيَّ أسباب منطقية سوى خوفه عليَّ مِن الافتتان بالغرب وعدم الرجوع، أو الخوف عليَّ مِن رجلٍ يخدعني ويسرقني من وطني ونفسي، أبي يخاف أن أتزوج رجلاً غير مسلمٍ هناك.

شعرتُ بغصَّةٍ لا أعرف لها أصلاً، هل أشعر بالغيرة مِن صديقتي؟ أم هل أبكي ما آلت إليه أحوالي؟ بكل حال خسرت أهلي وخسروني، ليتني خسرتهم بشهادة كبرى بدل هذا الزواج الذي أفقدني حتى حرية الاختيار، أحيانًا علينا أنْ نفكِّر جيدًا ما المقابل الذي نحصل عليه لخسارة كبرى واقعةٍ بكلِّ حال.

خلال خروج أخي لزفَّةِ الشباب، امتلأت الساحة بالفتيات المحجبات وقد خلعن حجابهن وتنافسن في سباقٍ استعراضيٍّ محموم للرقص، هذه عاداتنا، كلَّما خرج العريس أُخْلِيَتْ ساحةُ الرقص لقريبات العائلة الراغبات بالرقص من المحجبات من العائلتين؛ العروس والعريس، ينزعن حجابهن

وتمتلئ المنصة بهنّ حتى لا يبقى متَّسعٌ لأيَّة حركة راقصة، والجيدة هي التي تحتل مكانًا في مقدمة المنصة أو قريبًا من أطرافها ليراها الجميع، في هذه اللحظات تتوقف الانتقادات اللاذعة، والضحكات الساخرة، والتصفيق المجامل للعروس، ليبدأ التحديق وفرز الفتيات المتزوجات من غيرهن والسؤال عنهن للخطبة، فموسم الأفراح في بلادي يشبه موسم تزاوج القطط؛ لا يمرُّ بلا آثار جانبية، وحملة "اطرق الباب" تأتي كمظهر متمِّمٍ لأفراح الصيف عادةً.

لفت نظري بين الراقصات فتاة جميلة ناعمة طويلة بيضاء ذات شعر أسود منسدل ناعم، ورقَّة في ملامحها تشبه عذوبة فتيات اليابان ورقتهن.

سألت من تكون، من باب الفضول، فأنا لا ابنَ ولا أخَ لي أبحث له عن عروس، ليتني لم أسأل، كان الجواب بصفعةً في الوجه، ووجعًا في الروح، رغم أني حسبتني شُفيت، كانت زوجة قريبي البعيد، الذي طالما أحببته صغيرة وأحبني، ورفض أهلي زواجي به.

كانت حجَّتهم أنَّ هذا الشاب يُعاني مِن مرض لا شفاء منه، وأنني أستحق رجلاً خيرًا منه، حاولت التظاهر بالسرور لأنه تزوج أخيرًا، لكنني في أعماقي شعرت بغيرة وبغُصَّة وبحزن معتَّقٍ خرج لتوه من دِنِّه فأغرقني.

بقيت عند أهلي لليوم التالي، لم أرَ أبي إلا صباحًا، سلَّمتُ عليه فبَدا هادئًا مسالمًا، كأنه قد رآني قبل ساعات، قدَّمت له هديتي بوساطة أمي، خطفتُ نظرة إلى يده، فلم أرَ الساعة، ما زال يرفض هديتي، أو أنَّ أمي أهملت إخباره

أنها من حُرِّ مالي... كذبًا، كنت أريد بقوة أن يقبل الهدية، ليقبَلني، لعله لا يحب لبس ساعات اليد، لعله قَبِلَها لكن لم يُتَحْ له تقييد معصمه بها بعد.

في ساعات الهدوء قبل أوْج الصخب والتحضير لِمَا نسميه "السُّبْحَة/ الصباحية"، جلستُ في الشرفة، بيدي ورقة وقلم، أكتب أيَّ شيء يخطر في بالي دون تقرير طريقةٍ محدَّدة للكتابة، قد تنمو قصةً أو تستريح في محطة الخاطرة، أو تكتفي بأنْ تكون خطوطًا عريضة حول ما أفكر فيه.

جاء أبي وجلس قريبًا مني، بقي صامتًا مدة من الزمان، لكنَّ شفاهه وجِلْسَته يَشِيَان بحديث كثير، كنت مثبِّتة رأسي في الورقة والقلم أزعم أنني أكتب، ولكنني كنت بكلِّ حواسي معه حتى كدتُ أرسمه على الورق، أنا الآن في حالة ترقب شديد لِما سيقوله، لقد دردشنا صباحًا، فهو لا يحتاج لمقدمات نفسية ليقول لي "كيف حالك!" ما الموضوع الذي يفكر فيه بخصوصي ويبحث عن طريقة ليخوض فيه؟ هل لمح في عيوني ذلك الإنهاك الذي حاولت إخفاءه فأثار فضوله للسؤال؟ هل يخاف إن سألني عن زوجي أن أثور غضبًا؟ اسألني أرجوك يا أبي، قل لي: كيف أنت وزوجك؟ سأخبرك الحقيقة بلا كذب، سأحدِّثك عن الملف، وعن ضياعي، سأشكوه لك حتى لو اعترتك شماتة، لكن أرجوك اسألني عن حالي معه.

بدل كل ذلك، قام من مكانه، ليجيب نداء هاتفه الجوال، وتركني أبحث عن بعض الهواء أعبُّه ويدي على الورق وبقايا دمعة نافِرَة سقطت لتذيب الحبر.

كدت أقوم من مكاني، لكنه عاد إليَّ، ويبدو أنه قرر ألَّا يضيع مزيدًا من الوقت، فقال لي مباشرة:

- ما زلت أرفض زوجك، لكنَّ هذا لا يمنعني من القلق عليك في حال تطورت الأمور أكثر.

كان كلامه صادمًا، فهذا آخر ما توقعت أن يقوله، قلت له:

- كيف تتطور الأمور أكثر؟ لا أفهم.

تلك التنهيدة التي خرجت منه! كيف تحمل الأنفاس أحيانًا ألف رسالة نعجز عن البوح بها، هو لم يقل شيئًا لكنني فهمت الكثير، وما الأصوات سوى أنفاس خارجة؟ وما الكلمات سوى زفير يتبعه زفير؟ هذه التنهيدة المجرَّدة من كل صوت، حملت ما لا يحتمله أيُّ صوت من معانٍ وأفكار.

أشعرتْني بعمق حزنه وبقلقه عليَّ وبحذره وبترقبه، بل زادت شكوكي حول الملف، والأدهى أنها أخبرتني أنَّ أبي يعرف أكثر مما أعرف حتى! أحقًا؟ مشكلة المفهوم غير المنطوق أنه يوقفك عاجزًا عن مزيد توضيح، يتركك تفتح باب التأويلات على مصراعيه لفرط ما يحمل من رسائل، لعلها كلها صحيحة.

قلت له بعد طول صمت:

- أبي، ماذا أفعل؟

- اتركيها لله، ربنا يستر.

كنا نتحدث بلغة مشفَّرة كأننا انتهينا للتو من مناقشة قضية ضخمة خطيرة، وصرنا نناقش النتائج، كيف حصل هذا؟ بين ثنايا الكلام حشوات كلام. ترددتُ كثيرًا حين خطر لي أن أخبره عن الملف، هل أخبره؟ كان زوجي وحشًا يتمثَّل لي بغضبه، ماذا لو عرف؟ ماذا لو عرف ورفض أبي حمايتي منه؟ ليت أبي يخبرني بوضوح جليٍّ أنه يعرف الكثير، لأخبرته كذلك بالكثير، لكنَّ هذا الضباب الذي يمحو الطريق، كيف لا أتخبط فيه؟

وأنا المتهورة بطبعي، أخذت نفسًا عميقًا، وقلت:

- أبي، لماذا رفضت زواجي منه؟ لماذا رفضته دون إبداء أسباب؟

- سيأتي يوم وتعرفين الحقيقة التي لا أقدر على البوح بها، وستعرفين ساعتها أنَّ قراري كان صائبًا.

- ماذا لو اكتشفت الحقيقة أو شممت رائحتها وحدي؟ ماذا عليَّ أن أفعل ساعتها؟

- ساعتها، كل الدنيا ستتولى الفعل عنك، ادعي الله ساعتها فقط أن يحفظك.

هل أخبره عن الملف؟

حاولت صياغة أفكاري في عبارات منمَّقة تَحميني من الوضوح المباشر بين يديه، حاولت تجريد الخبر من انطباعاتي ومخاوفي قبل طرحه، يبدو أنَّ هذا يستغرق وقتًا طويلاً، فحين استفقت من شرودي كان أبي قد ذهب، ولم أره بعدها.

(٧)

- كيف حالك أهلك؟

- بخير، تقريبًا على حالهم، لولا أنَّ الضغط يرتفع مع أمي أحيانًا، وأختي خُطِبت.

- تقبَّلوك بشكل جيد؟ عاملوك جيدًا؟

كدت أقول ساخرة: "خيرًا مِمّا عاملتني مؤخرًا!" لكنني قلت:

- نعم، أحسنوا معاملتي، أمي تلهفت كثيرًا لرؤيتي، وأبي كان شديد الحنان والهدوء معي.

- أما سألوك عني؟

- كأن لم تكن!

نظر إليَّ بدهشة وغضب، لكنه يبدو يريد أن يصل إلى شيء محدد، فكتم غضبه وردَّ الصفعة بقوله:

- الله يخلي لك أهلك.

- آمين.

- هل قبلوا هداياك؟

- نعم، قبلوها، لبس أخي الساعة يوم العرس، ولبسها أبي في اليوم التالي مباشرة.

(أحيانًا كذباتنا المُكابِرة تنقذ الكثير مِمّا لا نعلمه، أو تفسد الكثير.)

- جميل، يبدو أن الأمور ستتحسن قريبًا فعلاً.

- ماذا كنت تريد أن تخبرني عن الملف؟

سكت طويلاً، ثم قال لي:

- اسمعيني يا حنين، هذا الملف لا تذكريه أمامي إلّا حين أحدثك أنا عنه. بكل حال هناك أمر أهم يجب أن نتحدث فيه.

- عبد، متى ستحدثني عنه؟ كل مرة تماطل وتؤجل، ثم ما هو الأهم من موضوع الملف الذي ما زالت آثاره على جسدي ظاهرة، أخفيتها بصعوبة عن أهلي.

- لم تخبريهم بشيء عنه، صحيح؟

- أخبِرْني لأقدر قيمة الموقف جيدًا، فلا أخبرهم عن أمر لا أعرف عواقبه.

- أتهديني يا بنت الـ...

- لا تشتم! أحذِّرك أن تشتم أهلي!

- ها؟ يومان أمضيتهما عند أهلك، صاروا الآن أحسن ناس، كأنهم لم ينبذوك سنة كاملة، رحم الله ما كان حينما كنت تشكين لي منهم.

- كنت تسمعني وتعوضني، أما الآن! لقد ضربتني.

- يا حبيبتي، رغمًا عني فعلت، أنتِ لا تقدِّرين الموقف جيدًا. بكل حال اسمعي ما هو أهم من قضية الملف.

- تفضل.

- حنين، أريدك أن تشاهدي معي هذا الفيديو الآن.

هللتُ فرحًا، ظننت زوجي مشتاقًا إليَّ ويريد إثارة طَلْع الحنين في جسدي، أو أنه يجدد عهود الحب، عوَّدني كثيرًا أن نشاهد فيلم بورنو قبل سهرة صاخبة، بكل حالٍ لن نشاهد فيلمًا وثائقيًا عن تطور الديناصورات، إلا أن يكون راغبًا بالتناسل حتى لا ننقرض أنا وهو على هذه الحال! ولن يكون فيلمًا عن فن العمارة.

جلسنا نشاهد الفيلم معًا، بعد أن أعددت طبق بوشار كبير، وبعض العصائر والقهوة، كأننا ذاهبان إلى السينما.

- ما هذا؟

- صمتًا، شاهدي بصمت تام.

لكنني لم أستطع، نظرت إلى الفيديو لأصدق ما أرى، ثم نظرت إليه ثانيةً، لكنه بطرف أصبعه أزاح ذقني ووجَّهَهُ نحو الشاشة، يحثُّني على المشاهدة. كدت أنطق، لكنه وضع يده على إصبعه آمرًا بالصمت، وأشار إلى الشاشة لأتابعها، غرقت في مكاني، بل انكمشت وقلبي يخفق، تابعت وأنا لا أفهم شيئًا.

بشرٌ بائسون يبكون ويهربون إلى اللامكان، الجنود يحاصرونهم من كل مكان، يحوطونهم كنملٍ ينتظر موت فريسته المنهكة، فزعت لألمهم حتى تمسكت بذراع زوجي، وأنا أراهم يتخبطون، صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساءً، الأطفال أرهقني منظرهم يلقَوْن في أفران كبيرة تلتهمهم بلا شفقة، بكيت، نظر إليَّ زوجي وربَّت على يدي، وقال:

- هناك أسوأ! وهناك أجمل، انتظري بقية الفيلم.

عدت للمشاهدة، لكن ما رأيته زاد إنهاكي وانتهاك سكينة قلبي؛ من لم يمت بالنار دفن حيًّا في مقابر جماعية، أو رُمِيَ بالرصاص، طفلة صغيرة تحتضن دميتها، تراقب أمها التي اغتصبت وقتلت، ترتجف من الفزع، تختبئ تحت عربة حتى ينتهي الأمر، تحتضن دميتها وتخاف حتى من البكاء! يا لرهبة المشهد، حين تكتم دموعك وتخفي صوتك، وأنت ترى أهلك يُقتَلون أمامك، خوفًا على نفسك.

شاهدت امرأة عجوز تتحدث عن تجربتها وهي طفلة، كيف أنقذتها من الموت سيدة فرنسية تعيش في ألمانيا، فأخذتها إلى بيتها بعدما تسللت من

خلف المعسكر الذي حبست فيه، لضآلة حجمها، الذي ساعدها في الاختباء، تتحدث عن تلك السيدة الفرنسية كيف نقلتها فيما بعد إلى فرنسا ومن هناك أرسلتها مع عائلة يهودية إلى أرض الميعاد، تتحدث عن رحلة العذاب التي لاقتها، ذكريات الموت، رائحته التي تسللت إلى أحلامها حتى اللحظة، والمشاهد التي رافقتها طوال عمرها، بكت بحرقة، وهي تتذكر دميتها التي وقعت منها في البحر، وكادت تقفز خلفها لتحضرها إلا أنَّ بعض الركاب منعوها من ذلك، لم يكن من وقت ولا طاقة لأحد أنْ يواسي أحدًا، فلكلٍّ جروحه وأحبَّته الذين فقدهم، لم تكن دميتها بالأهمية التي تدفع أحدهم لإعادتها، تَذْكُر أنَّ لتلك الدمية ذكرى خاصة، هدية أمها الأخيرة قبل أن يغيبها فرن الغاز، وأمانها الأخير، كانت صديقتها التي أودعتها أسرارها حينما فقدت كل شيء.

انتقل شريط الفيديو، إلى مكان آخر، وبقي بالأبيض والأسود، إلى دولة عربية لم يبيِّن الفيديو أيّة دولة عربية، أظنها مصر، بل لعلها العراق، لست واثقة فأنا لا أعرف تلك الدول إلا من خلال ما أشاهده في التلفاز، لكن الفيديو يسلِّط الضوء على المعاملة البذيئة التي تنال اليهود بين العرب المسلمين في تلك الدولة، الانسحاق اللئيم الذي يسلطه المسلمون على اليهود لمجرد أنهم يهود، يهودي يحب جارته المسلمة ولا يريد منها سوى أن تكون بخير، وتحب أهلها ودينها أكثر، يرفض زواجه بها لأجلها، فيتمّ قتله، سيدة يهودية عجوز تُرجَم حتى الموت لمجرد أنها لا تحترم حرمة رمضان وتضطر لتناول الطعام لأنها مصابة بالسكري ولا تغطي شعرها.

شعرت بمرارة وحموضة ومغص شديد في بطني، حتى كرهت عروبتي، لم أصدِّق أن العرب يفعلون ذلك بجيرانهم لمجرد أنهم يهود!

لم يتوقف الفيديو عند ذلك الحد، عرض الفيديو الأمل والبشرى والتفاؤل الذي حظي به اليهود حين أنقذهم بلفور بوعده، الأمان الذي حصلوا عليه بعد عناء سنين طالت، القلوب التي توحدت والشمل الذي التمَّ بعد عصور من التشرد، ثم يصور الفيديو الفلسطيني الذي كسر ذلك الحلم وحطم ذلك الأمل برفضه للتعايش في تلك الأرض، رفضه لأيِّ وجود يهودي على أرضه حتى لو مدَّ اليهودي يد المحبة وجلب معه التقدم الصناعي والرقي والحضارة الغربية. صوَّر الفيديو العربي ناكر الجميل العنصري المتكبر.

استمر الفيديو قرابة ساعة ونصف، يتقلب من حال إلى حال، ممتدًا من بدايات القرن العشرين حتى وقتنا الحالي.

حين انتهى الفيديو أخذت نفسًا عميقًا، رأيت زوجي يميل بجذعه إليَّ يقبِّلني بقوة، ثم يسحبني إلى غرفة النوم عنوة حاملاً إياي بين يديه، وأنا أضحك بصوت مرتفع لهذا التغير المفاجئ فيه.

كان زوجي نهمًا في الفِراش، بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، وبكل ما في المعنى من حسيَّة ناضجة، حتى قلت لا بُدَّ سأحمل اليوم منه بجنين بعد هذه التغذية الدسمة لرحمي!

بعد غفوة حظينا بها، وجدت زوجي يحضر القهوة لي إلى الفراش، لم يفعلها منذ كنت عروسًا، كنت أحتاج فعلاً لقهوتي لأتيقن أني على قيد اليقظة.

- ما هذا الدلال؟

سألته مبتسمة متعجبة.

- لك حب كهذا وأكبر، لكن كوني معي فيما أحب.

- وما الذي تحبه؟

- هل أعجبك الفيديو؟

- لقد أثَّر فيّ كثيرًا، حتى بكيت.

- حين تحبين ما أحب سأحبك أكثر.

- ماذا تحب؟

- نصرة الإنسان حيثما كان، لا أحب الظلم، وأحب نصرة المظلومين. والله السلام جميل، فلماذا نعيش حروبًا لا فائدة منها سوى خسائر لا تعويض لها. كل يوم ذبح وقتل وتضييق، وآلام.

ثم صمت ليرى رد فعلي، فقلت مُجارية له:

- أتمنى أن تنجح عملية السلام، وتهدأ الأمور.

- القيادات وحدها لا تستطيع يا حبيبة قلبي، العاديون أمثالنا لهم قدرة على التغيير، دوننا لا يمكن لأيّ قيادة النجاح.

– أتقصد أنَّ علينا دعم عملية السلام؟

– نعم، ويمكننا فعل ما هو أكثر.

– ما هو أكثر؟

– أن نقف بالمرصاد لكل من يعرقل عملية السلام.

– من يعرقلها؟

– من يريد الحرب، من يرفض السلام، من ينفذ عمليات خلال المفاوضات لإحباط القيادة والضغط عليها لتقدم مزيد تنازلات.

– ما العلاقة بين العمليات والمفاوضات؟

– كلما جلسوا للمفاوضات لتثبيت السلام وخلق توازن في المنطقة بين الجانبين، جاء توقيت العمليات ليحرج القيادة الفلسطينية، هي رسالة للعالم أننا إرهابيون ولا نستحق السلام، فنضطر إثبات حسن النوايا بأنْ نقدِّم مزيدَ تنازلاتٍ حتى تستمر المفاوضات.

– فهمت، التوقيت السيء لا يصنع الحكايات الجميلة إذن.

(٨)

وطني... يا جبل الغيم الأزرق

وطني... يا قمر الندي والزنبق

يا بيوت الـ بيحبونا

يا تراب اللي سبقونا

يا زغير ووسع الدني ... وسع الدني... يا وطني

***

شجر أراضيك... سواعد أهلي شجروه

وحجار حفافيك... وجوه جدودي الـ عمروه

وعاشوا فيك.. من مية سنة.. من ألف سنة.. من أول الدني.

وطني...

ما هو الوطن؟

ما معنى الوطن؟

ما هي المواطنة؟

من أنا؟

كيف تكون الخيانة؟

ما علاقة الوطنية والخيانة بالسلام والتعايش؟

كانت كل هذه الأسئلة تلوكني ثم تلفظني على شكل سؤال كبير وأنا أستمع بانتباه شديد وخشوع مقدس إلى أغنية الست فيروز.

كانت تلك الأسئلة تثيرني، ويثيرني أكثر ما جرى البارحة، لست غبية إلى الحد الذي لا أفهم معه المقاصد، أو أتعامى عنها، أمسكت الورقة والقلم كعادتي لأفهم أكثر، فإذا بي أخط في وسط الصفحة الأولى بخط كبير كلمة واحدة:

"العميل"

ثم أقلب الصفحة، إنني أتهيأ لكتابة قصة، حول كل هذه الأفكار، لكنني أدركت قبل أية كتابة أنني أعترف لنفسي بأن زوجي عميل، خارت قواي وانهرت تمامًا، وبتُّ كثوْرٍ في ساقية لا يجد مهربًا.

(٩)

بدأتُ بقصتي، لكنها تمددت بين أصابعي كعجينة اختمرت، وانسابت كالماء مني حتى عانيت من انفلات فكريٍّ في ضبطها قصةً، كلما كتبت توسعت الكتابة، كأنني أمام تكاثُر رهيب لخلايا فيروسية لا تتوقف.

وضعت الأوراق جانبًا، وفتحت صفحة جديدة، حين أدركت أنني أمام رواية تولد، وبدأت بوضع الخطوط العريضة وتقسيم الأفكار إلى فصول.

عم تتحدث الرواية؟ أهم الموضوعات التي تتناولها:

- كيف يتم تجنيد العميل.
- ظروف حياة العميل.
- كيف يتصرف العملاء؟ وكيف يتم كشفهم؟
- أفضل نهاية للعميل.
- هل يتوب العميل؟

الفصل الأول:

الفكرة: حياة شاب من طبقة متوسطة، كيف يتم تجنيده.

الشخصيات: الشاب / الأم / الأب / الأخ الأكبر / الزوجة / الأولاد/ الضابط الإسرائيلي / خطيبة العميل.

الأحداث: تبدأ الأحداث بشاب طموحه أكبر بكثير من إنجازه، يحتاج لوظيفة ومال، يتم تجنيده من قبل رجل اقتصاد مهم. يصبح موظفًا مرموقًا في مؤسسة حكومية كبيرة.

الفصل الثاني:

الفكرة: كيف يستغل العميل وظيفته لتجنيد آخرين، ومحاولة اقتحام عالم النضال.

الشخصيات: العميل / خطيبته/ موظفون/ الضابط / شخصية وطنية مناضلة.

الأحداث: تتحول القضية إلى شبكة من الجواسيس ترتبط بضابط واحد، ويتعرف الشاب على فتاة في المؤسسة يرغب بالزواج بها، تخطب له رغم أنه متزوج، ثم تكتشف أنه خائن فيحاول إيقاعها عن طريق تهديدها بصور لها عنده وهي مخطوبة، ومن خوفها تنزلق في مطبٍّ أكبر.

الفصل الثالث:

الفكرة: حين ينكشف الخائن، كيف ينكشف؟ كيف يتم التعامل معه؟ علاقة المقربين منه بالقضية وردة فعل المجتمع تجاههم.

الشخصيات: الشاب / أفراد الخلية المكونة من شاب جامعي يتظاهر بحفظ القرآن / موظف في بنك يعرف الأشخاص المضطرين ماديًّا ليقوم بتوريطهم في القروض ثم ابتزازهم أو عرض المال عليهم مقابل معلومات/ الفتاة التي تجند أخاها عن طريق إغرائه جنسيًّا ثم ابتزازه.

الأحداث: قتل المناضل يؤدي إلى كشف الخلية ويتم التحقيق معهم وينكشف رئيس الخلية وهو الشاب وتتم محاسبته.

كيف تكون البداية؟

أصعب ما عليَّ فعله هو بداية الأحداث، لأنه عليها ستُبنى لاحقًا كل الرواية، كذلك إنْ كانت مُملَّة غير مشوقة لا تدخل في الأحداث مباشرة، سيُلقي بها القارئ بعيدًا. (مهلاً! هل أكتب لأجل القارئ؟ هذه روايتي التي أريد بها تفريغ ما جرى معي لفهم ذاتي وما يجري بشكل أوضح، لأتخذ قرارًا بناء على كل ذلك، فليذهب القارئ إلى الجحيم!)

لكنْ، يجب أن تكون رواية جيدة، وإلَّا فاليوميات ودفتر الملاحظات كفاية. لكنَّ الرواية تعبِّر عن أعماقنا، نحن نترجم أنفسنا بشكل جيد أو سيء

جدًّا من خلال الرواية، فنثرثر كثيرًا أو نجمح في خيالنا فنتوهم الخيال واقعًا حقيقيًّا.

إنْ كنتُ أكتب روايتي لأَفْهَمَني فعليَّ قراءة ما أكتبه كل فترة، وأحلله كما يحلل الطبيب النفسي لوحة يرسمها طفلٌ، وإنْ كنتُ أكتب لأجل القارئ والنشر، فلا يهمُّ كل ما مضى ويكفي أن أحفل برواية جيدة التصدير، وعليه فأنا ثرثارةٌ بائعةُ كلام، كلما ثرثرت أكثر وجمح خيالي في ربط أحداث الواقع أكثر، أبدعت.

المهم أنَّ البداية يجب أن تبدأ من حدثٍ مِفصَليٍّ، كأول مشهد في فيلم ما مثلاً.

مشهد يملك الطاقة الكافية لأبني عليه رواية بحيث يساعد أيَّ قارئ الدخول في جو الموضوع بسلاسة.

(١٠)

عند هذا الحد بلغ من شهرزاد الحكايات فيَّ الإرهاق، وأعلن ديك الوقت عن فجر الصمت، فغفوت على الطاولة والأوراق أمامي متناثرة.

حين استيقظتُ مِن غفوتي لم أستوعب بدايةً ما يجري، فقد استيقظتُ على صراخ وألم في شَعري، كنتُ بين يدَيْ زوجي وهو يلوِّح بالدفتر أمامي، ويصرخ بكلماتٍ لم أفهمها، ضربني، وأقسم بكل ما هو مقدس لديه أن ينتقم مني، لأني لست أهلاً للنعمة ولا وجهًا للمكرُمة ولا أستحق أيَّ احتفال بمظاهر الحياة.

ثم خرج بعد أنْ مزَّق أوراقي واختفى.

بدل أن أبكي، جلست بكامل هدوئي ألملم أوراقي، بدأت أعاني من صداع، وألم في الأذنين، يبدو أني ضغطت على فكِّي كثيرًا لأحافظ على صمتي ورأيي، فقد انتبهت إلى أنني أزمُّ شفتيَّ بقوة، تمددت على الأريكة وحاولت الاسترخاء.

لم أكن أفكر إلا في أمريْن، وكان ذلك مستغرَبًا لمن يعرفني، حتى أنا استغربت من نفسي لهذا الهدوء والصمت والإصرار.

فكرت في أنني -وأخيرًا- على حق، رغم قسوة الحقيقة، فإنَّ كبرياء الأنثى ينتصر عليها أو على الحقيقة المُرَّة، طالما سخر مني زوجي وسخرتُ من نفسي، لكنني تمددت الآن مثل كليوباترا بكل كبرياء أنني على حق؛ كان حدسي وأحلامي حقيقة صادقة، والآن حقيقة ناصعة.

أستطيع الآن أن أثق بنفسي وبحدسي وبأحلامي أكثر من أيِّ وقت مضى.

ما زلت أفكر في الحدس الأنثوي الذي يقرع بوابات العقل الخلفية متسللاً برَدَّةِ فعل غير منطقية أو مفهومة، لتُرمى دومًا بتهمة الشكِّ المؤلم لأنه غير مبرر، هو فعلاً غير مبرر، والرجل لا يعترف بغير المبرر، كيف سيفهم أنَّ غير المبرر عنده ذو صوت صاخب عندها يتم تأكيده لاحقًا؟ إن غير المبرر عنده يعني ألّا دليل جنائيًا عليه، لكنه عندها مجموعة تفاصيل منطقية في غير محلّها تهمس بما سيأتي، إذن هي فقط اختلافات في قراءة الأحداث، ألهذا يخاف الرجل من المرأة ويتهمها بالغباء؟ أيحسدها على حدسها؟ أم يخاف منه أم يرفض التعامل بمنطقه؟ ويلومها لأنها تحاسبه على ما خبأه جيدًا؟ أظن أنَّ الرجل يطالبها بشكره على ما حاول إخفاءه عنها مراعاة لمشاعرها، ولكن... هيهات!

راجعت أحلامي كما يراجع طفلٌ منهاجَه الدراسي، لامتحان آخر السنة، الأقرب ثم الأبعد، لكنني حين وصلت إلى الحلم الكبير الذي رأيته ليلة زفافي انتفضت جالسة بانتصاب وانتباه شديد، كان الحلم الذي لم أفهمه، وحان وقته، لم أكن بحاجة إلى استرجاع تفاصيله فهي حاضرة، كل ما عليَّ فعله هو فكُّ رموز شفرته فقط.

كان الحلم بعدما تحقق أغلبه، بسيطًا تافهًا، فكيف لم أفهمه لوقته؟ زوجي دمية بلاستيكية، رجل مصنوع غير حقيقي، أقصد يخفي غير حقيقته، لم أعد بحاجة لأفهم سبب رفض أبي له، لعله رأى مثلي حلمًا ما؟ أو لعله سمع خبرًا لم يتيقن منه! لماذا لم يخبرني بمخاوفه؟ كنت سأفهم حلمي أفضل.

هل كنت سأفعل؟ أم كنت سأسخر من مخاوف أبي وأفسر الحلم بطريقتي؟ كان الحلم حلمي وأمامي ولم أفسره إلا كما يروق لي، فهل كنت سأفسر مخاوف أبي بحياد؟

وبلا شك فإنَّ زواجي منه عار كبير لو انكشفت حقيقته للناس، وفضيحةٌ، لا بُدَّ أن الشَّعر الأحمر القصير فضيحة، هل سينكشف زوجي؟

هل سأنفصل عنه؟ فقد افترقنا في الحلم.

أبي وأخي لم يكونا بخير، يا للسخرية! أنا أقلق كثيرًا، كل ما في الأمر أنهما قاطعاني وما تزال العلاقة باردة بيننا.

كل هذا حصل، لكنَّ شطر الحلم الثاني غريب، ما هي الدمى البلاستيكية الكثيرة؟ وما هي نوافذ النور؟ هل الكتابة على الجدران هي رواياتي؟ لكنْ لِمَ تشكلت حروفي صورة في الحلم؟ وما مصير زوجي وأهلي؟

ما زال في الحلم غموض، العجيب أنَّ الحقيقة أمامي كرُموز، وما زلت عاجزة عن كشف ما سيحصل في المستقبل، كأنَّ الحلم يسخر مني والحقائق مستترة واثقة أنني لن أعثر عليها مهما منحتني الحياة تلميحاتٍ إلا حين يتجلَّى كل شيء لوقته.

كأنني والحياة نلعب الغميضة، تختبئ وتمنحني صوتًا، أو إشارة ثم أفشل. كم هي الحياة واثقة من نفسها وهازئة بي وبفضولي ومخاوفي!

ما قيمة الحلم إذن؟ إن لم يقم بواجبه في الوضوح؟

قطع مجيءُ زوجي تواجدي في عالمي الذي غرقت فيه، لم أكن خائفة هذه المرة، طلب مني أن أجهِّز نفسي لأننا سنخرج في مشوار طويل بعض الشيء، فامتثلت والفضول يأكلني، ويثير دمي.

سألته إن كان عليَّ جلب شيء معي، فردَّ ساخرًا، إنَّ عليَّ أن أُحضِر عقلي فقط.

(١١)

لا أعرف إلى أين نحن ذاهبان، سألته، فطلب مني الاستعانة بمهدِّئ الصبر، انشغلتُ عمَّا يجري بمحادثة الطريق، أسأل المعالم عن مكاننا وإلى أين وجهتنا، عبرنا الشارع الرئيسي في المدينة، ثم تجاوزنا وسط البلد، ثم وصلنا إلى آخر المدينة حيث الطريق المؤدية إلى القرى، هل نحن ذاهبان إلى خارج المدينة؟ هل سنزور قرية ما؟

في الطريق الواصل بين مدينة الخليل وقرية الفوَّار، حيث تزدحم الأشجار الحرجية على الجانبين، أوقف زوجي السيارة، ترجَّل وطلب مني الصعود في الكرسي الخلفي، ظننت أحدًا سيرافقنا قريبًا، فعلتُ ما طلبه، لكنه فاجأني بتغطية عينيَّ بعصابة سوداء، ثم طلب أنْ أجلس ممدَّدة على الكرسي الخلفي بهدوء، انزعجت جدًا، لكنني مازلت أحفظ له بعض الثقة به، لن يقتلني زوجي! أليس كذلك؟ لن تفعل!

قهقه بصوت مرتفع قائلاً بسخرية:

- لطالما أحببتُ غباءك!

- أتحدث جادة، لن تقتلني.

- كلا، ولكن حيث سنذهب سرٌّ يجب ألا تعرفي الطريق إليه، لا تخافي لو قتلتك بهذه الطريقة فسوف أفضح نفسي، إن قتلتك في البيت أقل تكلفة ومشقة. حمقاء جميلة!

هدأتْ نفسي قليلاً، ورضخت إلى أوامره، لا أعرف إلى أين ذهبنا، لكنني شعرت بأن الطريق يطول جدًا.

كنت أكلمه ولا يردُّ عليَّ، كأنه لا يسمعني، فصمتت أخيرًا.

زوجي رجل عنيد لدرجة مخيفة أحيانًا، أتذكَّر كيف أصرَّ على الزواج بي، وفعل ما لا يفعله غيره، حصل وقتها أمرٌ مُشابِه حين تيقَّن أنَّ أهلي سيرفضونه، اتفقتُ وإياه أن نخرج في رحلة أخيرة قبلَ الوداع، ما دام أهلي يصرون على موقفهم.

اتفقنا وقتها أنْ نودِّع بعضنا حيث التقينا أول مرة في جامعة بيت لحم حيث درسنا، غطيتُ ذهابي عند أهلي بحاجتي لاستصدار بعض الأوراق من الجامعة، تناولنا الطعام في مطعم "بونجور" القريب من الجامعة، ثم تسكَّعنا في الشارع العتيق حتى وصلنا كنيسة المهد، تناولنا بعض العصير، واشترى زوجي الذي لم يكن غير حبيبٍ وقتها، بعض المشروبات.

أدركت أنَّ هذه المشروبات ليست إلا خمرًا، حينما فتحها زوجي أمام المسبح، حينما عُدْنا. كان قد اقترح عليَّ أنْ يُرِيَني البيت الذي كنا سنسكنه معًا لو تمَّ الزواج، كان بيتًا صغيرًا في قطعة أرض كبيرة، كان شيءٌ في داخلي يقول إنه يكذب، فالأرض أقرب إلى مصيف مع مسبح مغطًى وغرفة صغيرة ومطبخ.

لم يكن بيتًا كاملاً، كما شعرت وقتها أنَّ الأرض ليست له أو لأهله، فهو من عائلة رقيقة الحال، كما أنني لاحظت أنه لا يعرف أماكن الأشياء جيدًا.

أُدرِكُ الآن بوعيٍ تامٍّ، أنَّ البيت كان لصديقٍ له، طَلَبَه منه لمدة وجيزة، وأشعر الآن بدمائي تغلي حين أتصور أنَّ زوجي قد أخبر صديقه بما خطط له، وأنني مكشوفة أمام الصديق المجهول إلى هذا الحدّ.

خلع وقتها ملابسه ونزل يسبح في ذلك الصيف الحارّ، دعاني للنزول لكنني ابتسمت مندهشة، إذ كيف أسبح بملابسي التي قد تبتل، كيف سأجففها قبل العودة للبيت؟ كنت أريد أن ننهي كل ذلك سريعًا لأعود إلى البيت فقد أوشكت أنْ أتجاوز المعقول في عذر غيابي.

لكنه وقتها دعاني لأخلع ثيابي وأنزل، لم أقبل، فَرَجَاني بحرارة، قائلاً إنها آخر مرة نرى فيها بعضنا فكيف أرفض طلبه ذلك؟

لكنني بقيت مصرَّة على رفضي، فالمغامرة أكبر من تحمل تبعاتها.

خرج من المسبح وهو لا يزال شبه عارٍ وجلس بجانبي، فتح زجاجة الخمر وطلب مني أن أرتشف منها، لكني خفت كثيرًا، ولا أدري كيف قلت له:

- إنْ كنت تريد مني شيئًا فافعله وأنا في كامل وعيي، فإن كان حاصلاً ولا بُدَّ فلأَشْعُرْ به على الأقل.

- أريد قُبلة!

وكأنه يمهد منذ الصباح لهذا الطلب، وكأن زيارة بيت لحم والمسبح والخمر، كل ذلك ثمن لقُبلة واحدة، شعرتُها قُبلة غالية حين فكرت بهذه الطريقة فوافقت، خاصة أنها آخر مرة أراه فيها، وأنني متلهفة لتذوق طعم القُبلة وأنا عذراء الشفاه.

سمحت له بالاقتراب قليلاً، لكنَّ رائحة فمه ألجمتني، فقال:

- لا تشمين الرائحة لو شربت قليلاً مثلي، وقليلٌ لا يُحدِثُ أيَّ تأثير.

- هل أنت واثق؟ لا أريد أن أفقد وعيي.

- لا تخافي، لو فقدت وعيك فالماء قريب، لو شعرت بدوار اغمري رأسك فقط في المسبح، قليل منه يوقظك تمامًا.

رشفتُ جرعة وكانت صادمة لي بمذاقها الغريب، لم أشعر بأيِّ شيء، فشرب هو الآخر جرعة كبيرة، واقترب بشفاهه مني، لكنه بدل أنْ يُقبِّلني

ألقى ما في فمه في جوفي من خمر، فشربته على عجل من هول المفاجأة، وضحكنا معًا كثيرًا، اقترب بكل جسده مني، وأزال غطاء الرأس عن شعري، قائلاً إنَّ القُبلة لا تحلو ولا تطيب لو لم يعصر شعري بيديه، لأنه سيعلِّمُني كيف تكون القُبلة حقًا، في حال تزوجت أحمق لا يجيد التقبيل.

ثم تحت سطوة عينيه، وكسر حاجز الخوف من الخمر، شربت المزيد، شربنا المزيد، حتى اشتعل الرأس خمرًا والجسد نشوة.

لا أدري ما الذي أسكرني، طعم القُبلة أم الخمر، لكنَّ كل شيء كان لذيذًا بعدها، مداعباته لجسدي، ودفء أنفاسه، وخفوت صوته، وشعوري بلهفته، إلى شفتيه وهما تمرَّان على عنقي ثم صدري، ويداه اللتان تعبثان بمحيط خصري، ثم تلامس جسدينا، واحتكاك مكامن الرغبة فينا، كاحتكاك الوتر بالكمان، كان كل شيء قريبًا، كان عناقًا كاملاً، ثم حصل التوحد في ظل غياب كل شيء إلا نداء الجسد، واشتعال النار التي لا يطفئها إلا ذلك الماء، إلى أن حصل له مراده كاملاً.

هل كان فعل اغتصاب؟ أسأل نفسي الآن وأنا أتذكَّر ما جرى بوعي تامٍّ لأول مرة، لقد اعتذر يومها وبكى حتى اصفرَّ وجهه وكاد يختنق، أقسَمَ لي أنه لا يعرف كيف حصل كل هذا، أنه يحبني وأنه لم يتمالك نفسه أمامي لشدة حبه، وسيفعل المستحيل ليسترني بزواجه مني، حتى لو رفض أهلي ذلك.

صدَّقته، ولكنني الآن أعرف أنه كاذب، فزوجي رجل يجيد التحكم في أعصابه متى شاء، ويجيد فَرْطَ عقدها متى شاء، حتى اصفرار وجهه واختناقه،

أعلم الآن جيدًا أنهما كذب؛ فزوجي رجل غريب في هذه، يجيد استدعاء المرض متى شاء، أيَّ مرض يريده يستدعيه كأنه يداعب هِرَّتَه الأليفة.

أذكر مرة أنَّ صديقًا أراد منه بعض المساعدة، فأخبره على الهاتف أنه مصاب برشح ثقيل ولا يمكنه مدَّ يد العون، لكن يبدو أنَّ الصديق أكثر سذاجة من فهم هذا الهروب المبرر، إذ جاء يزور زوجي في اليوم التالي، بعدما اتصل هاتفيًّا يطمئن عليه، ما بين الاتصال وحضور الرجل، وجدت زوجي يتحول فجأة إلى رجل مريض جدًا، درجة حرارته ارتفعت وأصيب برشح وعُطاس متتابع، واختناق في الصوت، حتى ظننته يحتاج مشفًى، بينما كان صباحًا لا يعاني شيئا! لزمتُ الصمت أمام هذا العرض السحري العجيب.

وفي مرة أصيب زوجي بمغص شديد، واصفرار في الوجه، وارتفاع حادٍّ في الضغط، حتى قلت: هلكَت الكلى عنده! أذكر أن هذا كان عقب رفضه أن نخرج معًا في العيد، فقد فضَّل استقبال أصدقائه مساء في البيت، ولم يكن يعاني من شيء يُذكَر.

توقفت السيارة، اعتدلت في جلستي، وفتح زوجي الباب وفكَّ العصابة عن عيني، ترجَّلتُ من السيارة فوجدْتُني أمام بيت عتيق لكنه مأهول، لم يسمح لي بالتلفُّت، لكنني لمحت جانب الشارع وبعض المساكن، كأنني عرفت المكان، هل هذا شارع الشهداء؟ هل أنا قريبة من "الدبّويا" حيث احتلّوا العمارة وحولوها إلى نقطة عسكرية ضخمة؟

دلفنا فوجدنا بانتظارنا، فتاة جميلة أنيقة، ملامحها غربيّة، كانت تتحدث العبرية بلكنة روسية، لكنها لا تجيد العربية. لم أفهم من كلامها إلا القليل الشائع، أدخلتنا إلى غرفة وأغلقت الباب خلفنا.

دعاني زوجي للجلوس، ورفض أن تتلاقى أعيننا فضلاً عن تواصلنا اللفظي، كانت الغرفة مكونة بالأساس من تلفاز وجهاز كمبيوتر مواجهٍ للحائط على مكتب خشبي بسيط، يبدو أن صاحبه قد تركه قريبًا لأنه صوت مراوحه تهسُّ في الغرفة تُخبِر أنه قيد التشغيل.

الكنب مصنوع من الجلد البني، تتوسطهم طاولة زجاجية عتيقة، يظهر ذلك من دهان أرجلها المتصدع.

للغرفة نافذة شمالية وحيدة لا يدخلها الضوء ولا تحجب نور النهار.

ماذا يمكن أن يحصل في غرفة كهذه؟ هذا ما دار في رأسي وأنا أتأمل الغرفة، فالأمر في النهاية يعنيني وأنا بطلة الموقف.

عمَّا قريب، سيزول فضولي، لن نبقى هكذا مُعلَّقين في فراغ الزمان لا نفعل شيئًا، لم يأت زوجي بي إلى هنا ليلعب بأعصابي، وإن كان يفعل الآن فهذا فقط لتهيئتي، سمعته مرة يتحدث عن أمور كهذه، وما دامت أوراقه مكشوفة فأنا بخير.

لم تدم حيرتي طويلاً للحقيقة، بعد قليل جلس أمام شاشة الكمبيوتر وناداني لأسحب كرسيًّا بلاستيكيًّا كان وحيدًا بجانب الباب، لم أنتبه له مسبقًا.

جلست بجانبه نشاهد شاشة الحاسوب، كان يبدو أننا نتابع شاشة كاميرا مراقبة أكثر منها شاشة حاسوب، فالصورة غير عالية الجودة تمامًا، وإن بدت ملامح الفتاة الجالسة على سرير وحيد في غرفة ضيقة.

كانت الفتاة تلبس زيًّا شرعيًّا كاملاً، مما أثار فضولي، وتقبع وأصابعها متشابكة في حضنها بقلق، فَقَدْ بانَ أنها تضغط عليهما بقوة من يصلي صلاته الأخيرة.

سألت زوجي عن الأمر:

- عبد ما هذا؟ من هذه الفتاة؟

لكنه أشار بسبابته إلى فمه أن أصمت وأتابع فقط.

جاءها بعد قليل -يبدو أن لعبة شد الأعصاب تُمارَس هنا بجدارة وبكثرة كنهج- ضابط يلبس زيه العسكري، وجرَّدها من ملابسها، ثم من عذريتها (لست واثقة من هذه) لكنه على الأقل لم يُبْقِ لها منها شيئًا.

أنا شاهدت بصمت ووجوم ورعب كل ما يجري، لا أنا بالتي تستطيع رفع عينيها عن المسكينة التي بدا أن روحها تُسلَب منها، لم تكن تشعر بلذة حقيقية -على الأقل بداية- كانت تتألم كمن تُغتصب وتصمت خوفًا من صوت الفضيحة، ولا أنا بالتي تستطيع الهرب، فقد أمسك زوجي ذراعي بقوة حينما رغبت بالقيام عن الكرسي، ولما أشحت بوجهي جانبًا أمسك ذقني بعنف حتى كاد يكسر فكي، فشاهدت مرغمة ودموعي تتساقط بصمت.

لماذا عليَّ أن أشاهد هذا؟ ما علاقتي بكل ما يجري؟ هل يخبرني زوجي إلى أيِّ حدٍّ في القذارة توغَّلَ؟ أنه وسط إعصار لا يمكنه الخروج منه؟

جلسنا على الكنبة وأنا انتفض أفكّر في الفتاة لا أعرف ما جرى لها، فقد توقف البث عند اللحظة التي نهض بها عنها الضابط.

هل ستحْمِل منه؟ هل تعلم أنَّ ما جرى تمَّ تصويره؟ ما الذي جعلها تَقْدُم إلى هنا بلا مقاومة؟ لمْ تقاومْ ما فعله بها سوى قليلاً بيديها، لكنها استسلمت سريعًا وتركته يعربد ويلوك جسدها كما يشاء.

دخل رجل أربعيني بعدها الغرفة، كان يلبس زيًّا مدنيًّا، جلس على الكنبة القريبة من زوجي، ثم لحقته الفتاة التي قابلناها بداية بثلاثة فناجين قهوة، لكنني خفت أن ألمس قهوتي، انتبه زوجي فبدَّل الفناجين بيني وبينه بعد أن رشف من فنجانه، وقال موجِّهًا كلامه للرجل:

- هي تخاف أن نضع لها شيئًا في الفنجان، حتى أنا زوجِها، لا تثق بي.

فقلت له بجفاء:

- بعد الذي شاهدته! عن أية ثقة تتحدث؟

- يا غبية! أنت زوجتي أولاً، وثانيًا لو أردت لفعلت منذ سنة!

قالها بتحدٍ ووضوح أسكتني وأربك ثباتي، لكنني سألت بحَيْرة، ولهفةٍ لسؤالٍ حان وقت نضجه وقطف ثمار جوابه:

- لماذا أنا هنا إذن؟

- أحسنت يا حنين! هذا سؤال جيد، يختصر المسافات.

التَفَتَ زوجي إلى الرجل، فتأهب الأربعيني للحديث، متقدمًا بجذعه للأمام، شابكًا أصابعه بين ساقيه مائلاً برأسه نحونا، ناقلاً عيونه بيني وبين زوجي جيئة وذهابًا، ثم قال بصوت هادئ، بعد أن ركَّز بصره عليَّ وابتسم بودٍّ ظاهر:

- صديقتي حنين...

- لستُ صديقتك!

قال زوجي بغضب:

- حنين، احترمي مُضيفك واسمعي دون مقاطعة لو سمحت، وحاولي لمرة واحدة أن تحكمي بعد الاستماع وليس قبله.

بقيتُ صامتة، وفي داخلي نيران الغضب والشعور بالإهانة من انتصار زوجي لرجل غريب دوني، أكمل الرجل حديثه:

- أنا رامي، اسمي ليس غريبًا عنك، وهذا يؤكِّد فعلاً أنَّ أصولنا نحن وأنتم مشتركة. العرب واليهود لغتهم الأم واحدة، كلاهما شرقي، وكلاهما سكن هذه البلاد زمانًا من التاريخ، وكلاهما يريد السلام ويحبُّه، وله في هذه البلاد مقدسات لا يمكنه التخلي عنها بسهولة. أبونا واحد. ما أرغب بقوله، أننا يمكن أن نكون أصدقاء وجيران جيدين، زوجك ليس عميلاً أو جاسوسًا أو خائنًا، كما تظنين.

(هنا بدأت أستمع بكل حواسي، ماذا يكون زوجي إذن؟ سفير النوايا الحسنة؟!) أكمل قائلاً:

- زوجك بطل سيذكره التاريخ بأشرف صورة، وستكونين أنت زوجة رجل حقق لتاريخ هذه الأرض ما لم يحققه ياسر عرفات نفسه.

- ما الذي سيحققه زوجي؟

- سيحقق وصولنا للسلام الدائم والشامل.

- وتلك الفتاة؟

- ما بها؟

- لماذا فعلتم بها ما فعلتموه؟

- كانت تحتاج إلى ضبط موازين، نحن نحتاجها وهي مفيدة لنا، لكن هناك من لعب برأسها الصغير وأقنعها أننا أعداء، لذا لا بُدَّ أن نرغمها على التعاون وسوف يأتي يوم تدرك فيه أنها بطلة مختارة وليست ضحية.

- متى؟ (قلتُها بسخرية) عندما تفقد احترامها لذاتها؟ أم عندما تفقد قدرتها على تكوين أسرة؟ أم عندما يعرف أهلها ويقتلونها؟

- صديقتي، عندما يتحقق السلام الدائم والعادل والشامل كما قلت لك، ولا تخافي فنحن نجيد حماية أبطالنا وتأمين حياة هانئة لهم. انظري إلى زوجك مثلاً، موظف مرموق في مؤسسة مرموقة، وراتب كبير، وزوجة جميلة محترمة.

– هل قمتم بابتزازه بداية ليصير في صفكم؟

– كلا، بعض المختارين يفعلون ذلك بقناعة تامة، لأنهم على وعي أكبر من الباقين. زوجك مؤمن بنا منذ كان في الرابعة عشر من عمره، ومع ذلك أؤكد لك لم يعرف أنثى غيرك ولم يضاجع واحدة سواك، لا قبل زواجك ولا خلاله، للحقيقة زوجك مخلص لك بطريقة عجيبة.

قلت لنفسي: "حتى الشياطين يخلصون أحيانًا، هذه ليست حجة." ثم نظرت إلى زوجي، فوجدت عيناه تلمعان بشدة، تخبراني أنه يحبني جدًا فعلاً، لم أستطع مبادلته النظرة، فقد كنت في حيرة شديدة من أمري وارتباك لا أحسد عليه، كدت أبكي لكني تماسكت، لم أكن أشعر بالأمان أو الارتياح. قلت بعد صمت:

– ما المطلوب مني؟

– لا شيء، سوى أن تتركي زوجك يقوم بواجبه على أكمل وجه، كتابة تلك الرواية خطأ كبير، وأيُّ حديث حول الأمر خطأ أكبر. عزيزتي، ليس زوجك الوحيد في الأمر، مثله كثر من أصدقائنا الفلسطينيين، يؤمنون أننا يجب أن نتحدّ لنعيش بهدوء معًا، وليس هذا فقط، بعض الرؤساء والفنانون المشهورون الذين تحبينهم، وأصحاب رؤوس الأموال حول العالم يؤمنون بقضيتنا ويعملون بجِدٍّ لنوقف هذا الصراع الدامي بيننا وبينكم. ليس مطلوبًا منك أيُّ شيء، سوى الصمت، ولو فكرتِ قليلاً وأحببتِ التعاون معنا لنحافظ على وجودنا فهذا أمر يشرفنا ويسعدنا. لقد شاهدتِ الفيديو وكيف

عانينا حول العالم من جرَّاء الظلم، نحن لا نحب الظلم، لا أنْ نظلمكم ولا أن تنبذونا وترفضونا. دولتنا تقوم على الحرية والإخاء والمساواة، ولكن روايتك تخريب واضح لمبادئنا، قد تضرُّ بزوجك وبسمعتك، وقد تمتد إلى أهلك!

عند هذا الحدِّ، لم أحتمل سماع المزيد، تشبعتُ إلى الحد الذي تمنيت فيه الرجوع إلى رحم أمي، كان تهديده المبطن واضح لي، شعر بي على ما يبدو، فأشار إلى زوجي واستأذن وخرج.

أخذني زوجي مباشرة بعدها إلى البيت بالطريقة نفسها التي جلبني فيها.

وصلت البيت، وخرج زوجي، يبدو أنه يريدني أن أفكر بهدوء وحدي في كل ما جرى.

(١٢)

نمتُ سريعًا، فلا جسدي يحتمل عقلي، ولا عقلي يستقر داخل جسدي جيدًا، ونمت طويلاً، لأنَّ النوم أكبر هدية هروب مجّانية تقدمها لنا الحياة، فلا أحد يلوم النائم على نومه، ولا حتى الملائكة، أو الشياطين، غير أنني دعوت ألَّا يتسلل أحد عبر أحلامي، اشتهيت موتًا كاملاً.

يبدو أنني نمت فعلاً كما تمنيت، فحين استيقظت الساعة الثامنة صباحًا، لم أجد لزوجي أثرًا، لملمتُ نفسي من الفِراش كسيدة بيتٍ حقيقية، واتَّجهت إلى المطبخ جهزت القهوة بصعوبة كأنني أنشِلُ ماء من بئر سحيقة، جعلتها ثقيلة لعلني أتمكن من استعادة توازني قليلاً، فقد تعبت من هذه الدوامات التي لا تنتهي.

تجولت في البيت، أحتاج أن أشعر أنني أنثى عادية لها بيتٌ وتطبخ وتعتني بنباتاتها وتنتظر زوجها، أحتاج إلى الشعور بأنني يقظة وعلى قيد الحياة، أنني لا أحلم ولا أتوهم ولا أعيش أسوأ كابوس يمر به إنسان.. أيُّ إنسان! فما

هو أصعب من أن يَشْنَأك أهلك لأجل حبيبك لتكتشف لاحقًا أنك خسرت شيئًا لأجل لا شيء؟ أو خسرت شيئًا ثم تعاظمت الخسائر حتى بتَّ على وشك أن تخسر نفسك.

بل إن استنزاف الخسائر لا يتوقف، لأول مرة أشعر بسعادة أني خسرت جنينًا مرتين، هذه خسارة مرحَّبٌ بها، هذه خسارة بطعم الكسب، فأن تخسر الشيء قبل حصولك عليه، أفضل بكثير من خسارته بعدما يخرج من عالم العدم إلى عالم الواقع، بعض الخسائر جميلة لأنها لا تستنزف معها بعضًا من ذاكرة الحب والحنين فينا.

نظفت البيت كما ينبغي، ولمَّعت أوراق الشجر، وسقيتُها بعد عطش، ولكنَّ الوقت يمرُّ ببطء، كأنه لي بالمرصاد، كأن الزمن يعاندني يتوقف حين أنشغل عن نفسي، ليعود إلى الحركة لاحقًا، لطالما حيرني موضوع الوقت والشعور به.

فتحت جهاز التلفاز، واتصلت بجارتي لتشرب القهوة معي، لا شيء يجبرني على المواجهة في هذا الوقت بالذات، أنا والوقت على عناد أيُّنا أشدُّ.

جاءت جارتي، وأحضرت معها ابنتها من زوجها السابق، جاءت لزيارتها. كانت صبية في السادسة عشر من عمرها، وجدتها خجولة مترددة منطوية على نفسها، يبدو أن أباها وزوجته لا يعاملانها بشكل سويٍّ، كما يناسب فتاة في عمرها، غير أنَّ ملابسها كانت تدل على اهتمام شديد، بل وكانت باهظة الثمن، بل وكانت أقرب إلى ملابس فتاة في العشرين.

حينما قامت الفتاة لصنع القهوة باقتراح مني حتى تشعر بألفة، مالت عليَّ أمها وهمست كشكوى العجائز العاجزات:

- انظري كيف تُلبِسُها زوجة أبيها.

- نعم، لاحظت أنَّ ملابسها غير لائقة بعمرها. (ثم أكملتُ مازحة) تبدو كلوحة وضع لها إطار قبل أن تكتمل.

لم تفهم جارتي تشبيهي، فقد نظرت إليَّ باستغراب، لكنها أكملت معتمدة على أنني سأفهم كلامها، كان الأهم أن أفهم أنا، لا هي:

- زوجة أبيها تريد تزويجها من قريب لها في أمريكا، لهذا تُلبِسها ملابس النساء، تخطط للحصول على الجنسية.

- كيف تستفيد من زواج الصغيرة بالحصول على الجنسية؟

- حينما تحصل ابنتي عليها، يمكنها أن تقدِّم لأبيها على جنسية، وهو يقدِّم لزوجته ولأولاده، ويسافرون جميعًا للعيش هناك، (ثم تهدَّج صوتها وهي تقول) يريدون حرماني من ابنتي للأبد!

- حرام! وما رأي الفتاة؟

- لهذا جئت بسرعة حين اتصلتِ بي، كلِّميها، هي لا تريد لكنها هناك فم بلا لسان، تسمع وتطيع.

جاءت الصبية بالقهوة، تبدو ماهرة في أعمال البيت، ظهر هذا في طريقة تقديمها الفناجين لنا، اقترحت عليهما أن نخرج معًا إلى متنزه قريب، وهدفي أن نتحدث خارج الجدران.

هناك أُتيح لي الحديث مع الفتاة دون أن تشعر أنني أتدخل في شؤونها أو أن أمها هي مِلْح الحديث الذي أثار شهية الموضوع.

سألتُها:

- كيف هي المدرسة؟ وكيف تنظِّمين أمورك بين بيت أبيك وأمك؟

لم يستغرق الأمر جهد المراوغة في الحديث لتقول بكل بساطة وهدوء:

- سابقًا كان مرهقًا لي، نقل ملابسي وأغراض المدرسة حين أتنقَّل، الآن سأتزوج قريبًا وأسافر وأستقر.

- إلى أين تسافرين؟ هل ستتزوجين خارج الوطن؟

- نعم، سنذهب إلى أمريكا، زوج أمي تريد ذلك.

- وأنت؟ ماذا تريدين؟

صمتت طويلاً، كأنَّ أحدهم يسألها لأول مرة في حياتها عمَّا تريده هي، بل كأنَّ أحدهم يلفِتُ انتباهها إلى أنها يمكنها أن تريد. ترددتْ كثيرًا ثم قالت:

- لا أعرف.

- ألا تحبين وطنك؟

كلمة وطن كذلك كانت غريبة عليها، كأنها أمام أصعب درس في الجغرافيا، قالت:

- ما علاقة الوطن بزواجي وسفري؟ هل يعني سفري أني لا أحب وطني؟

- لا ليس بالضبط، كثيرون يسافرون وهم يحبون أوطانهم، لكنهم يعودون.

- لماذا يعودون؟ إن تزوجوا أو سكنوا في أمريكا مثلاً؟

- تخيَّلي نفسك شجرة عنب في حقل تفاح، كيف سيكون شعورك؟ أليس من الأفضل أن تكوني في كرم عنب مثلك؟

فكرت كثيرًا ثم قالت بتردُّد:

- لا، سأكون شجرة عنب مميزة بين التفاح.

قلت لها بضيقِ صدرٍ بعدما نفدتْ حُجَجي:

- ستشعرين بأن أحدًا لا يفهمك.

- أخبرتني زوج أبي أنني سأتقن الإنجليزية دون مدرسة، كذلك يحبون الجمال العربي، سأكون أجمل من كثيرات هناك.

- وصديقاتك؟ ألن تشتاقي إليهن؟

- ليس لي صديقات، وأمي لا أراها إلا كل شهر مرة.

انسحبت إلى الخلف قليلاً في جلستي، لم تَعُدْ لي تلك الحَمِيَّة للحديث، تأملتها طويلاً بمرارة، هذه الفتاة تشعر بغربة داخلية فلا يهمُّها أين تكون، شعرت للحظة بحزن يخصُّني، أنا أُشبه هذه الفتاة جدًا، كلانا غريبتان يا صديقتي.

لكنني لم أيأس، كنت أنقذ نفسي فيها، وأبحث عن ذاتي لأحققها من خلالها، فقلت لها وقد أمسكت كتفيها، كما تتعلق مرآة بآخر شعاع شمس قبل المغيب ليطول أكثر:

- تذكري حيث ذهبت أنك ستبقين فلسطينية، وأن وطنك هو فلسطين، الوطن هو الطين الذي تبعثرت عليه طفولتك، لذا لن تجديها إلا فيه، الدم الذي يتمشى في عروقك فلسطيني، لا يهم أين تذهبين وكيف تعيشين، المهم أن تظلي على وعي أن على الخريطة أرض اسمها فلسطين تستقبلك في أي وقت مهما ابتعدت، أمٌّ بارَّة بأبنائها حتى العاقّين منهم، تنازُلُك عن كل ذلك، يعني أن تبيعي وطنًا مجانيًّا وتشتري وطنًا بالمال، وهل تُشترى الأوطان بالمال؟ تنازلك يعني أن تضيِّعي على نفسك فرصة أن يكون لقبرك زوَّار.

كان الوقت قد تأخر، فعدنا جميعا، زوجي كان ينتظرني، سألني بغضب:

- أين كنت؟ وكيف تخرجين بلا إذن مني؟

قلت له ببرود ولا مبالاة، ولعل صوتي حمل رذاذ التمرد قليلاً:

- كنت مع جارتي وابنتها في المتنزه، لم تكن موجودًا لأسألك، ولا أظنك تمانع، لقد ظننت أنَّ آخرَ مسؤولٌ عني وعنك الآن.

كنت شريرة لألِّح على الرجل الإسرائيلي الأربعيني، وخبيثة لألمح عن موافقة مبدئية لقبوله في حياتي، وكان ذلك فعالاً جدًا، فهدأ زوجي، حتى عن رأيي في الموضوع برمَّته، فالمماطلة خدعة قديمة لكنها ما زالت تنطلي على البشر، يبدو أنها متأصلة ومرتبطة بطبيعتهم، لدرجة أنهم كل مرة يصدِّقونها دون أن تلبس أقنعة، فهي بذاتها قناع لكل شيء؛ هي هدنة يرحب بها القوي لتحقيق نصر أكبر واثقًا بحاجة الضعيف لها، ويرحب بها الضعيف لكسب مزيد وقت، واثقًا باستغناء المنتصر عنها، فلا القوي سيقلُّ انتصاره ولا الضعيف ستكبر ساعتها مخاسره، لذا يتواطآن عليها.

(١٣)

بعد الهدنة، كنت أكتب رواياتي سرًّا، لم يكن التفكير فيها صعبًا، فليس من يخترق الأفكار، لكن الصعوبة في تسجيل تلك الأفكار على ورق سيفضحني، وأنا المهدَّدَة بها.

بحثت عن طريقة تمكنني من تسجيل مشاعري وفهم نفسي أكثر، وفي الوقت نفسه عدم تضييع أو تمييع الرواية على شكل خواطر.

بداية حاولت ترتيب أفكاري التي أريد الحديث عنها ومناقشتها مع نفسي وتهمُّني بشكل شخصيٍّ، إضافة إلى الموضوع الرئيس وهو الوطن والمواطنة والإخلاص والخيانة.

بالكتابة أفهمني أكثر، أتجلَّى لنفسي بوضوح، وأختصر الطريق حول الفوضى الفكرية والنفسية التي أعيشها، الكتابة تجعلني أعرف ما أريده، لعلني على صفحات الورق أتحرر من الآخرين، ومن مُشوِّشات الحسابات

الأرضية والمادية التي تحول دون معرفة نفسي، كخوفي من تهديد الرجل مثلاً، وخوفي من الفضيحة مثلاً، وشعوري بأنني ضعيفة أحتاج لحماية زوجٍ في بيتٍ يستقبلني.

لكنني اكتشفت لاحقًا، أن هناك طريقة أخرى لأفهم من خلالها نفسي، وأربط ذلك بواقعي لأبحث عن أفضل الحلول وطرق التصرف.

كان ذلك حدسي وأحلامي.

ولكن لحفظ كل تلك الأفكار، لجأت إلى طريقتين: تحويل الفكرة إلى صورة، فكنت حيث وجدت لوحة أو صورة على الإنترنت تعبِّر عن فكرتي أقوم بتحميلها في ملف، ووضع رقم عليها، وأحيانًا أضيف تعليقًا صغيرًا، وأجمع كل ما يترابط في فكرة واحدة في مجلد وحدها. كذلك كنت أحيانًا، أخزِّن بعض الأغاني التي تحمل بعضًا من أفكاري في مجلد منفصل، فبدل أن أقول فكرتي أترك للأغنية تقول ذلك وكأنها أغانيَّ المفضلة، أحيانًا أجد فكرتي في مقطع من أغنية، فأشفِّر ذلك بطريقة غير مباشرة، فأضع نجمة وأعطي الأغنية علامة من ٥ نقاط حسب طول الأغنية، فلو كان المقطع في الدقيقة ٢:٣٤ يعبِّر عن فكرة لا أريد نسيانها فإني أعطي الأغنية ٢:٣٤ درجات، من خمس درجات مثلاً، وكان الأمر نفسه مع بعض آيات القرآن الكريم.

أحيانًا، أختلق حلمًا يتضمن أفكاري برموز أعرفها، وأسجله، حينما يسألني زوجي عنه أخبره أني رأيته وسأسأل سيدة جارة عجوز عن معناه، فلا يمكن بحال محاسبة الأحلام أو منعها.

هكذا كنت أفسر لزوجي الأمور، فهو لا يترك لي نفسًا أتنفسه، لا دمعة ولا كلمة ولا غيابًا، ولا حضورًا، إلا ويراقبني فيه ويسألني عنه، كان يتجسس بصمت مصطنع، كان حدسي يخبرني أن صمته مصطنع.

وهكذا ضمنت بشكل غير مباشر عدم نسيان الأفكار التي أريد مناقشتها مع نفسي حول روايتي وحياتي، لأفهمني أكثر وأتخذ قرارًا أفضل، فأمرٌ جميل أن تدرك حقيقة الأشياء حولك، لكن سيء جدًا ألا تدرك حقيقة ذاتك، ولا مواقفك.

بدأت بعالم الأحلام، فأشد ما أحتاجه الآن معرفة البعيد، ذلك أن الوقت منذ مدة يسير بتسارع رهيب لا أفهمه، كأنه يعاقبني على ما فاتني.

عليَّ فهم علاقة الحلم بالحقيقة والمستقبل، وبي، من أين ينبع؟ وكيف تدرك الروح ما سيجري لتصوغه لي ألغازًا ورموزًا؟

ما علاقة الروح بالمستقبل الذي يتشكل حلمًا تعرفه قبل العقل الواعي؟ وما علاقة الروح بالحدس والأحلام؟ لا، عليَّ أن أبدأ من سؤال آخر: هل المستقبل المتمثل في الأحلام والحدس متعلق بالروح أم بشيء آخر؟

إذن هناك المستقبل، أيْ الزمن القادم، أيْ الوقت، وهناك شيء آخر يمشي للأمام بسرعة أكبر من وعينا وأجسادنا، فهل هي الروح؟ وما علاقتها؟ لو قلنا لها علاقة لأن الروح تتحرر من الجسد أثناء النوم، فالحدس لا يحدث إلا في اليقظة.

حلقة مفقودة تُجنِّنِّي بحثًا عنها تربط بين المستقبل والروح.

وهكذا صرت مهووسة بالوقت، واكتشفت ذلك حين اكتشفت فجأة كَمَّ الساعات التي ازدحم بها البيت، بعد ملاحظة ساخرة من زوجي قال فيها: "يمكنك الآن فتح بسطة "فرشة" ساعات، كما يمكنكِ فتح سنترال تحديد وقت حول العالم وتقديم خدمات للعالم حول ذلك، لكن لا تفعلي ذلك مجانًا، أرجوك!"

(١٤)

ما جرى بعد ذلك، كان أسرع من حصول المعجزات، وأسوأ أثرًا من موت الأمهات، كانت أحلامي تؤكد لي أن ما وقع سيقع، لكنها لم تخبرني متى، فكنت بتعليق الساعات حولي كأنني أحثُّ " متى" هذه لتتحول من سؤال إلى جواب، وقد كان.

الساعة السادسة فجرًا، الهاتف يرن، والجوال يرن، والباب يطرق، وزوجي ليس في البيت، لم أعرف من أين أبدأ، فقررت البدء بمن أعرفه؛ رقم أختي على الجوال.

رددت عليها بلهفة، قبل أيِّ تحية:

- ما الأمر؟

- ألم تعرفي بعد؟

- كلا، ماذا هناك؟ لم أعرف ولكني أعرف أن أمرًا خطيرًا حصل، فلا الهاتف يصمت ولا الباب يتذكَّر أنه مجرد خشب، لقد تحوَّل الهاتف إلى جرس

حرائق، وتحول الباب إلى.. عزيزتي، وأنت تتصلين، الساعة السادسة صباحًا، بلا مقدمات فقط قولي الخبر بكل بساطة.

صمتت صمت السماء عن الأنبياء، حتى صرخت فيها قائلة:

- ماذا هناك؟ أنا أتوقع الأسوأ، لا تخافي عليَّ، قولي.

لكن أسوأها كان أقبح من كل أسوأ توقعته أو حسبته، كان خيالي الجامح، لا يستطيع التورط بسيناريو كهذا حتى الآن. قالت بحزم وبسرعة كمن يتجرع دواء مُرًّا على نفس واحد:

- زوجك وجدوه معلَّقًا مشنوقًا على باب مؤسسة عمله، وأبي...

- أبي...؟! هل صدم الموقف أبي؟ هل أبي بخير؟

- أبوك، انفجرت في يده قنبلة، وهو في حالة حرجة في المشفى.

- قنبلة؟ أبي ليس بخير! كيف وصلت القنبلة؟

- القنبلة ليست إلا ساعتك الهدية يوم زفاف أخي.

وأغلقت الجوال كما يغلقون على العُصاة بوابات الجحيم.

أصابني ما يشبه الموت، فلا عقلي يفكر، ولا قلبي يشعر، ولا عيناي تبصران غير السواد، فقط سمعي تنبه حينما ازداد إلحاح الباب، حتى ظننته سينخلع، وبات يرافقه صوت عرفته جيدًا ينادي عليَّ، هذا أخي!

قمت راكضة إليه بما تبقى لي من روح أو شعور، كانت ملامحه متقلِّصة كمن يقاوم موتًا وشيكًا، قال بصوت إلكتروني:

- لملمي أغراضك، ولا تتركي أيَّ شيء تحسبينه مُهمًّا، وأنجزي كل ذلك بسرعة، فالوقت ليس في صالحنا، وفيما بعد اسألي وافهمي، نفذي بسرعة وسأساعدك.

ثم أضاف ببطء وحزم تحسبًا:

- ولا تهتمي لزوجك، ولا لشيء آخر.

لملمت كل ثيابي وأشيائي الخاصة، وأوراقي وصوري، بلا أدنى تفكير، ويبدو أني شعرت للحظة أن الملفات التي أعرف مكامنها مهمة فأخذتها، خاصة أني أعرف أن زوجي لن يعود، أخذت كذلك النقود وجواز سفر زوجي وكل أوراقه، وجهاز اللاب توب، والسيديهات جميعًا، ما أعرف أسراره وما لم أعرفه، بلا إدراك لأهمية أو خطورة أي شيء أحمله معي، كنت أتحرك وأفكر بعقلي الباطن، أو بحدسي، كنت كمن يهرب من حرب وعليه الحفاظ على أكثر ما يمكن إنقاذه قبل وصوله إلى يد العدو.

خرجنا على عجل، كانت سيارة تنتظرنا، وانطلقنا بعدها إلى البيت، حين وصلنا البيت وجدت جميع الموجودين يبكون، الموجودون لم يكونوا سوى الأطفال وأختي الصبية، وبعض الجيران الفضوليين أو الطيبين المساندين.

أما البقية فعرفت أنهم في المشفى حيث أبي، ألححت في ذهابي إلى المشفى لكنَّ أخي رفض، وأوصى أختي بإبقاء عينها عليَّ وعلى مدخل البيت طوال الوقت.

مرت أيام وأنا في صمت أراجع ما حصل، تكشَّفتِ الأمور سريعًا، ما بين إجابات حصلتُ عليها وأحداث ربطتها ببعضها؛ فالساعة التي في يد أبي قنبلة مع جهاز تعقب، لأكتشف أن أبي مناضل كبير في الأصل، لكنه كان يجيد التخفي.

أدرك أخي بحسِّه الأمني كل ذلك، قبل الحادثة بيومين، بعد الهدنة التي عقدتها مع زوجي العميل، التقيت أخي في مكان اتفقنا عليه سرًّا، اضطررت يومها للبس النقاب، واستعرت ثيابًا من جارتي بمقاس أكبر، تحدثنا طويلاً للمرة الأولى منذ زواجي، أخبرته بما جرى معي في مكتب الضابط الإسرائيلي، وعَرْضِ زوجي عليَّ واعترافه لي.

أنا لا أعرف الحقائق التي يعرفها أخي، أنا صياد رمى صنارة لا يعرف بماذا سيجود البحر عليه، لكنَّ أخي كان غواصًا يعرف أسرار البحر ومكامن الخير والخطر.

أدرك أو ربط بين شكوكه عن زوجي، وهذه لم أكن أعرفها عنه؛ أنه يشك في زوجي، ظننتُ أبي فقط يشكُّ فيه، لكنَّ الحقيقة هي أنَّ أبي يعرف وأخي يشك، وأنا آخر من يعلم!

نزع أخي لتوه بعد زيارتي ساعته الهدية من يده، وهرع إلى بيته يزيل الثريا من سقف البيت، وكم كان حدسه صحيحًا! لقد غلبني في حدسه، فليس أقوى من حدس العاطفة إلا حدس العقل المبني على إرهاصات.

كانت الساعة جهاز تنصت وكان زوجي قد سمع كل حديثي مع أخي، فقرر الانتقام.

لكن في الوقت نفسه، كان تحقيقات المناضلين حول حادثة الاغتيال القديمة للمناضل أبي جنى كلها تشير إلى زوجي، فخطفوه وحققوا معه وأعدموه خلال يوم فقط، قبله بقليل بلَّغ عن أبي لتتم تصفيته، فتزامنت الأحداث جميعًا.

سألت أخي:

- ما دمتَ كنتَ تشكُّ فيه، وأبي يعرف عنه فلم لم تحْذَرا الساعة والثريا؟

- قلتِ أولاً هي منك ومن حُرِّ مالِكِ، وثانيًا، لم نتوقع أن زوجك سيُقْدِم على هذه المغامرة، كنا نظنه يتجسس فقط على أبيك، وكنا نوصل له المعلومات التي نريده أن يعرفها. توقعنا أنها جهاز تجسس فقط، ولم يخطر لنا أنني كذلك موضع شكوكهم.

صمت أخي طويلاً، ثم قال لي:

- هل عرفتِ لم أصرَّ زوجك على الظفر بك؟ كنتِ الباب الذي دخل منه إلى بيتنا، فكان يجب أن نقطع علاقتنا بك، حتى ظننا في لحظة أنه جَنَّدكِ معه.

- لماذا لم ترفضوا زواجي منه أصلاً؟

قلتها بكبرياء مجروح.

- لأنه أخبرنا بما جرى يوم المسبح! حين قلتِ إنكِ ذاهبة إلى جامعة بيت لحم لاستصدار بعض الورق وهدَّدَنا بفضيحة.

عند تلك النقطة، غَلى رأسي، وفقدت وعيي، وانهار كل عالمي، وانتهى فصل من حياتي.

الفصل الثاني

"أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه"

"الغيمة لا تتنازل عن هويتها
لمجرد أنها أمطرت في صحراء قاحلة."

(١)

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل! هكذا يردِّد الناس دومًا، وهم غالبًا يتسلَّحون به ويشحنون أنفسهم بالأماني وبقادم أجمل، ليخفِّفوا عن أنفسهم وطأة ما يعانونه في حيواتهم، هل كنتُ أملك تلكَ الرفاهية بعد كلِّ ما جرى؟ فما جرى كان قاصمًا للظهر، مُوئِدًا لأيِّ أمل يلوح في الأفق، ورغم ذلك كنت أكثر أملاً وتفاؤلاً وبالتالي قوّةً في الصمود أكثر من أيِّ شخص يكافح ويُدافع وتتراءى له الأحلام ممكنة التحقق.

فالفرق أخيرًا بين المستحيل والممكن، هو الفرق بين ما حدث وما لم يحدث بغض النظر عن المقدمات المحسوبة بدقَّةٍ فالعبرة دومًا بالخواتيم؛

فقد تكون قادرًا والإمكانيات متاحة ولا يتحقق شيء مِمّا تظنه لأنَّ حساباتك غير حسابات الواقع الواسع، فأنت تعرف واقعك، لكنك لا تعرف واقع كل الناس ولا ظروفهم، وقد تنعدم فرصك بالكامل، وتكون عاجزًا تمامًا أمام نفسك، ومع ذلك تنقلب الأمور فجأة، ويحصل ما تتمناه لأنك أضيق أفقًا من رؤية المستقبل البعيد، أجدر مَن يتسلح بالأمل هو مَن يرى البعيد وإنْ بَدا من قريبٍ مستحيلَ الوقوع، وكنتُ دونًا عن كل الناس أملك هذه القدرة على استشراف المستقبل البعيد من خلال السرداب السريّ الذي أعبر منه ليلاً وأتزود به نهارًا، وأثق به جدًا، ألَا وهو أحلامي التي تُذهلني دومًا؛ تُذهلني بأنها مستحيلة الوقوع، لتمتدَّ الأيام وتتهيأ الظروف بترتيبٍ بسيط جدًا لكنه منسقٌّ جدًا ومناسبٌ تمامًا للمقدمات فيتحقق.

حلمي الذي تحقق نصفه، ملأني قناعة بتصديق باقيه رغم أنني أراه غير مفهوم ومستحيل الوقوع لو أحسنت فهمه؛ لكن ما دام تحقق نصفه فماذا يمنع من تحقق باقيه؟

حلمي منحني الإيمان والرضا بكل ما جرى بعد تلك السنة المريعة التي أضحت نقطة سوداء في ملف حياتي، خيرٌ لا أحسن ترجمته أو فهمه، ليقيني أنَّ السوء أحيانًا جنديٌّ من جنود الخير لاحقًا، وهو لا يدري.

ظنَّني أهلي أقبلُ بمهانةٍ بما أتيح لي لأنني لا أملك حقَّ الرفض، ولا رفاهية تعدد الخيارات، لكنني فعلاً كنت راضية، لأنَّ طائرًا آخر من بعيد غرَّد لي غير الناعب الأسود الذي حلَّق حول الجميع.

(٢)

عُدْتُ إلى مشاركة أختي الأصغر غرفتها، وبقيت غرفة أخي العريس فارغة كما هي ولم أطمع بها لأنني خضعت لتلك المراقبة الصارمة التي فُرضت عليَّ، كان هذا مزعجًا لأختي بدايةً، وشعرتُ بحرج وأنا أقاسمها خزانة الثياب من جديد بينما هي تُفرغ لي مكانًا على السرير حيث اضطرتْ إلى إعادة الكثير من الدمى والدباديب إلى الخزانة.

أُسرتنا تتكوَّن في الأساس من ولدين وثلاث فتيات، أخي الأكبر وأختي ليسا شقيقيّ فقد توفيت أمهما فتزوج أمي، كانت تصغره بخمس عشرة سنة، وكان أخي الأكبر أصغر منها بخمس سنوات فقط، لكنه مع ذلك كان يعاملها كزوج أمه بكثير من التقدير، وأنا كذلك كنت أعامله كأنه أبٌ ثانٍ لي، وكان يعاملني بحنان بالغ، وكأنه يشكر أمي لرعايتها إياهم بعد موت أمه، حتى إنه كان يزورني في بيت زوجي في الأعياد دونًا عن كل العائلة، وكثيرًا ما يتصل بي بلا سبب فقط ليطمئن عليَّ، لكنني حتى الآن أجهل السبب الذي جعلني

ألجأ إلى أخي العريس الأصغر مني لأخبره بقصتي، هل كنت أستدرُّ تعاطفه وقتها وهو الذي جفاني؟ أم أنَّ هيبة أخي الكبير وحنانه منعاني من توجيه صدمة الخبر إليه؟ فعاملتُه كما فعلتُ مع أبي وأخفيت عنهما الأمر بداية؟

أخي يزورنا اليوم في واجبه الأسبوعي لنا، وإنْ كان لا ينتظر نهاية الأسبوع ليتفقد أحوالنا، هو يشتغل مع أبي في محلّ العطارة، والآن بعد ما جرى مع أبي فمسؤولية المحل وبالتالي مسؤولية مصاريف بيتنا تقع على عاتقه.

أحضر لنا معه الكثير من البهارات من المحل، إضافة إلى بعض الأعشاب الطبية، والمكسرات اللازمة لخلطات الأُرُزِّ في الطبخ، ولم ينس أن يحضر السَّميد والعجوة والجوز لنعدَّ الكعك مع اقتراب عيد الأضحى.

وقفت أمي بوجوم مُحتجَّة، إذ كيف ستحتفل بالعيد وأبي غير موجود؟

لكنه ابتسم بحنانه الدافئ مؤكِّدًا لها أنَّ الاحتفال بالعيد طقسٌ دينيٌّ لا علاقة له بمظاهر الابتهاج الآن (أحقًا العيد طقس ديني، لا علاقة له بالبهجة؟ ويكأنه فرض! لم أفهم العيد يومًا إلا ببهجته)، وأنَّ تناول الطعام أمرٌ يوميٌّ لا يرتبط بالعيد وحده.

سألني عن أحوالي، لكنه لم يُطِلِ السؤال أو المُكث، فالمحل ينتظره والزبائن كُثُر في هذا الوقت من السنة.

طوال عمري كنت مدلَّلة أخي الكبير، فقد أنجبتني أمي أولاً، ويبدو أنَّ جرعات الدلال المُركَّز من أمي وأبي وأخي الكبير جعلتني فتاة مدلَّلة حساسة لاحقًا، ربما.

بينما نُعِدُّ كعك العيد ليلاً، أنا وأمي وأختي الصغرى، وخلال طرقات قوالب الكعك على الطاولة لتعطي لقطع الكعك النقش المطلوب، غمرتني الذكرى فجأة، فالعيد الفائت تمنيت من زوجي أن نصنع كعك العيد، لكنه سخر مني قائلاً: "لمن ستصنعين؟" قلتُ متفائلة: "لعل أهلك يزوروننا"، فسخر مني.

سألت نفسي "إنْ كان الدلال أفسدني، فما الذي أفسد زوجي؟"

كان زوجي من أسرة متواضعة الأصل، أبوه شديدٌ إلى حدِّ القسوة، وأخوته الأكبر مِنه أشداء فيما بينهم، يعايرون بعضهم بالخطأ، بل ويتصيدونه لبعض.

كان زوجي ابن أمه في كل شيء، فهو يشبهها شكلاً، بغمازتيه وسمرته الشديدة ووجهه المربع، وعينيه الواسعتين، وقامته القصيرة، كان تجيد تدليله كقطٍّ وهو يجيد الاستمتاع بذلك كمشردٍ، حتى عندما كبر كان إذا ألَمَّ به عارضٌ يهرع إلى حِجْرها فيضع رأسه هناك، يكلمها قليلاً ثم ينام.

لم يكن لها أدنى شكٍ فيه، منذ كان صغيرًا -كما أخبرتني مرة- كانت خط الدفاع الأول عنه في وجه أبيه وأخوته، كان متفوقًا في مدرسته، وكان إذا حزب أمر بين الإخوة تميل دومًا إلى تصديق عبد، فهي تتباهى أمام الجميع بأنَّ عبد لا يكذب أبدًا، وصدَّقها في ذلك، فبات يكذب كذباته الصغيرة وهو على يقين أنها ستصدِّقه، بل وستدافع عنه، ثم كبر وكبرت كذباته وبقي طوال الوقت يصدق كلام أمه أنه لا يكذب.

رغم أنَّ قناعه سقط أمامي عدة مرات، إلا أنه وبكلِّ قوة كان يرفعه إلى وجهه ويكمل كذبته، اكتشفت لاحقًا أنه يبرر لنفسه ويراوغ كثيرًا ليقنع نفسه أنه صادق.

في مرةٍ، قبل أن أخسر جنيني الثاني، اشترت له إحداهن هدية للمولود القادم، كانت صديقة له، شعرت بذلك واعترتني رعدة من غَيْرة، لكنه أقسم أنَّ الهدية منه، لكنَّ حدسي أخبرني بغير ذلك، فسعر الهدية وتوقيتها، يهمسان بكذبه، كان يبرر لنفسه أنه انتقى الهدية، وأنه لاحقًا اشترى لصديقته هدية بالمقابل فكأنه سدَّد ثمن الأولى، عرفت ذلك لاحقًا، في لحظة صفاء أخبرني الحقيقة ببجاحة مَن يتباهى بذكائه الخلَّاق، كحِصْنٍ أخير يبرِّر فيه أنه لا يكذب ولكنه سيقول الحقيقة كما أريد سماعها في الوقت الذي يناسبه.

هكذا كانت تجري الأمور معه دائمًا.

رغم تفوقه الأكاديمي، لم يجدْ وظيفة تُرضي طموحه ورؤيته لنفسه، وتوقعات أمه منه، أخبرني أنه اشتغل في كل شيء؛ بداية من مستشار لأفلام بورنو حينما كان يقيم في بريطانيا، فقد درس في درجة الماجستير ما يفوق الثلاثمائة وضعية جنسية -على ذمة الرواي-، رغم أنني على يقين أنه لا يعرف أكثر مما يعرفه تيس يقفز على ماعز من الأوضاع! فقد كنت زوجته.

ثم عمل بائع ملابس، ثم الكثير من المهن، ثم مدربًا للتنمية البشرية، وكانت هذه ثالثة الأثافي بعد إتقانه الكذب على يد أمه ووظيفة مستشار، فقد تعلَّم مِن الحِيَل النفسية والخدع اللفظية وغير اللفظية من تعبيرات الجسد ما

جعله مؤهلاً بجدارة ليقنع أيَّ شخص بما يريده، وجعله يتقن دور النظيف في زمن القذارة، والشريف في زمن النذالة، كما أخبرني أن كثيرًا من النساء كُنَّ يأتينه عارضات أنفسهن عليه بعد زيارة استشارية واحدة، بزعم أنَّ أزواجهنَّ لا يشبعن رغباتهن وأنهن كنَّ مفتونات به من أول نظرة. لطالما تساءلت سرًّا: هل يعاني زوجي من شعور بعجز جنسي؟ أو قصور ما استطاع أنْ يخفيه عني بجدارة ماهرة؟ لعله لم يكن مرغوبًا من النساء حقيقةً فكان يتباهى أمامي بكل هذا، وكنت أخيرًا الحمقاء التي أحبَّتْه وقبلت به زوجًا.

هل أحببتُ زوجي حقًا؟ هل كرهته لاحقًا؟ الحب والكره وجهان لعملة واحدة هي الاهتمام، كلاهما يعني أنك تهتم وتفكر، أمَّا عكس الحب فهو اللامبالاة عدم الاهتمام، أو... الشفقة! وزوجي لا يستحق أكثر من ألَّا أهتمَّ أو أنْ أُشفق عليه.

بكلِّ حال، هذه الأعمال التي تقلَّب فيها، ولم يفلح في أيٍّ منها، كانت خلال دراسته المدرسية ثم الجامعية، هكذا أخبرني، لذا بقيت متوجسة من وظيفة مستشار تلك لأنني دومًا سألتُ نفسي متى استطاع السفر إلى بريطانيا؟ وكيف عاد خاوي الوفاض ليبدأ من جديد بمهنة أخرى، لينعته أخوته بعدها بالفاشل في كلِّ شيء؟

كانت إذا زارتني جارتي، يحذِّرُني منها فهي عنده تطلَّقت من زوجها لأنها خانته، ثم إذا سألته عن ابنة عمٍّ له رأيتها في مناسبة ما، يقول إنها إسرائيلية قذرة لا بُدَّ أنها تُعاشر اليهود، وإذا حدَّثته بشغف عن فلانة، منعني من لقائها مجددًا، فهي تُشاغِلُه وعرضت عليه مرةً النوم في سريرها.

لا أعرف تحديدًا كيف تمَّ تجنيده، لكنَّ وظيفة مدربِ تنميةٍ بشريةٍ التي أعرف أنها حقيقية، لفتت إليه الأنظار، وجعلته محطَّ اهتمام مَن يريدون عميلاً جاهزًا للعمل، فغيَّر مهنته بمجرَّد تخرُّجه الجامعي، ليصير مديرًا في مؤسسة كبرى، حتى لحظة إعدامه.

رغم تأكيد الضابط الإسرائيلي تجنده في وقت مبكر، لا شيء أكيد، لم يخبرني أحد بالحقيقة كاملة، وبما اعترف به أثناء التحقيق معه قبل إعدامه.

(٣)

غرقتُ في ذكرياتي، حتى أمسكتْ أختي بيدي تُوقِفها، نظرتُ حولي وضباب الذكريات يملأ وجهي، فبدَتْ ملامحي غير مقروءة لأنها نظرتا إليَّ بتعجُّب، تلاقت عيني مع عيني أمي، فوجدتُها تنظر إلى الطاولة بأسًى، نظرتُ، فإذا بي قد أفسدتُ عدَّة كعكات بطَرَقات عشوائية على اللوح، بادرتْ أمي لرفع الحرج عني، أو لعلها ظنَّتْ فعلاً أنني شاردة فيما هو آتٍ لا فيما مضى، فقالت:

- هل يشغلك العريس منذ الآن؟

نظرتُ إليها طويلاً، وملء عيوني سؤال: "عمَّ تتحدَّثين؟!" كدتُ أسألها: "أيُّ عريس؟" لكنني تذكرت أنني فعلاً الآن قد صَدَرَ حكمٌ عليَّ بأنني عروس مع وقف التنفيذ، وأنَّ لي عريسًا لا أعرفه سأقابله بعد الغد، ثاني أيام العيد للمرة الأولى، وهذا العريس لا مفاوضات قبول أو رفض بشأنه أيًا كان حالُه، فقلت لها بشرود:

- ليس بالضبط، أنا فقط أتساءل كيف ستسير الأمور.

- ستسير بأحلى ما يكون، ربنا يبيض بختك، لعل الله يجعل فيه خيرًا كثيرًا.

هززتُ رأسي بصمت، وتنهدت، لكنني عُدْتُ لسؤالها بانقباض:

- متى تتوقعين أن يتمَّ الأمر؟

- بمجرد انتهاء العِدَّة يا حبيبتي، بعد أربعة أشهر وعشر أيام كما تعلمين.

- آه، في عز الشتاء إذن. (ثم أردفتُ وكأنني أعترض على الأمر برمَّته): ولكنني بعد العيد مباشرة أستلم وظيفتي، أليس من العِدّة ألا أشتغل؟

- لقد تكلَّم أخوك بهذا الشأن مع الضابط في السلطة، وسوف تستلمين عملك بعد شهر من الآن، حين تهدأ الأمور تمامًا وتكفُّ ألسنة الناس، ونطمئن على وضع أبيك.

- ليكن ما شاء الله. (ثم قلت في سِرِّي): "ما زلت أثق في حلمي."

فبعدما أخذني أخي إلى البيت، وأخذتُ معي كلَّ ما ثمَّنْته، وجدنا بين أوراق زوجي ملفات مهمة وأوراق خطيرة، رفض أخي إطلاعي على ما فيها، ولم يتجاوز حدَّ الجولة السريعة في حدودها الخارجية، ثم جمعها جميعًا، وأخذها معه.

في اليوم التالي صباحًا، في حدود العاشرة، اتصل بأمي يأمرني أن أجهِّز نفسي لمشوار سنذهبه، دون أن يبيِّن الوجهة حتى لأمي التي فركتْ يديها من

شدة القلق، وأقسمت على أخي بالله ألّا يؤذيني، فطمأنها، لكنني لم أطمئن وأنا مقيَّدة بيديه كحمامة تؤخذ إلى ذبحها.

ركبنا السيارة، وتفاجأتُ بنا أمام باب "العمارة"، لم تَعُدْ العمارة موجودة الآن، لكنَّ المكان اكتسب اسمها، كانت العمارة هي أضخم مبنى وأبشعه في مدينة الخليل كلها، تمتد على جبلٍ كاملٍ، بوجوم أسود، فقد كانت مصبوبة من الإسمنت بلا واجهة مِن حَجَرٍ تلطِّف منظرها، ونوافذها الصغيرة أشبه بأسنان عابسة في وجه الرائي.

كانت مقرًّا للإدارة المدنية في ظل الاحتلال قبل أنْ تصبح الخليل تابعة لمناطق السلطة الوطنية، ثم هُدِمتْ في احتفالية كبيرة، وكأنَّها الباستيل، وبنيت مكانها مبانٍ بيضاء متشابهة صارت مقرًّا لأجهزة الأمن الفلسطينية ومقرِّ الارتباط، أيْ مقرِّ التنسيق الأمني بين مناطق السلطة وإسرائيل، فيما يخصُّ الترتيبات الأمنية واستخراج التصاريح للفلسطينيين، وتأشيرات الزيارات لغير الفلسطينيين.

لا أعرف ما الذي أتى بنا إلى هنا، لكنني لزمت الصمت، هل سيسلمني أخي لأجهزة الأمن الفلسطينية على أنني عميلة وخائنة؟ شعرتُ بجرح كبير لمجرد الفكرة، هل عليَّ أنْ أعترف هنا بكل ما أعلمه ومررت به؟ لا شيء واضح لي.

دخلنا غرفة، ذكرتني بغرفة اللقاء في منطقة "الدبويا/ شارع الشهداء" حين قابلت الضابط الإسرائيلي الأربعيني، لم أستطع الشعور بألفةٍ تجاه هذا

المكان، كنت متوترة جدًا، دخل رجل فلسطيني بزيه العسكري، وشعره الأشيب تحت قبعته الرسمية، كان أسمر نحيفًا، رغم بشاشة وجهه لكنَّ الصرامة كانت بادية في زوايا فمه، وقسوة عينيه الحادتين اللتين اخترقتا كل تفاصيلي الجسدية والروحية، تململت في مكاني كأنَّ مقعدي جمر، وأخي يصافحه بلطف بالغ، ثم صافحني.

أخرج أخي الملف الذي أعرفه جيدًا وسلمه للضابط، كان يناديه بـ "سيادة العميد"، لكنه لم يذكر اسمه، لهجته تشي بأنه من شمال فلسطين، فقافه كاف، أحسبه من طولكرم أو جنين فهم من جماعة "كالوا وكلنا" بدل "قالوا وقلنا" أو "آلوا وألنا" كما لهجة الخليل، لكنَّ هذا لا يعني أنه لم يسمع بالقصة، كلُّ الخليل بل كل الضفة سمعت بالقصة، هذا غير البهارات التي أضيفت للقصة مِمّا كان يصلني أقلّه، وأَقَلُّه كثيرٌ وثقيلٌ.

أكَّد أخي أنني لا أعرف ما في الملف، وأنه -أيْ أخي- فقط فتح الملفات للتأكد أنها هي المطلوبة.

ساد صمت قصير، قبل أن يطلب العميد مني إفادة كاملة بكل ما جرى معي، وحثني أخي على الحديث بكل ما أعرفه، فأخذتُ نفسًا عميقًا، وبدأتُ أسرد قصتي بكثير من الانفعال بدا من سرعة حديثي وارتجاف صوتي، وشد أعصابي الذي لحظته حينما ارتخيتُ أخيرًا بعدما أنهيت السرد، والعميد يستمع جيدًا، كان يقاطعني أحيانًا لطلب مزيد توضيح، ثم يتركني أسرد قصتي كيفما اتفق.

حين أنهيت قصتي، كنت قلقة، بدأت أطرقع أصابعي، وددتُ لو أسأل ماذا سيحصل؟ ماذا ستفعلون بي؟ لكنني خفت كثيرًا من الإجابة، لأنني أخاف المواجهة، انتظرت حكم الإعدام وأنا مُعلَّقة بين شفتي العميد وفمه، لكنه قال بهدوء، بعد أن سحب نفسًا عميقًا، ورفع عينيه عن الملف:

-هل تعرفين ما سيحصل الآن؟

نفيت برأسي وعيوني التي كاد يتلفها القلق والأرق. فقال:

- هذا الملف سنقوم بتسليمه للسلطات الإسرائيلية بعد التنسيق معهم.

صعقت للمفاجأة، فقلت بلا تفكير:

- تسلمونه لإسرائيل؟! لماذا؟ أليست هذه ملفات خطيرة تهمُّ مصلحة الوطن؟ هل أنتم متعاونون معهم؟

فأسكتني أخي بنبرة جافة، ونظرة حارقة، ثم قال للعميد:

- يا سيادة العميد، أختي لا تقدِّر الموقف جيدًا، لو كانت تعي الأمور جيدًا، لما أوصلتنا لهذه الحال.

فسكتتُ وفي أعماقي صرخة مكتومة، وجرح مكابر، فقال لي العميد بعدما أشعل سيجارة، بعدما شعر بحيرتي:

- نحن نفعل ذلك لأجلك أنت بالذات. إن بقاء هذه الملفات بين أيدينا أو معكِ، سيؤلِّبهم عليك، ولن ينتهي الأمر إلا بتصفيتك أو اعتقالك أو تجنيدك، إن تسليم الملفات يسوِّي الأمر في هذه القضية مع الجانب الإسرائيلي.

– لكنني هكذا، سأُتَّهم من قِبَلِ الناس جميعًا بأنني خائنة، سيقولون: لو لا أنها كذلك لما كفّوا أيديهم عنها.

– نحن سنتولى مهمة تنظيف اسمك، ومنع الإشاعات عنك، والزمن كفيل بالباقي، نحن نثق بضعف ذاكرة الناس، وسيرورة الحياة.

– لم أفهم! كيف ستفعلون ذلك؟ كيف تقنعون الناس أنني لست متواطئة مع زوجي السابق؟ وأن تسليم الملفات ليس تعاونًا؟

– إن سمعة والدك من جهة، وعدم رفض أهلك لك من جهة ثانية، والوظيفة التي سنؤمِّنها لك...

– وظيفة؟!

نظرتُ إلى أخي، كأنني أسأله رأيه، فهزَّ رأسه موافقًا، نظرتُ إلى العميد ثانية، شعرت أنَّ كلَّ ذلك مُرتَّبٌ مسبقًا، لكن متى؟ لم يمضِ على الحادث سوى يومين، كيف جرت الأمور بهذه السرعة؟

لم يمهلني الوقت لأطرح الأسئلة أو لأفهم شيئا فأردف:

– وأخيرًا، كل امرأة تحتاج إلى زوج وبيت وولد، إن زواجك سيَحُول دون كثرة الكلام، وتراشق الناس أطراف الحديث حولك، حين تتزوجين، خاصة رجلاً من رجالات الأمن، سيتوقف الجميع عن التشكيك في وطنيتك.

كدْتُ أصرخ هلعًا مِمّا أسمع، فوضعتُ يدي على خدي، ثم على فمي، وعيوني مفتوحة عن آخرها، كان وجه أخي غامضًا كنقش سُومريٍّ قديم، فأخذني العميد من يدي بعيدًا بعدما غمز أخي، ثم قال:

- إن زواجكِ فريضة اجتماعية، وضرورة أمنية، تنقذ سمعتك، والأهم أنها إحدى طرقنا لحمايتك من غضب أهلك، فإذا استمر الأمر على هذا الحال، سوف يقتلك أخوك، ليغسل عاره.

كنت أحدق في وجهه تحديق عَبّاد في الشمس، حيث ولَّى، وأيًّا قال، بلا شعور أو قدرة على التملص من أثر كلامه عليَّ، قال:

- هناك شاب طيب، من الشمال، سنقوم بالترتيب مع عائلتك، بعد العيد.

أهذا كل شيء؟ أهذه هي النهاية/ نهايتي؟ أقرار أصرُّ عليه، أدفع ثمنه سلسلة قرارات تُفرض عليَّ؟ أهكذا تسير الحياة؟ قانونها الوحيد؟ أيُّ بلاد أعيش فيها؟

لكنني لم أنطق بحرف خلال عودتنا إلى البيت، احتضنتني أمي حين وصلت كأنها لا تصدِّق عودتي سالمة، لقد فهمت الآن حقًا ما قصده العميد.

ذهبت إلى غرفتي، واستلقيت بكامل ثيابي على السرير، احتجَّتْ أختي أنني يجب أن أخلع حذائي على الأقل، لم أملك أيَّة طاقة للرد، وانقلبت على

جانبي الأيسر حيث النافذة، ودمعة تكاد تتدحرج، عضضت عليها بإغماض عيني لكنها تسربت من طرف عيني اليسرى على الوسادة.

بقيت في الفراش ربع ساعة، وأنا اجترُّ كل أحزاني الماضية وأتخيل المأساة الشكسبيرية التي سأعيشها لاحقًا.

(٤)

كنتُ ممتنَّة جدًا لشجرة الصبار المزروعة خلف بيتنا والملاصقة للسور، فأنا أحب الفواكه جدًا وأستمتع بها لدرجة الاكتفاء، لم أكن نباتية بالطبع! فحينما ولدتُ رضعتُ حليب أمي! أومن ألَّا أحد نباتيٌّ خالصٌ، وأنَّ ذلك ليس أكثر من رهبانيةِ مَعِدَةٍ، لا علاقة لها بالميول الطبيعية، وإنما بقسوة نبتدعها أو تقليعة صوفية نقع في غرامها.

لكنني رغم أكلي للحوم بقيت تلك التي تفضل الفواكه وتستلذ بها تمامًا، كان طعم الفواكه في فمي مطابقًا دومًا للمتعة التي أنتظرها منها والانتعاش الذي أرجوه بعدها، عكس اللحوم، التي تسبب لي ثقلاً، وأشعر دومًا أنَّ متعة تناولِها المتخيلة ورائحتها الشهية لا يطابقان طعمها.

دومًا أفضل اللحوم والأسماك المشوية، على المسلوقة، لكنَّ هذه الرفاهية ليست متاحة كثيرًا في بيت أهلي، ولا حتى وفرة الفواكه، فطالما اعتبرها أهلي كماليات لا تستحق كل ذلك التقدير اليومي، لذا كنت شديدة الامتنان لشجرة

الصبار في فترة مكوثي في بيت أهلي، فقد كنت أستيقظ صباحًا، وأجنِّب أهلي عناء ما قد يتعرضون له من أشواك متطايرة من ألواح الصبر، فأقطف الثمر بملقط الفواكه بداية، وأجمعه، ثم أقشره، كل ذلك قبل أن يشتد الحر، فطعم الصبار مع برودة الصباح منعشة كأنها غُلِّفت بالثلج، وهذا أفضل من وضعها في الثلاجة لأن بعض سوائلها تجعلها لزجة قليلاً.

كنتُ بها أفعله أستمتع كثيرًا، لا أدري لأنني أجسِّد فعليًّا مقولة: "تجرَّعَ الصبر أو أكلَه حتى شبع!" أو أنني أعتذر لأهلي من خلال معاناتي أثناء قطفه لتلك الرفاهية المجانية التي أوفرها لنفسي بعد كل ما جرى.

كان هذا فطوري فيما بقي من الصيف قبل حلول موعد زواجي، لكنني طورت طريقة أعجبتني لقطفه دون أن تعلق الأشواك بثيابي حين أتوغل قريبًا من الألواح لاستخراج الأكواز الناضجة؛ أحضرت علبة معدنية فارغة لبازيلاء معلبة، وثقبتُها، وضغطتها من الجانبين حتى صارت مخروطية نوعًا ما، وثَبَّتُّ فيها بمسامير عصًا خشبية، صرت أمدُّ يدي من بعيد لقطف الصبار، وكان ذلك ناجحًا جدًا.

أمَّا الطعام، فكنت كقطة مشردة تأكل ما يوضع لها، لم أعد أملك أن أحب هذا الطعام أو ذاك مثلما كنت أفعل سابقًا قبل زواجي، فقد كنت كثيرة التذمر ولا آكل إلا الطعام المفضل لدي وإن لم يتوافر، كانت أمي تقلي لي البطاطا، أو أطلب من أحد إخوتي شراء رغيف فلافل لي.

أما الآن، فما يوضع في طبقي آكله بصمت، في البداية كدت أبكي قهرًا لأنني مجبرة لتناول الأطعمة المختلطة بالباذنجان، أو الأطعمة التي يدخل في وصفاتها الثوم، لكنني مع الوقت أدركت أنَّ الفرق بين ما نحبه أو لا نحبه من أطعمة، هو الفرق بين الأكل للمتعة أو للفائدة، فتقبلت يوم الباذنجان والثوم أنَّ عليَّ تناول طعامي كدواء مفيد لي، وفي أيام أخرى أتناول طعامي بلذة كبيرة صامتة.

كنت أطبخ كل ذلك وللجميع، وأتحمل أغلب أعباء شؤون البيت عن أمي وأختي، لم أكن كسندريلا تحديدًا! لكنَّ الفراغ الهائل، والانكماش النفسي إثْر كل ما جرى، جعلاني أتولى مهام شؤون البيت بصدر رحب كيلا أكون عبئًا على أحد، ولعلني أردت ألا أشعر أنني فرد زائد عن الحاجة في المجتمع.

كنت وقتها قد تخليت عن التفكير في مرامي حلمي ونسيت الكتابة تمامًا، كان أهلي يرتابون بي، لم أفقد ثقة أهلي بوطنيتي، لكنني فقدت ثقتهم بعقلي وقلبي، ومدى أهليتي لمواجهة الحياة والحكم على الأشخاص، لذا كانوا لا يأخذون بأقوالي، ولا يهتمون حتى لرغباتي الشخصية، بل إنهم لم يعودوا يتوقعون مني أيَّ إنجاز أو دور في الحياة، رغم عملي مع أخي، ذلك العمل الذي يُعَدُّ دعامة من دعامات وجوده واحترام المجتمع له، كان لا يعني لهم شيئًا بخصوصي، لم يحمل عملي مع أخي أيَّ تقدير يمكن أن يُقدَّم لي، كانوا ينظرون إليه على أنه مجرد شيء بديهي أفعله، رغم أني لم أكن مجبرة عليه، ورغم أن نظرتي له كان مختلفة، ورغم أنه علمني الكثير مِمّا لم يلحظوه وقتها.

(٥)

"تأملت كل ما أفعله فلم أَجِدْني أكثر من شخص يثبت أهليته لاستحقاق الطعام والمسكن حيث يعيش، لكن ماذا أنجزت لنفسي؟ وهذا الاختناق الدائم؟ القهر الذي أشعر به لكل ما جرى معي؟"

كانت هذه كلماتي للورق، تأملتُها، فعادت لي نزوة كتابة رواية من جديد، كدعوة سرِّية لممارسة طقوس طُهر الذات بالكلمات.

فقررتُ هذه المرة أن أستفيد من تجربتي السابقة بدايةً، لتطوير فكرة جديدة، أكثر ملاءَمَة لِما أنا فيه.

بدأتُ أخطُّ على الورق أهم الأخطاء التي وقعت فيها ولم تَرُقْ لي، كنوع من نقد الذات:

• كانت الرواية السابقة صريحة ومباشرة، لذا كانت رسالتها سيئة الأثر.

• الخطوط العامة لأيِّ عمل مهمة، لكن التفاصيل تأتي وحدها، من خلال الأحداث.

• لم تكن الفكرة العامة كافية لصناعة رواية كاملة.

• الرواية ليست سيرة ذاتية.

تأملت هذه النقاط معًا، وأردت إضافة المزيد، لولا ظهور صديقي الفيسبوكي الفيلسوف أونلاين، فتركتها جانبًا، ففي فترة انعزالي عن الناس وحاجتي المُلِحَّة للتواصل، سمح لي أهلي أن افتح حسابًا باسم وهميٍّ، بشرط أن يراقبوا الحساب، وألَّا أضيف أيَّ شخص من العائلة الكبيرة أو من بقايا أَرومَة زوجي السابق.

كُنَّا في طريق التعارف، وكان اسمه وهميًّا كاسمي تمامًا، كلانا غريبٌ التقى في الدرب بغريب، لذا شعرتُ بارتياح تجاهه، لكنني كنت أنزعج أحيانًا من أسئلته الفضولية، فأُقابِلُها بسؤال مماثل، سألني:

- مِن أيِّ بلد أنت؟

- من بلاد المشرق، وأنت؟

- من أين بالضبط في المشرق؟

- فلسطين، وأنت؟

- أنا أعيش في أوروبا.

- أين؟ في أيِّ بلد؟

- لا يهم، في بلد تريحني.

شعرتُ بغضب لتكتُّمه مقابل وضوحي، فقلتُ له مازحةً لقتل هذا التوتر في داخلي ولتغيير معلوماته عني:

- لكنني سأستقر في ألمانيا لأرتاح!

- معاناتك داخلية، لن يتغير وضعك بسفرك، لن ترتاحي هناك ما دمت غير مرتاحة هنا.

سرحتُ بعيدًا في كلامه؛ فهمتُ قصده، لكني لم أتفهم غموضه، فأغلقتُ الجهاز وقمتُ أفكر في روايتي، كنت أودُّ لو أنه أكثر وضوحًا لا يستفزني هكذا، لحدثته قليلاً عني، وعن روايتي، فهو على ما يبدو ظريفًا ذكيًّا، غير سخيف.

كيف لفت انتباهي؟ آه، ذلك المقال الطويل الذي كتبه حول الهوية في ظل الحياة المعقدة التي نعيشها، أذكر ردِّي عليه يومها جيدًا:

"لماذا نحن مجبرون على أن يتمَّ وضع هوية لنا؟ لماذا هذه التقسيمات بين الوطنية والعرقية والسياسية؟ لماذا نحصر أنفسنا في شيء يجعلنا متمايزين عن الآخرين؟"

يومها راق له تعليقي، رغم أن تجربتي بزوجي أثَّرت كثيرًا في ردِّي، وأذكر أنه هو من أرسل لي طلب صداقة ترددت كثيرًا لقبوله، لولا رسالة

على الخاص، يؤكد فيها أنه باحث مسلم في الغرب حول هذا الموضوع بالذات، يستأذنني في مزيد نقاش لأن ذلك يهمُّه في رسالته العلمية.

كنت أبحث عن طريقة لأُطَمْئن قلبي من شكوكه، فقد أصبحت أكثر حذرًا وشكًّا في الناس عمومًا، أصبحت أشعر أنني غير محمِيَّة وبحاجة جدًا لتلك اليقظة التي تخرجني من دوائر الشك والحذر المؤلم.

روايتي الآن أمر يجب أن أفكر فيه جيدًا، وعليَّ البدء بها الآن، الفكرة قلَّبتها في رأسي جيدًا، وهي جاهزة حتى إنني أتخيل المشهد الأول بدقة، وأشعر أنني أعيش مع كل الأبطال حيواتهم كأنني أشاهد فيلمًا شاهدته من قبل، عليَّ البدء فقط، وهكذا فتحت ملفًا وكتبت عنوانا بالخط العريض:

"الاستثناء الجميل"

الاستثناء الأول:

كانت قاعة الفندق مرصوفة برخام عسلي اللون، في منتصفه شكل دائري من رخام خمري، يتخلله بعض الرخام العسلي بخطوط طويلة، وفي منتصف الدائرة طاولة خشبية مزخرفة تعلوها مزهرية فيها ورود شامية خمرية، وبعض الزنابق بلون البيج وزهور الثلج، كانت الصالة كلها مفروشة بأثاث خمري مخملي. لم تكن الصالة توحي بأنها فندق من الدرجة الثالثة وأنها تقدم خدمات الدعارة المرخَّصة.

خرجت راشيل من المصعد، تنفست بثقل وبعمق، تلفتت تبحث عنه، اختار طاولة في الزاوية تحيط بها أرائك جلدية متصلة بشكل نصف دائرة،

بمقاعد خمرية وعسلية على التوالي. تصنعت الابتسام حينما التقت عيناها بعينيه، اقتربت منه، كان منتشيًا بلذة الانتصار.

كان مبهورًا كما دائمًا بمظهرها، ارتدت فستانًا مكشوف الذراعين أسود اللون، مفتوحًا يكشف عن فخذها الأيسر، مع شال يحيط بظهرها ويلتف على ساعديها الأبيضين جدًا، وقرط من مجوهرات مزيفة يلامسان كتفيها، كان وقع مرآها يبعث على الاحترام لسيدة أعمال أو فتاة مدللة من بنات أثرياء المجتمع الإسرائيلي الغربي، لولا ملامحها الروسية الواضحة.

استغربت كيف صافحها بلطف، طلبا العشاء الفخم، وتناولا شرابًا فاخرًا، كان ينفق بسخاء، شعرت بأنه رجل آخر، كيف يمكن لهذا الرجل المهذب أن يكون ساديًّا وشاذًّا في الفراش إلى ذلك الحد! لعل مديرها لا يصدِّقها نظرًا لطريقة هذا الزبون في التعامل مع الآخرين.

صعدا إلى الأعلى وعيون المدير تراقبها ورأسه يهزُّ حركات تشجيع.

غادر الزبون وتركها في الغرفة وحيدة، كان استثناء أن يسمح لها المدير بالبقاء في الغرفة لمدة عشرين دقيقة إضافية بعد رحيل الضيف، لشدة ما شعرت بألم في كل زاوية من جسدها وروحها، كانت تشعر وهي ممددة هناك بلسعة برد شديدة رغم أن المكيف يعمل بشكل فعال. كانت برودة داخلية بسبب الهبوط الحاد في المعنويات.

بدأت ذكرياتها السيئة تراودها، كانت تعلم ذلك، أصبحت تلك الحالة متلازمة نفسية منذ وصولها إلى إسرائيل.

في الطائرة المتوجهة إلى إسرائيل، كانت الرؤوس مثقلة بفعل الفودكا الممزوجة بأحلام عريضة، كانت هجرتها لأسباب اقتصادية بحتة مثل كثيرين ممن هاجروا مع بداية الألفية الثانية، لكنَّ تلك الأحلام العريضة والوعود الثقيلة للأهل في روسيا، تجمدت داخل الكيبوتسات المعدنية الباردة التي منحت لهم.

تَذْكُرُ كيف طال بحثها عن عمل، لكن عدم إتقانها للعبرية كحال كثير من الروس الذين انقطعوا عن معاهد تعليم اللغة، وآثروا عدم الاندماج، لم تتح لها فرصة كبيرة للعثور على عمل مناسب، كانت ترزح تحت عبء ضغط أمها في روسيا التي ترسل ترجوها بمزيد من المال.

كان هذا هو العمل الوحيد المتاح، لا يحتاج إلى لغة، استغلت جمالها واستغلوا وضعها.

(٦)

بدأت أستمتع بكتابة روايتي، ولم أتمالك نفسي من الهمس بالسر لصديقي الفيسبوكي المجهول، فأحيانًا المجهول أكثر قربًا مِمّن نعرف، لأن المعرفة تخلُق تلك الحسابات البغيضة حول ردود الفعل، أمّا هذا فلا أبالي بما يقوله، كما أنني لن اسمع تقريعًا منه حول قيمة ما أفعل، مقارنة بظروفي الاجتماعية الصعبة.

كما أن حديثه عن الهوية منحني فكرة جميلة للكتابة، فهذه المرة لن أتكلم عن العميل، لكنني سأخترق ذلك المجتمع الذي رغب زوجي السابق طوعًا بالانتماء إليه والاعتداد بهويته.

هل كنت أتحدث إلى صديقي لأجل الرواية؟ أم كتبت رواية لأجد ما أحدِّث به صديقي؟ لا أعرف، لكنني مِلْتُ إليه بشدة، وشعرت أمامه بانكماش مَعرفيٍّ، حتى أسميته فيلسوفًا! ليس لزيادة معلومات أو معرفة عنده، لَكنْ لطريقته الغريبة في فهم وتقليب ودمج كل ذلك معًا، بطريقةٍ

تُدهشني وتجعلني دومًا بانتظار مزيده، لقد بات مُقنعًا لي أغلب كلامه، وما لا أقتنع فيه، يشغلني على الأقل، وأطيل التفكير فيه، فينتج من كل ذلك حصيلة معرفية جديدة، وحافز قوي للكتابة عندي.

هل أنا خائنة؟

أفزعني هذا الخاطر، فسكبت قهوتي حينما رجفت يدي بالفنجان، أيُّ شيء إلا الخيانة! عن أيَّة خيانة تحدِّثني نفسي؟

أقلقني هذا السؤال، كبعوضةٍ ترعى من دمي، قمت وجلست بجانب أمي، قلت لها:

- هل نشرتم خبر خطوبتي؟

- نعم، فعلنا.

- لماذا استعجلتم؟

- لقد جاء ورآك في العيد، ونحن متفقون على كل شيء.

- لكنه...

- أفضل الحلول، احمدي ربك.

سرحت في ملامحه، وانطباعي عنه حين جاء في العيد ليراني، شاب أشقر الشعر، أزرق العيون، لكنَّ بشرته شمسية تكاد تقترب من التَّحميص، لا قمرَ يُنيرها، خلق هذا التناقض في نفسي استخفافًا به، فهذه بالنسبة لي المواصفات المثالية لإله جمال إغريقي اختار أنْ يصير عامل تنظيفات مُتغضِّن.

كانت ملابسه البسيطة تنبئ عن ذوق سقيم؛ قميص أخضر، وبنطال أزرق، كدتُ أسقط مغشيًا عليَّ حين رأيت تلك الألوان المبهرجة كأنني أمام مشهد طبيعي بالمقلوب، أرضه فوق وسماؤه تحت، أحمد الله أني لم أضحك، أمَّا حين تحدَّث، فقد نظرت إليه كما سمعت "أليس" القِطَّ ينطق لأول مرة في بلاد العجائب، لكنَّ كلامه لم يكن بوضوح القِطِّ، حين قال:

- تشيف حالتشِ؟

- ها؟

احمرَّ وجهه خجلاً، وارتبك حتى ضمَّ ساقيه إلى بعضهما ويداه بينهما، فبدا كعذراء اعتراها خَفَر، فكدت أنفجر لسُخف الموقف، حين تذكرت أنه "أعذر"! إنْ صح التعبير، وأنني أنا التي لست بعذراء! كدت أصفعه، صارخة في وجهه: استرجل! لكنَّ أخي تدارك الأمر كله، وترجم لي كلامه بقوله:

- يسألك: كيف حالك؟

- آه، الأتش! كشكشة ربيعة، أنت مِمّن يجعلون الكيف تشيف! أنا بخير.

زجرة عين أخي، جعلتني أخجل لتعليقي، فحاولت تلطيف الجو قائلة:

- وكيف أنت؟

- بخير، الحمد لله.

كان نطقه هذه المرة طبيعيًّا، الحمد لله.

كلما تذكرت الموقف ضحكت، وفُجِعت، فمِن المضحكات المبكيات أن ينتهي بي المطاف حيث أنتقد زواج "حملة اطرق الباب" بل أسوأ، زواج بالقرعة، لماذا كان يبدو على وجهه السرور وقتها؟ ألا يشعر بأنني عارٌ عليه؟ أم لأنه زواج "فوق البيعة" مجانيّ بالكامل؟ لقد جعلني المجتمع رخيصة بذنب لم أذنبه.

كنت حاقدة على كل ذلك، وكان ذلك العريس التافه عندي، الدمية التي تتلقى كل ضرباتي وغضبي من الحياة، وكانت البداية أنني قررت خيانة ابتسامته تلك، بحديث شبه بريء مع الفيلسوف الغامض خلف الشاشات، مع قليل من شعور بالذنب، فالأمر في النهاية خيانة، وأنا بالدرجة الأولى ضحية الخيانة، فالخيانة واحدة، من يخون قلبًا يخون وطنًا، ومن يسرق حرفًا يسرق وطنًا.

لم أجادل أمي كثيرًا، لكنني ما زلت عنيدة كفاية، لأنتقم من نفسي ومن مجتمعي ومن ظلال العريس المرتقب، ببعض الخيانات الصغيرة.

(٧)

زارنا العريس، مرة أخرى بعد العيد، ويبدو أنَّ أحدًا بَدا يهتم لأمره، فكانت ملابسه أكثر أناقة، أو أن هذا ما نضج من الغسيل يومها، كان يرتدي قميصًا سماويًّا، وبنطالاً كحليًّا، لا بأس فهي ألوان متناسقة، لكنها أقرب إلى الزي المدرسي الرسمي.

أحضر معه يومها علبة شوكولاتة، أدهشني ذلك، لأنه أشعرني أن الشاب يتعامل معي بجدية على أنني فعلاً عروسه بقرار حكومي.

لم يطل المكث، ولا حتى لتناول الغداء، اعتذر بأن أخوتي غير موجودين وأننا لم نكتب الكتاب بعد، رغم ذلك تأنقت جدًا في ملبسي، لا يمكنني الاعتراف بأكثر من أنها كانت نوايا شريرة، لعلها رغبة في إثارته ورؤية أثر ذلك عليه، مع نظرة من العينين تقول لا مساس، أو لعلني أردت أن أوصل له رسالة بأنني أفضل منه بكل الأحوال.

جلست قبالته، وصحن الفواكه أمامه يحدِّق فيه ولا يمسُّه، كانت أمي تلاطفه بطريقة اعتبرْتُها فجَّة ومتواطئة عليَّ بتلميحاتها، قالت له:

- متى سنرى أهلك؟

- قريبًا، قبل كتب الكتاب إن شاء الله.

قالها بلهفة، فتدخلت بقولي:

- هل هم موافقون على زواجك مني؟

قلتها بسخرية وتحدٍّ، فردَّ بحزم:

- أهلي أناس شرفاء بسطاء لا يهتمون للمظاهر، ولا لِما يشاع، إنهم متفهمون وأحبوك قبل أن يروك.

جعلني أشعر بالشفقة على نفسي، فأثار سخطًا إضافيًّا في داخلي.

قمت من مكاني متعثرة بلا استئذان، لكنه استوقفني، معتذرًا بأنه مضطر للمغادرة، ومدَّ يده لي بورقتين بلا أيِّ توضيح منه، ووقف ينتظر أن افتح الورقتين.

فتحتهما، كانت الأولى تصريحَ استدعاءِ عمل، في وزارة الثقافة، قسم التوعية، ادَّعيت أنني غير مبالية، رغم أن بريق عينيَّ كاد يفضحني لكنني رمشت كثيرًا، فانشغلت عنها بالثانية، وبمجرد أن فتحتها بدأ يشرح:

- لقد كان سهلاً استخراج تصريح لك لزيارة الوالد في سجن مشفى الرملة، أظنك ترغبين بذلك.

دعتْ له أمي كثيرًا، أما أنا فبقيت محدقة فيه، لَمْ أشعرْ أنه يمنُّ عليَّ بشيء، فقط كمن يقوم بواجبه، لم ينتظر حتى أن اشكره، فسلَّم وخرج.

أكاد ألمس طيف ملامحه كلما نظرت في التصريح، لأتأكد أنه بشري مثلنا، رفعته تلك اللحظة إلى مصافِّ آلهةٍ مُتناسيةً كلَّ سخافات مظهره وبِدائية ملامحه، تمنيت لو أنَّ له عندي صورة فوتوغرافية.

هل أحببته؟

كلا! قلت لنفسي بقرف، أنا لا أشعر بأيِّ انجذاب له، لكنّه للحقيقة يستحق الشكر، أنا فقط ممتنة له جدًا، كان يمكن أن أحمل الشعور نفسه لأيِّ شخص يفعل مثله.

وقمت إلى روايتي وصديقي الفيسبوكي، فقد ارتبط مصيرهما في لاشعوري معًا وقتها.

أرسلت له الرواية، أو ما وُلِد منها بناء على رغبته، باغتني بسؤال:

- هل أنت متزوجة؟

لقد داعب سؤاله كل كياني، فمن سيهتم بكوني متزوجة أو لا إلَّا رجل يفكر في الزواج، هذا ما خطر لي، ولم أفكر في غيره إلى حين أعاد سؤاله فقلت:

- لا، أنا أرملة.

وللمرة الثانية، شعرت بغرابة موقفي، أنا حاصلة على لقب أرملة؟ نفضت كتفي، كأنني أنفض الهَرَمَ عنهما، فصورة الأرملة عندي سيدة عجوز بثياب سوداء وشعر معقوف، وشال يدثرها، تجلس على كرسي أمام لشرفة تنتظر الموت.

- هل كنت تحبينه؟

للمرة الثالثة يواجهني مع نفسي بطريقة بغيضة جدًا، لكن... يا للنفس الحالمة حين ترغب بالهروب، لعله يريد الزواج بي ويخاف أن أكون ما زلت عالقة في ماضي الحنين؟!

قلت له:

- لا.

- لماذا؟

- قبل وفاته حصلت مواقف متراكمة أذابت الحب، كما يذيب المطر الصخر.

- ناكرة للمعروف وللعِشرة.

- أنت لا تعرف شيئًا لترميني بهذه التهمة!

- كم عشت معه؟

- سنة.

- لو كان كلبًا عضَّك وربَّيْته، لأحببت ذكراه أكثر من زوجك.

ثم اختفى من الفيس، وتركني لغضبي واختناق الذكرى في جسدي، حتى غدا مصنعًا لتوليد الكآبة.

أنا لا أحب زوجي السابق! لماذا عليَّ أن أحبه؟ أو أحفظ له ذكرى جميلة في قلبي؟ كيف يبقى الحب وقد بني على خداع؟ كلما تذكرت له موقفًا طيبًا، انصبَّ في نهر من وحل الخيانة والكذب فتلوَّث.

أبعدما حرمني من أهلي ومستقبلي وسمعتي وثقتي بذاتي سأحب منه شيئًا؟ كلّا، إن السوء الذي لحق بي منه أكبر بكثير من أيّة لحظة صفاء عابرة، لأنها لم تكن عامرة، علاقتنا كانت خواء روحيًّا، ثم من أُحب؟ لقد أحببت وقتها رجلاً لا أعرفه، حينما أحببته أحببت صورته في خيالي لا حقيقته، لقد أحببت وقتها وهمًا، ولمَّا انكشف، لم يبق من الحب شيئًا.

الاستثناء الثاني:

أخذتْ "آنا" نفسًا عميقًا، وفتحت حسابها في الفيسبوك، كانت بصدد نشر صور التقطتها اليوم في المؤتمر الذي انعقد في مدينتها نيويورك، حول حوار الأديان، بحضور مجموعة من الحاخامات المنتمين لجماعة ناتوري كارتا التي تؤيدها بشدة.

رفعت الصور تباعًا، لحاخامات يصافحون بعض رجال الدين المسلمين والمسيحيين. اعترضتها صورة لها التقطها صديق عَرَضًا بكاميراتها وهي تتحدث مع مشارِكة في المؤتمر، تأملت الصورة طويلاً، كانت الفتاة مسلمة

محجبة من أصل أردني، لم تشعر خلال الحوار بشيء مفتعل، ولم تلحظ أن بينهما شيئًا من التحفظ، لكنها ابتسمت حينما تذكرت كيف كانت الأردنية تحاول طوال الوقت التأكيد بشكل غير مباشر على أنها تحترم كل الأديان، ولا مشكلة لها مع اليهودية كديانة. "لم تكن بحاجة لهذا التأكيد." قالت لنفسها ثم لم تملك إلا أن ضحكت: "يا إلهي! إن محاولات نفي الشيء تؤدي في النهاية إلى استحضاره."

رفعت الصورة أخيرًا.

لاحظت كمَّ التفاعل في الموقع، من عدة جنسيات وأديان. وبعدة لغات. لحسن حظها أنها تتكلم أكثر من لغتين، ولحسن حظها أن الفيسبوك يحتوي على خاصية الترجمة الفورية.

كانت تتابع التعليقات المنهالة باهتمام أحيانًا، وتردُّ على بعضها، وتكتفي بإشارة الإعجاب لغزل بعضهم واكتفائه بالتعليق على صورتها الشخصية.

كان أغلب هؤلاء من العرب، المولعين بكل ما هو غربي، ذلك الشاب المصري أمطرها بوابل من الإعجاب، ثم أتبع ذلك بصور رمزية لقبلات ضاحكة بوجوه صفراء.

كانت تتخيل صوته وهو ينطق بكلماته تلك.

تعرفت عليه من خلال الموقع، ولحاجتها لإتقان اللهجة المصرية وافقت على إضافته لحسابها الشخصي، خاصة أنه يجيد اللغة الإنجليزية مما سيسهل التواصل بينهما.

(٨)

- أيَّتُها الإسرائيلية.

- لستُ إسرائيلية.

- راجعي نفسكِ!

أرسلها لي على الفيس ثم اختفى.

صدَمَني كلام صديقي الفيسبوكي بينما كنا نتحدث عن الهوية، هل أنا فلسطينية حقًّا؟ سألتُ نفسي؟ حين ولدتُ كانت جنسيتي أردنية، لأنَّ الجنسية الفلسطينية لا تُمنَح لحملة هوية القدس، فهي صادرة عن وزارة الداخلية الإسرائيلية، ولكنَّ جواز سفري أردنيٌّ، وأحمل كذلك جواز سفر إسرائيلي مؤقت كحال كل حملة هوية القدس.

من هو الفلسطيني إذن؟ هل هو الحاصل على جواز سفر فلسطيني؟ أنا لا أحمله! هل الفلسطيني في مخيمات الشتات، فلسطيني بالوراثة؟ أم أن هناك أسباب أخرى تستدعي فلسطينيته؟

زوجي رغم أنَّ هويته وجوازه ودماءه كلها فلسطينية، لكنه كان إسرائيليَّ الانتماء والفكر والهدف.

كلُّ ذلك، كلُّ هذه الأفكار دفعتْني لصناعة بطلَيْن جديدَيْن في روايتي: عربيٌّ وهابيٌّ سعوديٌّ، يحبُّ يهودية أمريكية.

الاستثناء الثالث:

وضع فهد يده بين دفتيْ المصعد، مِمَّا أتاح لتلك الشابة اللاهثة، بالدخول. ابتسمت له شاكرة، ثم استدارت مُواجِهَةً الباب، أرادتْ ضغط زرِّ الطابق الثالث، فلاحظت أنَّ الإشارة مضيئةٌ حيث ستصعد.

كان في المصعد خمسة أشخاص وكان فهد يقف خلفها مباشرة، شعر بخَدَرٍ لذيذ وهو يغمض عينيه و يشمُّ عطرها الهادئ يملأ أنفه، لم يعتدْ بعدُ على رائحة العطور المنبعثة من الفتيات، بل لم يعتدْ على وجود الفتيات في كل مكان، من حيث جاء، بلاد الرمال، كان الاختلاط غير مسموح والأنثى الوحيدة التي يخالطها هي أمه أو أخته، أو حين يتزوج... فزوجته.

فتح عينيه ببطء وابتسم، تأمَّل شعرها المنسدل على ظهرها، هي ليست قصيرة، لكنه طويل جدًا، كان بنطالُها الأخضر الضيِّق يمنحها من بعيد قوامًا طويلاً خادعًا، مع قميص أصفر باهت بخطوط خضراء رفيعة، ضيِّق عند الخصر، كانت كلاسيكية، بخلاف أغلب فتيات الجامعة الموشومات، بأزيائهن الغريبة، وشعورهن ذات الألوان غير التقليدية، مِمَّا جعله يظنها

طالبة جديدة، حاول تخيُّلها بعد سنتين كيف ستبدو، فابتسم لِمَا رسمه في خياله.

تلمَّس خدَّه لا شعوريًّا وهو يتأمَّلها، منذ مدة طويلة، منذ أيام المراهقة لم يتلمَّس خده، كانت تلك عادة لا شعورية رافقته منذ ذلك الحادث، كلما نظر إلى فتاة تثير فضوله، وهنَّ قليلات، أغلبهن يراهن على التلفاز فقط خِلسة.

كان ابن تسع سنوات، حينما جاءت عمته لزيارتهم مع ابنتها الصغيرة، أراد أنْ يرى القلوب تدور حول رأسه في المرآة لو قبّل خدَّ فتاة، كما فعل القطُّ الشهير توم مع قطته في حلقة البارحة.

لكنْ بدلاً مِن ذلك دارت عصافير دائخة حول رأسه، لم يرَها لكنه شعر بقوة الصفعة من أخيه حينما رآه يفعل ذلك، على غفلة مِن الأم، كانت تلك المرة الأخيرة التي يرى فيها فتاة بشكل مباشر سوى أمه وأخواته، تناقشت الأسرة وأقرَّ بذنبه وحُكِمَ عليه بأنه صار كبيرًا كفاية ليعتزل مجتمع الفتيات كما هي العادة في بلاد الرمال.

في المصعد تحسَّس خده، متذكرًا الصفعة ونسي أنْ يتحسَّس قلبه. ليته فعل!

توقَّف المصعد عند الطابق الثالث، خرجا معًا، ابتسمت له ثانية، فبادلها الابتسامة، شاكرًا جمال الصدفة، مشيا معًا باستغراب بالاتجاه نفسه، "هل أنت ذاهبـ/ ـة؟"

ضحكا معًا، حينما خرج السؤال منهما معًا، قالت إنها ذاهبة لزيارة بروفيسور ديفيد بيلانسكي، يا للإبداع! قال لنفسه، وأنا ذاهب لرؤيته. عرَّفها بنفسه لكنه لم يجرؤ على مدِّ يده للمصافحة، لعل تصرُّفه ذاك جعلها تكتفي بذكر اسمها الأول كتعريف بنفسها.

لم يطلْ بقاؤها في المكتب، تعّلم فهد أنَّ السيدات أولاً في أمريكا، في بلده ما كان ليكون ذلك، فهن أصلاً غير موجودات.

أنهى ما يريده وخرج، تلفَّتَ حوله، كأول ردة فعلٍ بعد خروجه، لا يعرف عمَّ كان يبحث، لو تحسَّس قلبه لعرف!

في المرة الثانية التي رآها فيها كان الوقت العاشرة صباحًا والجو منعش، كانت تلبس بنطالاً أبيض، وقميصًا خفيفًا فضفاضًا أكمامه واسعة، بمربعات زاهية من ألوان متعددة، تحته فانيلا بيضاء، مرآها جعله يبتسم، مظهرُها انعكس في قلبه بياضًا ذكَّره بالملائكة في الرسوم المتحركة.

في تلك المرة، أقبلت هي نحوه كأنها تبحث عنه، مدَّت يدها مُصافِحة، قالت بلا مقدمات: "أنا تامّي، هل ستحزم الكثير من الأغراض؟"

- عفوًا، لم أفهم!

- ستأتي لتعيش عندنا وأنا هنا لأساعدك، أخبرني أبي بذلك بعدما اتفق معك على ذلك. عرفتُ أنه أنت، أبي أخبرني بعدما خرجت من مكتبه يومها

واتفق معك، دخلت بعدك مباشرة، أتذكر؟ كما أنني عرفْتُك من لهجتك الأمريكية الرديئة.

ثم ضحكت ببراءة، كان لا يزال مندهشا وغير مُستوعِب للموقف، شعرتْ بذلك، فأعقبت: - - والدي بروفيسور "ديفيد بيلانسكي."

فتح عينيه دهشة:

- والدك؟ أوه! لم أكن أعرف.

للمرة الثالثة، شكر تلك الصدف اللطيفة، تلفَّتَ حوله كأنه يبحث عن ساحرة طيبة تدبِّر له ذلك، لم يعرف لِمَ شعر بكل تلك السعادة، لو سأل قلبه لعرف!

***

توقفتُ وقد أصابني شعور مزعجٌ كحرقة المعدة، لكنه كان هناك، حرقة في الدماغ، ذلك مؤشر على انشغال البال بفكرة بائتة لم تهضم تمامًا بعد.

بدأت أستعيد شريط أفكاري، لا بُدَّ من مواجهة مع النص، إذ إنني الآن قد تعلَّقتُ بالشخوص ولم يَعُدْ بالإمكان إعدامهم، صرتُ كأيِّ قارئ متشوقة لمعرفة ما سيحصل معهم لاحقًا، أريد معرفة نواياي المبيَّتة تجاههم، ومعرفة مدى سطوتي أو سطوتهم عليَّ، فقد بتُّ أشعر أحيانًا أنني أفكر في "جاك" على أنه تجسيدٌ للضابط الإسرائيلي الأربعيني، و"راشيل" لا أراها إلا تلك السكرتيرة الروسية، ومازلتُ غاضبة، غاضبة جدًا لأنَّ زوجي الخائن

خدعني خديعة كبرى، بل ومن سوء طالعه معي أو من سوء طالعي أنني لم أواجهه مباشرة قبل النهاية.

آه يا زوجي العميل! في قلبي خناجر كثيرة تعطب فرحتي، وفي صوتي رعد شديد يبحُّ حنجرتي، وفي صمتي دبابيس توجع ذاكرتي، وكم أودُّ لو أردُّ لك كل هذه الهدايا التي منحتني!

(٩)

صباحًا، بل بعد الفجر مباشرة، كانت الحافلة تنطلق إلى سجن مشفى الرملة، ذهبنا أنا وخطيبي الذي قرروه لي، وأمي، لزيارة أبي.

كانت روائح الصباح الندِيِّ، مختلطة بالأطعمة، وبهمسات الركاب يقرأون آياتٍ من سورة "يس" كدعوات للتسهيل، مختلطة بصوت القرآن المُتصاعد من مُسجِّل الحافلة، يصنع لي مزاجًا فريدًا، متناقضًا مع شعوري كلَّما التَفَتَ خطيبي من المقعد أمامنا يسألني إن كنتُ أحتاج لشيء آكله أو أشربه الآن، وطوال الطريق أجبتُ بالنفي، مكتفية بالبسكويت المالح والماء، حتى وَرِمَتْ معدتي من ميوعة الخليط فيها.

ورغم أنني من حملة هوية القدس، إلا أنَّ خطيبي أصرَّ على ذهابنا بالحافلة التابعة للصليب الأحمر، مع مُستصدري التصاريح من حملة الهوية الفلسطينية، حيث يتوافر الأمان الجماعيّ، كما يمكِّنه ذلك من مرافقتنا طوال الطريق.

تأمَّلتُ شعره الأشقر، كان ناعمًا، حليقًا تمامًا كالجنود، سألتُ نفسي: "هل سيكون أسوأ من زوجي السابق؟ أعتقد أنني يمكنني أن أتقبَّله إنْ رسَّختُ في ذهني فكرة أنه ليس في الإمكان أسوأ مِمَّا كان، لا أظن أنَّ أحدًا يمكن أنْ يكون أسوأ مِن خائن كاذب، فهو بهذه الحالة وَهْمٌ أنيقٌ لشيطانٍ يلبس أجنحة ملاكٍ قتلَه في يوم ما."

التفتُّ إلى أمي قائلة همسًا، وأنا أشير بعيني إلى الشاب:

– ما رأيك فيه؟

– قلبي مرتاح له، ربنا يهنِّيكم ببعض ويسعد أيامكم.

– لكنني لا أنجذب إليه.

– عليك أنْ تميِّزي الشرفاء لتتمكَّني مِن الانجذاب إليهم.

غُصْتُ في مقعدي، بعد كلامها القاسي، وعيوني مفتوحةٌ دهشةً لهذه الحكمة بالغةِ الأثر! نظرتُ إليها بطرف عيني، وصمتُّ، كانت الشمس قد سطعت وبدأت تُجبِرُني على الوضوح، لكنني انزعجت من إلحاحها فسحبْتُ ستارة النافذة، وأغمضت عينيَّ، وسرحت في أبطال روايتي، وشعرت لحظتها أنني أشتاق للحديث مع صديقي الفيسبوكي، ليتني أملك جوالاً حديثًا، لكنَّ جهازي لا يُسعِفني بالتطبيقات المطلوبة للفيس وغيره.

فكَّرت في كلام صديقي الفيسبوكي حين أرسل لي رأيه فيما قرأ:

"سيدتي، لن أجاملك فيما تكتبين، فالأمر لا يحتمل أنْ أقول للنرجس:

"يا أحمر الخدَّين!" لا أدري بداية كيف يجرؤ كثير مِن الناس على أنْ يتبجَّحوا بأنهم سينجزون رواية رائعة، حتى قبل أنْ تخطَّ أياديهم سطرًا مِن روايتهم المزعومة. أنا أخاف أن أقول: سأكتب رواية، وتتقاذفني الشكوك دومًا حول ماهية الرواية، كما أنني أعتقد أن الرواية رمالٌ متحركة يغرق فيها من لا يجيد جغرافيا الحياة، وتاريخ النفوس.

إنَّ كتابة ألف خاطرة أهون عليَّ من وضع عنوان لرواية فضلاً عن كتابتها؛ إذ كيف سأفضُّ تشابك الأحداث؟ بل كيف سأربط خيوطها قبل فضِّ بَكارة علاقاتها؟ الرواية نثر، وليس أيَّ نثر؛ إنه نثر يستدعي مزيدًا من الكلام، وأنا أجيد الاختزال، وأكره الثرثرة، لذا أهرب للقصة القصيرة وللشعر.

أما بالنسبة لموضوع روايتك، فأنا أدعوك لأمرين: أولهما، أنْ تدركي أنَّ الرواية هي الحياد في السماح لكل الشخوص بتبني كل الآراء؛ ما يروق لك وما يخالفه من رأي، بحياد تامٍّ، وعليه يأتي ثانيًا؛ فنحن لن نظلم الإنسان اليهودي كما ظلمنا هو في رواياته."

كنتُ قد اقتنعت بكلام صديقي الفيسبوكي، الإنصاف أمر سام حقًا، أذكر أني حرَّكت أبطالي في هذا الاتجاه، لكنني حين وصلنا مستشفىً سجن الرملة، اعتبرت الإنصاف في حالتي أمر سامٌّ للغاية.

الإجراءات مشددة، وكأنَّ مُقعَدًا أو مصابًا بورم قد يهرب، أو يدير عملية من عبر نقل الدم، الروائح غير لطيفة، والحشرات تملأ المكان، والغرف ليست معزولة لجلب الهدوء.

تصاعد قلقي على أبي، إذ كيف يتلقّى علاجه وسط هذا الكم الهائل من الإهمال الطبي، والتشديد الأمني؟

تمَّ تفتيشنا بدقَّة عدة مرات، حتى شعرت بمهانة لم أشعر بها من قبل، المجندات يفتشن أدق تفاصيلي، يقلِّبن أيديهن بخفة في ثنايا ثيابي وجسدي، وكأنني دمية يقلِّبنها بحثًا عن لُغم متفجر، تمرِّر المجندة يديها بخفة على صدري، ثم تهبط بسرعة إلى خصري، وتلفُّ يديها حول ظهري كأنها تعانقني، وتأمرني برفع يديَّ إلى أعلى، كم أكره الأوامر! لكنني أمتثل، فهدفي زيارة أبي وهذا جزء من الثمن، وأنا أكثر مَن عليه دفع ثمن ما جرى.

أسرحُ في أبي قليلاً مُحاوِلَة تصوُّر حاله التي وصفوها لي، مهَّدوا لي بالكثير حتى أتماسك حين اللقاء، المرارة تعتصرني شفقة وذوبانَ قلب على أبي، هل سأسامح نفسي يومًا، تهدَّلت شفتاي تهيؤًا للبكاء، لكنَّ المُجنَّدة لم تُتِحْه لي، فقد شعرت بيديها، نظرت فوجدتُها تُقرْفِص على الأرض تفتش بين فخذيَّ بطريقة مستفزة وفي عينيها نظرة ساخرة سخيفة، كدت أركلها برجلي، هاي! أنت هل أنت شاذة جنسيًّا؟ مارسي شذوذك بعيدًا! لكنني صمتُّ واكتفيت بتحريك ساقيَّ قليلاً للخلف.

نظرتُ إلى أمي، يتعاملن مع أمي بجفاء وقسوة لا يَليقان بعمرها ولا بأوجاعها، خطيبي لا يبالي، نظرت إليه بطرف عيني، كان يتعامل مع الموقف كأنه معتاد، أو كأنه قد أُعِدَّ مسبقًا لمثل هذه المواقف، لا بد أنه يعرف كيف تجري الأمور هنا أكثر مني.

فتشوا كلَّ أغراضنا، ألقوها أرضًا، وعاثوا فيها خرابًا، كانوا كمَن يفتش عن إبرة في كوْم قَشٍّ، الملابس والطعام، أتلفوا بعض الأطعمة، ثم لَمْ يتكلَّفوا عناء إرجاع شيء لمكانه، أَمَرونا بلمِّ الأغراض عن الأرض وإعادتها إلى مكانها.

صوت امرأة تصرخ، التفتنا جميعًا، أصرَّت أن تُدخِل لزوجها بدلة رياضية، والجنود يرفضون، بحجة أنها مُبطَّنة بشَبَكٍ داخلي أبيض، وهذا ممنوع أمنيًّا، يوضِّح لي خطيبي، أن الشَّبَكَ يسبِّب لهم هوسًا، يخافون أن يحتوي على أمور مهرَّبة كإبرة أو خيط يستخدمها السجناء في صنع بعض المشغولات اليدوية، هم يزعمون أنَّ الإبرة خطر، لكني لا أدري حجم خطر الإبرة أمام رصاصةٍ عابرةٍ للجسد.

مع تصعيد المرأة وإصرارها، في لحظة غضب، سحبتِ البدلة من يد الجندي، ودفعته، فأُغلِقت البوابات وتمَّ حبسُنا حيث نحن وإيقاف كل عمليات التفتيش. كانت عقوبة جماعية.

الجنود ينظرون إلينا من خلف البوابة، يتغامزون ويضحكون يجيئون ويذهبون ولا يبالون بالحرِّ الذي بدأ يشتدُّ فوق رؤوسنا ولا بتَوْقِ الروح للقاء الأهل، ولا بالمسافة التي قطعناها، بدأ الناس يعاتبون المرأة ويحثونها على التنازل عن البدلة وتسليمها للجنود، تحتجُّ بأنه ليس عندها غيرها، بل إنها حصلت عليها كهدية لزوجها إذ لا تملك ثمنها، وأنها لم تكن تعرف أن

هذه النوعية ممنوعة، يُحوْقِل بعضهم، تحثُّها النساء على طلب العوض من الله، وإحضار أخرى له لاحقًا مع أيِّ زائر.

تنظر في البدلة بحرقة، ثم تقول بعد تردد: "والله لا يَجِدُ ما يلبسه، هو مقيم في المشفى منذ ست سنوات، بداية أصيب برصاصة قريبًا من العمود الفقري، عانى من خَدَرٍ في ساقيْه، وكل ما أعطوه إياه مسكنات، ثم تفاقم وضعه فلم يَعُدْ قادرًا على المشي، وأصيب بماء متجمِّع في الساقين، ثم زاد وزنه جدًا، ثم هبط فجأة وبدأ يعاني من حرقة في المعدة، استفرغ الدم، لم يبالِ به أحد، قالوا مجرد برد، وأعطوه ثانية مسكنات، لكنَّ الحالة تفاقمت، نقلوه إلى المشفى، كان التشخيص في كل مرة خاطئًا، إنه يحتاج ملابس دافئة بشدة مع اقتراب فصل الخريف.

نظر الجميع إليها بحزن، كأنَّ كل واحد منهم يودُّ لو يقول قصة قريبه ومعاناته، كلنا في الهم شرق، فزعتُ، خوفي على أبي وعلى حاله.

إحدى الأمهات، كانت كبيرة في السن فعلاً، اقتربت من السيدة، مادَّةً يدها بمَنامة، وقالت:

- يُمّا، هذه بيجامة احتياطية أحضرتها لابني، تكفيه واحدة، وسأرسل له أخرى، خذيها وسلِّكي الموضوع.

أخذتْها بلهفة، وعانقتها كمن تضع فيها رائحتها قبل أن تُقدِّمها لزوجها.

تقدَّم بعض الرجال من البوابة، كلَّموا الضابط، وأُعيد فتح البوابات وسُلِّمت البدلة الرياضية، أكملوا التفتيش، إذ كان يجب أن نعبر بوابات إلكترونية فاحصة، كبوابات المطارات، ثم تمرُّ حقائبنا جميعًا بآلات كشف.

الزيارة لمدة ساعتين، والطريق مع التفتيش استمرَّ ست ساعات، يعرفون جيدًا أننا ولو تضاعف الوقت وتضخم النهار سوف نظل أوفياء للزيارة، لذا فنحن ندفع ثمن الفرحة البسيطة مقدَّمًا دومًا.

(١٠)

أبي!

هتف قلبي، قبل فمي بها، أبي، ولم أقلْ غيرها، وبقيت أردِّدُها طوال وقوفي بجانب سريره، كان نائمًا، فاقدًا الوعي، حالمًا، في عالم آخر... لا أعرف بالضبط، لكنه كان وادِعًا، حُبِّي الأول وحصني الأمكن، نظرت إلى موضع يده اليمنى المقطوعة والملفوفة بالشاش الأبيض، أين يد أبي المقطوعة لأقبِّلَها؟ كيف سأُقبِّل يد أبي؟ وكيف سيأتي يومٌ يحضن فيه وجهي بكلا كفيه؟ هاتوا كف أبي، ففيها ذكرياتي والحنين.

كفُّك الخشنة يا أبي، أرقُّ من أكُفِّ النبلاء المُترفة، كَفُّك يا أبي فلسطينية تزرع الزيتون وينحتها شقاء عجن الخبز بشرف للصغار، كفك يا أبي جزء من فؤادي فماذا سيحلُّ الآن بفؤادي؟

أبي... وبقيت أردِّدُها، ودموعي تتجمَّد على شرفة عيني فلا هي تتدلَّى على خدي ورودًا شفافة، ولا هي ترتدُّ إلى مكامنها بذرةً لا غصن لها، بقيت دمعتي معلَّقة في محارة عيني كحبة رمل تؤذيني ولا تكتمل لؤلؤة.

أبي... وخدُّك؟ كيف سيصافح خدي؟ خدك جرح يصافح جرحي للأبد.

لم أشعر بيد خطيبي التي أخذت بساعدي يُجلِسني على الكرسي، بقيت محدَّقة في أبي، لا أجرؤ على لمس جسده بجسدي، ولا أقدر على رفع عيني عنه.

بقيت، ولا أدري كم بقيت معلَّقة مثله بين حياة وموت، لا أشعر بما حولي،، لم تكن لغة الأجساد ممكنة، واستوى صمتي ونطقي، غير أن روحي ودَّتْ لو تتغلغل في روح أبي لتغمرها بما عجز عنه جسدي، لكنها لا تعرف أي طريق تعبرها إلى هناك، فتفتحت كل شبابيك روحي حتى آخر مداها تمدُّ نورها إلى الأعماق هناك، حيث روح أبي، ووجدَتْ أخيرًا طريقها للخروج بمدامعي فانسابت دافئة متتابعة ملهوفة صامتة كعزف كمان حزين تتماوج نوتاته بين حنين ينتحب ووجع يلتهب، كان حزني أنيقًا، لا صخب فيه، ولا ضجيج لكنه أرهقني جدًا، حتى نبَّهني خطيبي وأمي إلى أن موعد الزيارة انتهى، فزعت وفجعت، لم أُنْهِ حديثي مع أبي بعد، خَلّوني معه قليلاً فقط، حضنتني أمي بقوة، وسحبتني لنخرج، لا أدري ماذا حصل، لكنني بقيت أردد كما قيل لي لاحقا: "سامحني يا أبي... سامحني يا أبي... سامحني لأجل الله!"

بقيتُ طوال الطريق فارغة الفؤاد ساخنة الدمع، عازفة النظر عن كل ما يحيط بي.

وصلنا البيت وقد أنهكني التعب، فقد سافرت سفرين: سفرَ جسدٍ للمكان، وسفرَ روحٍ للامكان حيث روح أبي أناجيها، عاد جسدي وبقيت روحي معلَّقة هناكً.

نمت في فراشي كمصابة حرب، أو كجثة هامدة، لا أقوى على التواصل مع محيطي بشيء.

في اليوم التالي، استيقظت على ضجيج الصغار في بيتنا، عرفت أن أولاد أختي وأخي عندنا، ولا بُدَّ أنَّ عروس أخي عندنا كذلك، كل العائلة جاءت تتسمع أخبار الزيارة لتطمئن ولو بالقليل، لم يكن لي مزاج أو طاقة لرؤية أحد، أو الخضوع لتحقيقاتٍ أو نظراتٍ فضوليةٍ، خاصة مع شعوري المُضني بالذنب.

بقيت في فراشي معلَّقة بين الشهيق الزفير، شعرت أنهما الشيء الوحيد المنتظم الذي يثبت أن جسدي حيٌّ وبخير، فالموتى يسمعون أصوات الآخرين في بدايات رحلتهم الطويلة إلى العالم الآخر، لذا فأصوات الصغار ليست دليل حياة، بل لعلها وهمٌ يَختلِقه الجسد الذي يرفض فكرة الموت مثلاً.

كانت الكآبة قد عاثت بكياني واقتاتت عليه، حتى غدا خواءً مِن أيَّة طاقة لفعل أيِّ شيء أو الشعور بأيِّ شيء أو التفكير في كل شيء، كأنني استنفدت البارحة كل رصيدي من هرمونات السعادة وشحنات المقاومة.

طرقٌ خفيفٌ على الباب، لن أجيب، ولو فتحوا الباب سأَتَناوَم.

وفعلاً فُتِحَ الباب بتلطُّف وهدوء، فأغلقت عينيَّ قبل أن أعرف القادم، سمعي المرهف لم يلتقط أيَّ ضجيج، كأنَّ القادم يحبس أنفاسه كيلا يوقظني أو يزعجني بها. خمَّنت الزائر، فليس بحنان أبي إلا أخي الكبير.

جلس القادم، بخفة على طرف سريري، ولعب بشَعري، وهمس:

- حنين...

إنه فعلاً صوت أخي الكبير، بقيت على حالي كالنائمة، لكن تَرْبِيتَهُ على شعري، أثار مواجعي ففضحني دمعي، ودون أن أنطق بحرف، استدرت بجسدي نحوه وحضنت خصره وأنا ما زلت أغمض عينيَّ، فرفعني قليلاً إلى صدره، وربَّت على شعري وظهري قائلاً:

- استهدي بالله، أنت أقوى مِمَّا تظنين.

فتحت عيني لحظتها، ودموعي تسيل، وقلت فجاء صوتي مرتجفًا:

- أبي، لو رأيت حاله! أنا السبب.

ثم انفجرت مجددًا بالبكاء ودفنت رأسي في صدره لا أقوى على الكلام أو التنفس أو المواجهة.

حتى أفرغت ما في نفسي من سموم الهموم، أبعدني عنه بلطف وهدوء، وابتسم لي، طالبًا أن أقوم من فراشي، وأغسل وجهي وأعود إليه لأنه ينتظرني

في غرفتي، لأبحث له عن قميص بدل الذي أفسدته بالماء والملح، أيْ دموعي وأشياء أخرى لا يفعلها إلا الصغار، قائلاً: "كل مَخْرَج مِن وجهك كان يبكي ويسيل على قميصي"، فابتسمت رغمًا عني، وقمتُ وفعلت ما طلب، ثم جلست بجانبه بهدوء.

هذه المرة لم يحضنني، أخرج سيجارة ونفثها، وسألني:

- كيف حال المحروس؟

- من تقصد؟

سألت بدهشة، غير مُتوَقِعةٍ الحديث في مجرى آخر.

- العريس الميري.

لم أتمالك أن أجشهت بالضحك، فقد كان ضحكًا موجعًا إذ خرج مع وخزات الضمير.

وكان أخي يقرؤني كما يقرأ روحه، فقال:

- لا تلومي نفسك للضحك، اضحكي، الله يريدك أن تضحكي، لذا خلق لك وجهًا لا يليق به الحزن والبكاء.

تنهدت، فلم يسمح بأن أعقبها بكلمة، وقال:

- في ثنايا الشر يُطوى الخير، لو أجدنا البحث، كل ما يجري وجرى يمكن الاستفادة منه بالرضا والصبر.

- ويد أبي؟

صمت طويلاً كأنه يسرح في أمر ما، إذ زمَّ شفتيه، وضم عينيه، وأخذ نفسًا طويلاً مِن سيجارته، ثم قال:

- بعد زواجك من الخائن، قال لي أبي مرة وهو يبكي: "ليت يدي قطعت قبل أن أوقِّع على عقد قران أختك وأرميها لهذا الرجل." كان يتمنى فعلاً قطع يده والتخلص منها، وكأنها يدٌ خائنة. هل أكون قاسيًا إذا قلت إن الله حقق أمنيته، وشعر الآن -بيقيني وحسب معرفتي به- أنه كفَّر عن ذنبه حين سمح لك بالزواج من ذلك الرجل؟

صمت قليلاً ثم قال لي كلامًا كالتعويذة ألقاها عليَّ، ففعلت بي فعل السحر على مر الزمان، وللآن:

- حنين، سمَّاك أبونا حنين لتكوني حنينه لغد أجمل وقادم أفضل، لا لينظر من خلالك للوراء، ما مرَّ به أبونا في حياته، مِمَّا لا تعلمينه أو لم تعيشيه كبير وصعب، لا تقلقي على صموده، لكنْ ليكُنْ لك من اسمك شغف الآتي لا أطلال ما مضى.

كلماته التي غسلتني كما غسل الماء البارد جراح النبي أيوب، صفَّت مزاجي المعكور وسكَّنت دمعي الراكد، فقمت وغسلت وجهي ثانية، في حين سبقني إلى جلسة العائلة، ويبدو أنه أوصى الجميع بعدم التحدث معي حول الزيارة أو أيِّ موضوع حساس، فكانوا كالملائكة يتهامسون لي بما يسرني، وكالورد يفوحون بما ينعش فؤادي.

(١١)

"سامحتكِ يا أبي، لستُ غاضبًا منكِ، انتبهي لنفسك، خطيبك بخير، انتظروني، واحذري المجهولين."

استيقظت من نومي، ووجه أبي الباسم، وصوته العميق يرنُّ في أذني، حلم بديع انطبعت كلماته نورًا في روحي، استيقظت وكأن روحي التي بقيت معلَّقة عند أبي قد زارتني في منامي ورَدَّها إليَّ بعد أن حمَّلها حلمه.

قمت خفيفة كحبات اللؤلؤ، مشرقة كقافية القصيدة، قوية كجدران المعابد، وكلمات أبي ترنُّ في أذني، الحلم أشد وضوحًا من أصوات المآذن، غسلت وجهي واتصلت من فوري بأخي، أخبره بالحلم، فهنأني، أنا واثقة أنه كان يبتسم هناك على الطرف الآخر، لكن تبًا للتكنولوجيا فهي تُجرِّدُ كل شيء، إنها ليست حلمًا! لعل الأحلام أكثر قربًا من أيِّ شيء، لأنها تُقذَفُ في أرواحنا مباشرة بلا وسيط.

فتحت اللاب، وأول شيء فعلته، بعد الحلم أن نظرت في آخر ما كتبت من روايتي:

مراسلات:

"كانت من راشيل تقول فيها:

" عزيزتي آنا : سألتني إن كنت سعيدة أم لا.

الآن أعطيك الجواب. أنا سعيدة جدا لأنني يهودية مؤمنة تخدم وطنها بإخلاص، لقد قدم لي هذا الوطن الكثير، لقد خلصني من مرارة الفقر في الغربة، وحولني إلى إنسانة مثقفة تتكلم أربع لغات. أنا سعيدة وأتمنى لك أن تتحولي إلى يهودية مخلصة تقف في وجه الظلم والطغيان الذي لحق باليهود، مؤمنة بحق العودة لأرض الميعاد، هذه الأرض التي أنقذت آلاف اليهود من هولوكوست جديد كاد يفنيها."

شعرت آنا بأن لديها الكثير لتقوله، كتبت في الحال ردا تقول فيه:

" عزيزتي راشيل،

لولا أنني مخلصة لدياتني لما حاولت الدفاع عنها أمام العالم الذي بدأت تشتد عدائيته لسياسة الدولة الإسرائيلية.

عزيزتي، تتحدثين عن الهولوكوست، سأخبرك أمرا: جدتي لأمي ماتت في الهولوكوست وهربت أمي مع خالتي إلى أمريكا، قبل أن تلتقي بأبي. وقد

شهدت أمي بعينها ما جرى على أيدي النازيين، وقد تعذبت حقا بما رأته! هنا الناس تعرف عن الهولوكوست أكثر مما تعرف عن هيروشيما، بفضل المتاحف الكثيرة.

أنا مثلك يؤلمني ما جرى لشعبنا وقتها، لكن ما دمنا قد ذقنا طعم الظلم، فلماذا نسمح لأنفسنا بأن نتحول إلى نازيين جدد يقتلون الناس؟ لماذا تحولنا من مظلومين إلى ظالمين؟ لماذا سمحنا بأن نتقمص الدور الذي أبكانا دوما؟

مشكلتي مع السياسة الإسرائيلية أنها سمحت بأن يشار لليهود في كل العالم بأصابع الاتهام حول الكثير من المشاكل. لقد فقدنا الكثير من الثقة."

لم يلبث أن وصلها من راشيل الرد التالي :

" آنا عزيزتي،

من يقول إن إسرائيل فقدت الثقة؟ أصابع الاتهام تشير كلها للإرهاب العربي والمسلم المتطرف الذي لا يتوقف عن افتعال المشاكل والتفجيرات بحق الأبرياء. حماس في غزة، وفي الضفة تروع الآمنين وتقتل الأبرياء، هل تدافعين عن علاقات حسنة مع هؤلاء؟!"

ردت آنا:

" عزيزتي راشيل،

أتفهم موقفك، لكن ألا ترين أن أي شخص أو شعب يشعر بتهديد لوجوده وهويته سيتصرف بردة فعل عنيفة للحفاظ على بقائه؟

لقد عانينا من الهولوكوست، فلماذا لم تدفع ألمانيا الثمن؟ لماذا يدفع العرب الثمن؟ لقد عاش جدي لأبي في مصر، ولم يشعر يوما بالفرق، فلماذا يكافأ العربي على حسن الجوار بدفع ثمن ما لا ذنب له فيه لا من قريب ولا من بعيد؟

إن مقولة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" مقولة من شأنها أن تسبب المشاكل حين تكون مغالطة تاريخية كبيرة.

لم يكن مرفوضا أن يعيش اليهودي في فلسطين، فقد شهد التاريخ بوجود كثير من اليهود في تلك البلاد منذ زمان بعيد،لكن أرض الميعاد فكرة دينية بأبعاد سياسية، لم تقبل بأقل من الاستحواذ، من هنا بدأت المشاكل."

اقترح عليك إعادة قراءة التاريخ بعين محايدة فعلا."

وحذفتُه كله، ثم أرسلت إلى ذلك المجهول رسالة أقول فيها:

"كيف تُطالبني يا سيدي بالتعاطف والإنصاف؟ كيف وأنا الضعيفة أُنصِفُ القوي مني؟ ومنذ متى يُطالَب البائس الجائع إلى كسرة خبز بتقديم قلبه ليقتات منه الغني المُتخَم؟

لماذا عليَّ أن أُنصِف الإسرائيلي فلا أظلمه كما ظلمني في رواياته؟ هكذا كانت نصيحتك لي. لماذا أنصف من لم يتكلف عناء الإنصاف؟ وأفْضَل ما فعله أنْ صوَّرني كغبية معتوهة؟ هل قرأت رواية ابتسامة الجدي لديفيد غروسمان؟ كان شديد الإنصاف! بل أكثرهم إنصافًا حين جعلنا نبدو أغبياء حمقى أولاد حرام في أحسن ما جاد به خياله.

الإنصاف خطوة يتقدم بها القوي أولاً ليثبت حسن نواياه تجاه الضعيف الذي ظلمه."

ولم أنتظر ردًّا، فأغلقت جهازي وأعددت قهوتي، واتكأت على حلمي، مسترخية، في الشرفة، حتى قررت أخيرًا أن أتصل بخطيبي لفتح قنوات تواصل، ببعض ثرثرة.

كنت سابقًا إذا اتصل لا أجيب وأتذرع لاحقًا برسالة قصيرة أنني كنت مشغولة أو لم أنتبه، أقنعت نفسي أنني أفعل ذلك لأنني بالكاد أفهمه بثًّا حيًّا مباشرًا، وجهًا لوجه، فكيف سأفهم لهجته على البعد؟!

(١٢)

- هل تكلِّمها في الأمر؟ إنه جدٌّ خطير، وأنا لا أريد لها أيَّ صدمات جديدة، أو لا أريد بمعنًى أدق أن تقع في مصيبة أخرى، لقد وعدتكم بحمايتها، ولولا ثقتي بأنها لا تعرف ولا تقصد لَمَّا كلمتكَ.

بقي أخي صامتًا لا يردُّ، ينفث غضبه زفرات سريعة، ثم قال:

- أنت الآن خطيبها، ولو كلَّمتَها فسيكون منطقيًّا بصفتك الأمنية، لو كلمتُها أنا فقد تشكِّك في مصداقية كلامي، خاصة أنَّ العلاقة بيننا ليست على ما يرام.

- أنا فقط أرجو أن نحلَّ الأمر بهدوء.

- لو تدخلتُ أنا فسوف أتهور.

- لا، سأكلِّمها أنا إذن.

هذا الحوار، لم أعلم به إلا بعد انكشاف الحُجُب، كان لاحقًا حديثَ أُنْسٍ نتذكر به الماضي، هذا الماضي.

وقد أعقبَ هذا الحوار، إذ صدَقَت رسالة أبي في حلمي فاتصلتُ بخطيبي، كما أخبرتكم سابقًا، حينما قررت لأول مرة أن ألاطفه في الكلام، فكان أَثَرُ ذلك أن طلب الحضور إلى بيتنا لبعض الحديث.

استغربت، أهكذا؟ بعض الملاطفة فقط تجعله يهرع إليَّ؟ كيف لو حدثتُه حديث مُحبين؟ عجبًا!

انتظرته ساعتين، خلالهما قررت أن أنفض عني غبار الحنين إلى الماضي، وأثقال الذكريات، فرقصت قليلاً على أغنية هندية صاخبة، ثم قرأت بعض المقالات عن طريق النت، حول موضوع التوعية المجتمعية، إذ إنَّ غدًا هو أول يوم عمل لي في وظيفتي الجديدة، ساعتها خطر لي أن خطيبي قادم ليحدِّثني في شأن الوظيفة قبل استلامها.

حين حضر، كان يحمل معه بعض الموز والمكسرات، فقلت مازحة:

- أتظنني قردًا فتحضر لي موزًا وفستقًا؟

ردَّ المسكين بحرج بالغ، وقد أضفى الأحمر الذي اعترى وجهه الأسمر انطباعًا بالشفقة والرثاء داخلي، ممزوجًا بمسحة ساخرة ساخطة لأنَّ هذا هو خطيبي:

- لم أقصد، أقصد: ليس فستقًا أنه لوز وكاجو مُدخَّن، تذوَّقيه.

ثم فتح الكيس وأخرج بمقدار قبضة يده، ومدَّها لي، فانفجرت ضاحكة، فتلعثمتْ ملامحه لا يدري ماذا يفعل.

- سأحضر صحنًا، بكل حال شكرًا، هات ما في يدك سأجرِّبها في طريقي للمطبخ.

عدتُ فإذا هو على حاله، الكيس في يد واليد الأخرى فارغة على فخذه، وهو على طرف الأريكة لا يرتاح في مكانه.

وضعت كمية في صحن بيننا، وأخذت كمية أخرى وقلت له مشجعة كأنني ألطِّف الجو الذي سحقتُ هواءه قبل قليل:

- طعمها طيب، حماتك ستسرُّ بها، سأضع لها صحنًا.

وكان لكلماتي مفعول السحر، فقد صفا لونه، وانفردت ملامحه بعد كَرْمَشَة، لا أدري هل هي كلمة "حماتك" أم "ابتسامتي"، لكنه كان بهيًّا وهو رائق هكذا، فابتسمت له ثانية، فتشجع وسألني عن شيء، جمَّد ملامحي، ونزع عبث ما كنت فيه:

- روايتك، لماذا تكتبينها؟

صمتت كثيرًا، لكني عرفت أخيرًا بلا شك: إنهم يتجسسون علي، لكنْ... الرواية، كيف عرف عنها؟ لم أخبر بها إلا صديقي الفيسبوكي، صديقي؟ يتجسسون على حسابي إذن!

فقلت بطريقة هجومية وبصوت جاف:

- لن أجيب قبل أن أعرف كيف عرفت عن روايتي.

فأجاب بلا لعثمة (إنه دومًا حين يتحدث في الأمور الكبرى وما يتعلق بعمله، يتحول إلى جندي صارم فعلاً):

- نحن نراقب حسابك، وأنا شخصيًّا المسؤول عن مراقبته لحمايتك. لا تظني أني أفعل ذلك لعدم ثقة بك، لا سمح الله، لكنك ما زلت في دائرة الخطر، وأنت خطيبتي وأنا معني بسلامتك جدًا.

لم يترك لي زاوية أهاجمه منها أو أتهمه فيها، فقد أقرَّ بكل شكوكي بصراحة وبلا مراوغة، وأنا لم أعتدْ على هذه الطريقة. قلت له:

- إذن عرفت عنها، من خلال تجسسك على حديثي مع صديقي الفيسبوكي.

فاعتدل في جلسته كأنه صياد ألقى شباكه ثم لمَّا غمزت صنارته رفع ظهره لجلب الصيد الثمين:

- هذا هو محور الحديث.

- لم أفهم؟

- القضية ليست الرواية بذاتها، لكن علاقة الرواية بهذا الصديق أولاً، ثم مدى معرفتك به ثانيًا.

قلت بكبرياءٍ مُعاندٍ:

- أنا أعرفه جيدًا.

ردَّ بتحدٍ مُخيف:

- ليس لصالحك أن تعرفيه جيدًا!

كرهت تلك المناورات اللفظية، فقلت:

- هات ما عندك بلا مقدمات.

- عليك أن تتهيئي، ولا تتفاجئي.

- لا تخف، مررت بالكثير. (قلتها ساخرة).

ومع ذلك، فقد كان كلامه لاحقًا صدمة لي، رغم ما مررت به، ورغم هاجسي الأمني، ورغم حلمي، ورغم رسالتي التي خرجت من اللاوعي، رغم كل ذلك كان كلامه صدمة ثقيلة عليَّ.

- صديقك الفيسبوكي، الذي شككنا في طريقته بتوجيه رواياتك، واهتمامه بك وبها، وحرصه على إخفاء حقيقته عنك، وموضوعات نقاشه عمومًا، وقائمة أصدقائه جعلتني أتابع رابط حسابه، إنه يراسلك من داخل فلسطين، وتحديدًا من الخليل، وبدقة من عمارة الدبّويا.

رجفت، واصطكَّت أسناني حتى خِلْتُها ستتكسَّر، لم يكن مفاجئًا أن يكون المجهول شخصًا غير موثوق به، فقد حذَّرني أبي، لكن من الدبّويا تحديدًا! حيث أخذني عبد إلى هناك! ثم كيف عرف أبي بالتفاصيل؟ لم يكن مجرد خوف.

كنت مشتتة لدرجة لا تتيح لي إخباركم بكل ما تدافع داخل رأسي لحظتها، ولكني أذكر أن خطيبي أراد تخفيف الأمر عني، بالحديث عن طبيعة عملي، وساعات دوامي، منذ بداية اليوم القادم.

(١٣)

- أخي يا مرآتي السحرية، أخبرني عن رأيك في كل ما سمعته مني؟

- من علامات النضج، أن تواجهي عيوبك وتعرفي الأسباب الخفية الحقيقية لتصرفاتك وردود فعلك، ليست مشكلة أن تزلّي، كلنا نخطئ، لكن جميل جدًا أن تتلمسي أعماقك بشجاعة كافية لتعرفي على الأقل ماذا يحصل حقًا داخل ذلك الدماغ. ما الذي يجذبك للأشخاص السيئين حقًا؟ وما الذي نفَّرَكِ من خطيبك؟ لتقعي أول مرة في زوج خائن، ثم في صديق إسرائيلي، وتهملين بكل برود خطيبًا يفعل المستحيل ليرضيك؟ ويجيد حمايتك؟

- لعلني متسرعة؟ أو أنجذب إلى الكلام المعسول قبل التأكد مما وراءه؟

- أنت تأخذين بالأقوال وتهملين الأفعال، أو لا تنتظرين حتى يثبت القول بالفعل. هذا صحيح.

- أشعر أنني لا أفهم الحياة كما يجب، ولا الناس كما ينبغي، ولا نفسي كما أريد.

- أحيانًا ليس مطلوبًا منكِ أن تفهمي الحياة، بقدر ما هو مطلوب منك أن تعيشيها، أحيانَ أخرى، عليك أن تفكري فيها قبل أن تخطي الخطوة التالية، وبين هذا وذاك نصنع نجاحنا، ونفهم مغزى حياتنا أكثر.

بقيتُ صامتة فترة أتأمل كلامه، أو أهضمه، فقد كان دسمًا، رشف كثيرًا من قهوته وأنا سارحة فيه، وهو يتأمَّلني ويبتسم تارة، أو ينظر إلى الأفق بنظرات لو منحها لي لانتفضت خوفًا من عمقها وحدَّتها، أخي يخصُّني بكل لطفه، ويولِّي الدنيا ابتسامته، شعرت أنني بدأت أفهم قلَيلاً وهو يوزِّع نظراته تلك، مغزى كلامه:

- أترى أنني أخطأت حين كتبت رواية؟ في كل مرة أكتبها تحدث مشكلة.

- ليست المشكلة في الرواية، المشكلة في الهدف منها والظروف المحيطة بها، أن تعيشي ما تحبين، ليس مشكلة، لكن عليك التفكير فقط في "كيف"؛ كيف أنفِّذ ما أحب لأصل إليه بأفضل الطرق. هناك مشكلة كبيرة في حياتك، أنك لا تفرِّقين بين الخيال والواقع، تتخيلين السيء جيدًا، وتصدِّقين نفسك، وتطوين صفحًا عن الواقع وكأنه لا يعنيك، تظنين أن رغبتَكِ بواقعٍ أجملَ، كفيلةٌ بتحقيق ذلك.

سرحت بخاطري في روايتي، أنا رغبت جدًا بإتمامها، كان مخططي مختلف جدًا عمًّا وصلت إليه، هل قادتني راشيل لأصوِّرها ضحية؟ أو أوحى لي الفيسبوكي بذلك؟ أم لعلني أردت أن أجسِّد نفسي فيها؟ كنت أريد قتل تامّي لأني أردت أن أصرخ بكامل قوتي، أنّ ظَنَّ زوجي السابق في تجنيدي مستحيل.

إن التدخلات الخارجية في الرواية أدَّت بي بدل إعدامي للفكرة المطروحة، إلى إعدام الرواية بالكامل.

اعترض أخي أفكاري بقوله:

- أحلامك سيارة سريعة، والأحداث مشاة، عليك أن تتوقفي قليلاً كل فترة لتسمحي للأحداث بالعبور وإلا خسرت كل شيء.

- أنت تتحدث في قواعد عامة أقرب للألغاز، وأنا لا أدري هل يخص الحديث روايتي أم خطيبي أم سوء اختياري؟

ثم استدركت:

- لكنني أثق بأثر كلامك، كما تثق الشمس بنوافذ الصباح، لا بد أن تسمح لها بالمرور وترك بصمتها.

- هل تحبين كتابة الروايات؟

- لا أدري هل وجدت الروايات أم هل هي وجدتني؟ لا أعرف لكنني ما زلت أتشبث بها كما تتشبث سمكة بالماء.

- إذن عيشي ما تحبين، ولا داعي لأن تفكري فيه، اكتبي رواية، لكن كلما أمعنت التفكير فيها ستكتبين، ستتسلط عليك الذكريات فتسطو على عملك. لماذا يجب أن تكون روايتك انتقامك من كل ما مر بك؟ لماذا يجب أن تصير روايتك صرخة؟ ولماذا تصرين على استعجال الحب؟ الذي دفعك إلى اختيار خاطئ هو رغبتك المُلحّة في الغرق حبًّا، فكانت رغبتك هي السيارة التي دهست كل المشاة، أيْ؛ الأحداث التي مرت بك وغفلت عنها عمدًا.

صمتَ قليلاً، ثم أردف:

- لماذا يشكل الحب لك والزواج السريع والرواية هاجسًا؟ إن كان عندك حلم ما فيجب ألا يكون على حساب الآخرين، أو على الأقل يجب أن يكون خطوات متتابعة تصعدينها بهدوء.

يجب أن أذهب الآن، فكري في كل ما قلته.

ثم قال وهو يلملم أغراضه:

- صحيح، لقد حكموا أبي بثمانية أشهر سجن فقط، تبدأ من لحظة اعتقاله، وقد مرَّ الآن شهران.

كان خبرًا جيدًا، لولا أنه ما زال في مشفى الرملة، وما زالت يده مقطوعة، وما زال غائبًا عن الوعي.

لماذا أستعجل في كل شيء؟ لماذا أريد بكل ما أوتيت من رغبة وقوة إيجاد الحب؟ لعلني أهرب بالزواج من بيتنا؟ لكن لماذا لا أتقبل خطيبي الحالي؟

أتذكر حين كنت صغيرة، في الخامسة تقريبًا؟ لست واثقة لكن ذلك كان قبل ذهابي للمدرسة، كنا نائمين، وقد استغرقت في النوم تمامًا، حين استيقظت فجأة على وخزة، وأصوات متداخلة، من بينها صوت أمي، فتحت عيني وصرخت صرخة واحدة قصيرة حين رأيت ذلك الشخص فوق رأسي يقلِّب فراشي، تكومت على نفسي أرتجف، وقد اعتدلت في جلستي كأرنب يقفز في مكانه وقد وقع في الشرك، أسرعت أمي تدفع الرجل بالزي العسكري، ومن خلف كتف أمي رأيت كثيرين منهم يعيثون خرابًا بالغرفة، يفتشون، لا أدري عمَّ يبحثون، خفت كثيرًا يومها على ألعابي، وعلى حاصلة نقودي، فقد وفرت مبلغًا للعيد.

خبأتْ أمي رأسي، خفضته إلى صدرها، تساءلت في نفسي أين أبي، ثم خرجوا، خرجوا وقد سال خوفي على فراشي وبلل ثيابي، قامت أمي بعدما ذهبوا فغيرت ثيابي، وبقيت طوال الليل بجانبي.

كانت كلمة "يهود" تثير الرعب في أوصالنا نحن الصغار وقتها، وأصبحت أمي بعد ذلك كلما أسأت التصرف تقول لي مهددة: "الآن أتصل باليهود كي يأخذوك." فأعتدل في جلستي وحركتي وتصرفاتي مباشرة.

علمت في اليوم التالي أنهم يبحثون عن مطلوبين أمنيين، لا أدري لِمَ فتشوا بيتنا نحن بالذات دون بيوت الجيران، ليلتها أخذوا أبي وأخوتي إلى الساحة الخارجية للبيت، وحققوا معهم.

في مرة أخرى، اقتحموا البيت بعد أن كسروا زجاج الباب الرئيسي، يومها شعرنا بهم، كان رعبًا من نوع آخر، أن نتناول الرعب على جرعات، أذكر أنهم فيما بعد كلما اقتحموا البيت اختفى أبي، سمعت من أمي تقول: "إن أبي الآن من المطلوبين"، سنة كاملة وقتها وأبي غائب عن الأنظار يزورنا ليلاً وأحيانًا يأتي وأنا نائمة فلا أراه، لكنهم في البيت يخبرونني بذلك، كنت أراه حينما يأتي أحيانًا نهارًا في ثياب النساء.

أذكر مرة أنني امتلأت رعبًا، حينما فتحت باب البيت ورأيت ثلاث نسوة يرتدين السواد، إحداهن مدَّت يديها تريد حَمْلي، فركضت نحو أمي أصرخ: "حرامية، حرامية تخطف الأولاد"، لم يكن ذلك سوى أبي مع اثنين من رفاقه.

وأنا في الثامنة، اعتقلوا أبي، وبقي في السجن سنتين، خلالهما صار أخي الكبير مسؤولاً عن البيت، وبدأت أشعر من وقتها أنه أبي الثاني، أو الأول إن تعلق الأمر بمدى تأثيره عليَّ.

حينما خرج أبي من السجن، كنت مشتتة الذهن، بين أب غائب يجب أن أطيعه ولا أشعر برهبة منه، وأب ثان أهابُ غضبه لكنه لا يأمرني بشيء.

خلال تلك الفترة الطويلة من طفولتي، صرت عنيدة حساسة، كما تقول أمي، فهي ترى أنني كنت أكثر نشاطًا وانفتاحًا وأنا صغيرة، وفي المدرسة لم يكن لي رفيقات، إذ كانت تُفرَضُ قيودٌ مشدَّدةٌ عليَّ في اختيار رفيقاتي، كما كان ممنوعًا الحديث في شؤون البيت أمام أحد، وممنوع استقبال زميلات الدراسة

في بيتنا، والرحلات ممنوعة، وتحذيرات كثيرة أتلقاها بخصوص الحديث مع الغرباء أو قبول هداياهم، كلها إجراءات أمنية مشددة، حفاظًا على ألا أصير الطعم الأنثوي الذي يستغله أعداء أبي للضغط عليه ليبوح بأسراره.

ولأنَّ الأنثى دومًا هي النقطة الأضعف، لأنهم أرادوها الأضعف حينما صارت مصدر قلق في كل ما يخص الشرف، ضُرِبَ عليَّ جدار ظاهره حصار وباطنه حماية، فلمست ظاهره ولم أفهم باطنه وقتها.

وبقي الحال كما هو، حتى التحقت بالجامعة، وأمام هذا الانفتاح الكبير كان لا بد أن أقع وأسيء الاختيار، فأنا رهينة أبطال السينما حيث يصورون الطيب وسيمًا دومًا، والشرير أقل وسامة وأناقة.

لقد بَنَتْ ذاكرتي علاقة سيئة مع طفولتي والماضي، فصار كل حاضري ضحية، وآن لي أن أصالح كل شيء وأنهي القضية.

(١٤)

مازلتُ رهينة المحبسين: زواجي وروايتي، وبينهما حبلٌ سرِّيٌّ من حلم رأيته يومًا.

استيقظ أبي من غيبوبته، ولكننا حُرِمْنا زيارته، ومضت فترة العِدَّة، لكننا قررنا تأجيل الزواج لحين خروج أبي، ولحين استقراري في عملي الجديد.

وأعدمت فكرة روايتي، فقد تداخلت مشاعري فيها ومعها، حتى بات صعبًا عليَّ سماع ما تهمس به الشخوص وما تهمس به نفسي، أو تتقمصه، صارت روايتي وكأنها حالة انفصام ذاتي بين ما أنا عليه في الواقع وما يتمناه خيالي الذي كاد يصير مريضًا بالغضب والرفض.

أشعر أنني أعيش حياة مؤجلة الآن، لولا عملي الجديد، لطيفٌ عملي الجديد، مكتبي مريح، أتاح لي فرصة التعرف على الناس بانسياب دون اقتحامات مفاجئة، بدأ بدورات تدريبية حول أهمية التوعية الثقافية، وطرق

التواصل مع الآخرين وفهمهم، كما أعطانا فرصة لاكتشاف طرق جديدة لحل الأزمات، وكيفية التعاون مع المتورطين في مشاكل أخلاقية أو سياسية للحيلولة دون تحويلها إلى أزمة تقضي على مستقبل صاحبها.

عرفت خلال الدورة لَمَ اختيرت لي هذه الوظيفة بالذات، وهي البعيدة عن تخصصي العلمي؛ فما فائدة الفيزياء في كل ما يحدث هنا؟ لولا التجربة التي مررت بها، لأن الفرق بين النظري والعملي هو الفرق بين المعرفة المجردة والتذوق المباشر.

مرت الأيام، فصرت مؤهلة للوقوف أمام جمهور الشباب، وكم استفدت بقدر إفادتي لهم! كنت كالشمس كلما أعطت نورًا أكبر أخذت ظلاً أوفر، كلما حدثتُهم عن كيفية حصول ذلك والوقوع في شرك الابتزاز والفضائح والخيانات، صرت أكثر خفة ونشاطًا ووعيًا لحالي، هل كنت أزيدهم وعيًا أم ازداد وعيًا؟ كلاهما معًا، كعلاقة القبطان بالبحر، كلما تغلغل فيه أكثر، ازداد له فهمًا ولقدراته، ما أخذ مني البحر إلا ليعطيني أكثر، وما أخذ مني عملي ذلك إلا ليعطيني أكثر.

في مرة كنت ألقي محاضرة في مسرح البلدية، حيث استضفنا مجموعة من طالبات الثانوية العامة، كانت أكثر الفئات استهدافًا، قبل دخولهن الجامعة، قليلاً ما تُستهدَف الفتيات الصغيرات، فخوفهن وقلة خبرتهن في الحياة تجعل انكشاف خطواتهن أسرع من قبل الأهل، لذا ومن خلال التقارير التي كانت

تصلني عن طريق خطيبي، كمسؤول أمني، كان علينا التركيز على الفتيات المرشحات للدراسة الجامعية.

ألقيت المحاضرة، وبقيت لِمَا بعدها لمواجهة أية أسئلة فضولية تطرحها الفتيات، رغم أنني من خلال تجربتي بدأت أدرك أن الخطير لا يقال علنًا، فغالبًا مَن تعاني مشكلة حقيقية، تلوذ بالصمت، ثم تحاول الاتصال بي لاحقًا.

كانت الأسئلة من نوع: (كيف نكشف الجاسوس/ ماذا نفعل لو شككنا في أحد ما/ هل يجب أن نشك في الجميع/ لو وقعت فتاة في ورطة كيف تتصرف ولمن تلجأ).

لكنْ لم يخطر ببالي السؤال الذي لحقني خارج قاعة المسرح، وجاء على شكل ورقة قذفتها الفتاة في يدي قبل أن تولي هاربة: (هل يتوب الجاسوس؟)

كدت أصرخ أنادي على الفتاة، لكنني خفت لفت النظار إليها في حال أنَّ سؤالها شخصي، قد أورطها فيما لا قِبَلَ لها به ساعتها، أو قد تكون خدعة منها أو مِمّن أرسلها، قد تكون مجرد مزحة.

كل ذلك خطر لي والورقة في يدي، لكنني لم أستطع استبعاد أيِّ خاطر، أو التعرُّف على وجه الفتاة، فأكملت طريقي وأنا أتفرس وجوه الجميع، وملابسهن، لكنْ لا أثر ولا علامة.

طوال الطريق إلى البيت، فكرت في السؤال، ليس في الإجابة، بل في السؤال نفسه، أتعرفون أيها القراء؟ يجب أن تفكروا أنتم كذلك في فهم السؤال قبل أن تعزفوا سمفونية الإجابات الأخلاقية المثالية.

(هل يتوب الجاسوس)، ترى أيقصد بذلك توبة دينية مقبولة؟ أم توبة اجتماعية مُتقبَّلة؟ (هل يتوب الجاسوس)، هل الحديث عن الرغبة الذاتية أم الإمكانية الأمنية أم مجرد سؤال بمعنى: هل نتوقع من جاسوس أن يتوب إذا ادَّعى ذلك؟ حسنًا الأخيرة تدخل في نطاق محاكمة النوايا وتقبُّل المجتمع.

فكرت والغصة في صدري تلتهب، هل مثل زوجي السابق يتوب؟ هل كل الحالات زوجي؟

صدَّعني السؤال، حتى أخذني وأنا أصعد درج البيت، من محاولة ترجمة وقوف أربع سيارات من ضمنها ميزت سيارة أخي الكبير أمام بيتنا.

لكنني لم أُطِل التغافل، إذ أخرجني من جُبِّ السؤال رنات ضحكات الصغار، وجُمَلُهم المبعثرة بفرح يقولون لي: "جدِّي خرج من السجن"! لم أدْرِ ساعتها أيُّنا يوسف، أنا الغارقة في تفسير الأحلام، أم هو العائد من سجنه قبل شهرين بالتمام، قذفت بحقيبتي وملفات أوراقي، وجسدي كله يرتجف بين مصدِّقة وخائفة من لحظة صدق خائبة، هرعت إليه وعلى باب الصالون وقفت بيني التي رأته في الحلم وسامحها، وأنا التي خذلته ولم تره بعدها.

لقد سامحتني روح أبي، لكن: هل سامحني عقله أو وعيه؟

ماذا أفعل؟ تقدمت بحذر فاستقبلني أخي الكبير، واضعًا يده على كتفي، ووجهه ضاحك طلق، كانت لحظات فارقة كالسباحة ضد التيار مع قدوم موجة خاطفة لا تدري أتنجو منها أم لا.

كان جالسًا وحوله رعيته، والعيون تحدق بي من تحت برقع غضِّ الطرف، يسترقون النظر إليَّ، بينما يتشاغلون بأحاديث عابرة، اقتربت منه، وأنا أرتجف، لم يبق فيَّ ما لَمْ يرتجف، سلمت عليه وأنا أغنى الناس في تلك اللحظة عن مثقال ذرة من انفعال تطفو على السطح، لا أدري هل السبب اجتماع العائلة، أو خوفي من المواجهة، أو لأنني خفت عليه مني ومن طاقتي الهائلة للانفجار في وقت كان يبدو عليه فيه نَزْفُ الوزن وذبول العاطفة، أو لأنني تعبت من كل هذه الدراما التراجيدية في حياتي، فقررت مواجهة كل شيء ببعض الهدوء وكثير من التعقل.

حسنًا، سأعترف! كان خطيبي رغم كل ما ذكرته سابقًا، جالسًا، ولم أشأ أن أبدو أمامه ضعيفة انفعالية منهارة، يكفي ما رآه مني في زيارة السجن، لم أحبب أنه طوال الوقت بارد الأعصاب كلَوْحةٍ باسمةٍ وسط حريق، بينما كنتُ طوال الوقت كعود كبريت يشعله أيُّ احتكاك.

جلست بينهم كضيف يدرك أنه ثقيل، بينما تلاشى وجودي تمامًا في عيونهم، بينما حدقت في الفراغ وأنا عاجزة عن الاقتراب أكثر أو الابتعاد أكثر، وهذا أقسى عقاب يمكن أن تُلْحِقَه بإنسان تدرك أنك تحبه ويحبك.

ثم في وسط محنتي، سألني أبي:

- كيف حالك؟

- الحمد لله، أدامك الله فوق رؤوسنا ظلاً.

قلتها وبالكاد نظرت إليه.

- مبروك الخطوبة، وأخيرًا تعرَّفنا على خطيبك.

تمتمت، بينما صدح بها خطيبي:

- الله يبارك فيك.

ثم أتم خطيبي كلامه، بعد لحظة صمت:

- لم نشأ القيام بأيِّ إجراء قبل خروجك سالمًا بيننا، جرت الظروف أن تكون الخطبة في غيابك، لكنني لن أتم أمرًا من غير موافقتك ورضاك، والأمر إليك فانظر ماذا ترى.

- لا يا رجل، أنا سمعت عنك كلامًا طيبًا، ومواقفك معنا لا تنسى، وفضلك لا ننكره. الله يبارك ويتمم على خير.

لماذا شعرت أن أبي ممتن لهذا الرجل، وكأنه ستر عاره؟ كم كرهت خطيبي الصامت لحظتها، بقدر شعوري بانكماش مفاجئ في كرامتي!

هبط الليل مبتلعًا ظلال كل شيء، فمضى كل إلْفٍ يبحث عن أليفه، مع حالة الفقد الدائمة هذه، لعل هذا ما يثير الوجد في الليل؛ أنك بحاجة ماسَّة لرفيق إذ تستوحش إثر مفارقة ظلك لك، وبقيت وحدي في غرفتي، عارية

من ظلي ومن إلف استتر به، فدسست نفسي في الفراش، وقد عزمت على اقتناص إجازة من العمل غدًا بجانب ظل أبي.

في الصباح الباكر، وقبل شروق الشمس، كنت على الشرفة أصطاد موعدًا هادئًا مع أبي، لكنَّ ارتفاع الشمس خيَّب ظني، خرجت أتململ باحثة عن أمي، كانت منهمكة بعصر البندورة، وعلى الطاولة كيس كبير من الفاصولياء الخضراء، ما الأمر؟

- عزومة؟

- لا، ولكن الضيوف سيتوافدون مبكرًا للسلام، والعائلة كلها ستتغدى عندنا اليوم، عليَّ تجهيز كل شيء مبكرًا.

- ألم يستيقظ أبي بعد؟

- متعب، وهل في السجن نوم أو فراش كفراش البيت؟ لقد استغرق في النوم بعد ذهاب إخوتك مباشرة، وصلى الفجر ثم عاد للنوم، إنه كمن ينفض تعب شهور.

- لقد هزل جسده.

- ما مرَّ به قاسٍ، لكن لا تقلقي، قريبًا يستعيد عافيته بيننا، وإن شاء الله سيرقص في عرسكِ.

ابتسمنا معًا، وأنا أمد يدي لتقطيع الفاصولياء الخضراء، حين أنهيتها خطر لي أن أصنع بعض الحلويات الخفيفة، لأجل أبي.

استيقظ أبي في الحادية عشرة، ولولا ضجيج الصغار الآتين مع أمهاتهم يقتحم أُذُن أبي، ولولا روائح الطعام الشهية تخترق أنف أبي، لنام أكثر.

قام فأسرعت لإعداد القهوة له، مع بعض الحلويات الطازجة، تناولها بشهية، وهو يبتسم لي ويحدثنا عن طعامهم في السجن فقال:

- كنا إذا اشتهينا الكنافة، نحضر شريحة جبن صفراء (هي المتوافرة لدينا من كانتين السجن) مع قطعتي خبز أبيض جاف، نبلل الخبز بالماء، ونضع الجبن في المنتصف ونرش عليه السكر الكثير ثم نتناول ذلك الطبق بالملعقة.

سألته مستهجنة:

- كيف كان طعمه؟!

- كنا نغمض عيوننا، ونتخيل أننا نأكل الكنافة، كان لنا في الخيال حياة، داخل السجن. وكنا إذا استفزَّتنا شهوة اللحم في المقلوبة، نأتي ببعض قطع المرتديلا، نقطعها مكعبات، ونرشها على الأرز، ونتخيلها صينية مقلوبة بحلم القَصِّ الفاخر.

ابتسمت هذه المرة بلا تعليق، قام أبي إلى الشرفة حيث أحبَّ دائماً أن يجلس، ولحقت به، فجلست بجانبه بصمت، كمذنبة سلَّمت سمعها لقاضيها كي يحكم في أمرها.

بادرني بالحديث عن أحوالي ووظيفتي، وخطيبي، لم يكن يهتم بالإجابات، لاحظت ذلك، كان يهتم بي أنا وبنظرتي للأمور وبمدى قناعتي بكل ما يجري، لذا كنت حريصة على إيصال أفضل انطباع له عني.

صمت بعض الوقت، إلا من حمد الله والثناء على عطاياه، ثم قال لي:

- هل أنت بخير؟

فقلت لنفسي: "في غيبوبتك أو غيبوبتي لا أدري، كنت زهرة على جدار معطل فقدت أرضها والهوية" لكنني قلت له:

- لا شيء يجعلني بخير كأن تغفر لي وتستغفر لي.

صمت أبي حتى حسبته لا يغفر إلا إذا متُّ، أو كأنه لن يستغفر لي قطّ، لكنه سألني، وهو يعقد حاجبيه، وقد غضَّن جبينه، فبان هَرِمًا:

- هل زرتني في سجن مشفى الرملة؟

- ألم يخبرك أحد بذلك؟

- كلا، هل فعلت؟

- نعم.

قلتها باستغراب، فما العلاقة بين الزيارة والمغفرة؟ هل يغفر عناء الزيارة ذنبي؟!

- فقد شعرت بك، وقد رأيتني بعدها في حلم أكلمك، وقد كانت الزيارة لي مُعينًا، فكأن زيارتك ردَّتْ لي روحي.

خانني الدمع، وعدت عاطفية، لكنني سمحت لنفسي بكل ذلك، قلت بانفعال:

- وأنا رأيتك في الحلم تسامحني وتبارك خطبتي وتبشرني بعودتك.

صمتنا كلانا قليلاً:

- أبي؟ كيف يحصل كل ذلك؟

- ماذا؟

- كيف تلتقي الأرواح وتعرف قبل العقل أمورًا لو فكَّرنا فيها لحسبنا أننا نتوهم؟

- "قل الروح من أمر ربي"، "ونفخ فيه من روحه"، الروح هي الجزء العلوي النقي الملائكي فينا، وهي خفيفة عكس الجسد الطيني الثقيل، وهو الجزء الحيواني منا.

- الروح خفيفة؟ كوزن الريشة؟

- بل أكثر، كوزن الضوء.

- وهل للضوء وزن؟

- هذا ما قصدته، تخيلي الإنسان فنجان قهوة ساخنة، الجسد هو الفنجان، والسائل هو الدم والماء، والروح هي الرائحة، أللرائحة ثمن يشتري؟ هل يمكن أن تستقلَّ القهوة عن رائحتها؟ كذلك الروح لا تباع ولا تشترى،

وكذلك لا يستقل الجسد عن الروح وإلا صار جثة هامدة. بكل حال، لقد سامحتك منذ تلك الزيارة، وقد كان ذلك في عالم الأرواح قبل لقاء الأجساد.

لقد منحني أبي الكثير مِمّا كان يحيِّرني حول الروح، وعلاقتها بأحلامنا، ولأنني فيزيائية، فقد أخذت كلامه الشاعري أو الديني، لا يمكنني تحديد ذلك كباحثة عن إجابات علمية، وبنيت عليه الكثير مما أذهلني لاحقًا، لكنني عند تلك اللحظة، قررت أن أكمل العزف، بِنُوتَةٍ أعلى، في سمفونية حياتي.

الفصل الثالث

هذا تأويل رؤياي

"أنا على قاب قوسين أو أدنى مِن موتي المُشتهى،

سأكون السِّدرة وستكون المُنتهى."

الفوضى الخلَّاقة هي تلك الريح التي تهبُّ على غرفة إذا شُرِّعتْ نوافذها عنوة، فتقلب كل شيء فيها، وبعد إغلاق النوافذ والنظر في كل شيء ملقًى بما تظنُّه عبثية مؤلمة، وتبدأ بتضَجُّرٍ ترتِّب أوراقك وأغراضك، تلوح لك أشياء ظهرتْ طالما بحثت عنها فلم تجِدها وسط أكوام مكدسة فتأخذك الهمَّة بعدها لإعادة ترتيب مُحكَمة لم تُتَحْ لك من قبل وسط تراكمات نشوةِ الجديد وفقدانِ ذاكرة القديم، لتكتشف أن ما جرى لم يكن فوضى صماء، وإنما فوضى أعادت للأشياء وضوحها ومواقعها الحقيقية.

هذا ما جرى في حياتي، فبعد الذي مررت به، اكتشفت أن الكثير ممَّا فيَّ قد ذاب وسط عجاج الحياة، وآخر جديد اكتسبته لم أنتبه إلى قيمته وطُرق الاستفادة منه، إلا حينما مرَّتْ تلك العاصفة بحياتي فرتبت أوراقي وهيأتُني لِما يجب أن أكون عليه، كما ينبغي لي أن أكون.

كانت المقدمات هَبَّات وهِبات، والإرهاصات تهمس حولي كل حين بثبات، يحدث كل ذلك وأشعر به، وأسير مأمورة أو مخمورة بسحر النداء، أمَّا اللحظة الفارقة فكانت انتقال هذا الشعور من اللاوعي المتخبِّط إلى الوعي المنضبط.

قَدْحُ الشَّرر كان يوم تمدَّدْت على الأريكة مساء، بجانب النافذة المُطلة على الشارع، مُغمِضة عينيَّ، في حالة من التأمل الصوفيِّ المسترخي، بداية فكرت في أنني بخير، وراضية جزئيًّا عن سير الأمور، خاصة أنَّ حلمي ما زال يطنُّ كنحلة في ذاكرتي، لا يفارقني وأنتظر منه جني العسل، ثم استقيت من حلمي بعضَ وهم لِما سيكون عليه حالي، فجمح خيالي في تصورات لذيذة حول مستقبلي البَعيد جدًا، حتى وصلت إلى نقطة بيضاء كأنها آخر الأفق، ومنتهى الرغبة وشدة التوْق، فما خطر لي بعدها إلا الموت الهادئ اللذيذ الراضي، والتهيؤ لحياة أخرى أنتقل إليها وقد خلَّفت ورائي سجلاً حافلاً.

في تلك اللحظة توقَّفتُ عن التفكير في أيِّ شيء، وبقيت على حالة الاسترخاء حتى وصلت إلى حالةٍ تشبه النوم بخفَّتها وما هي بنوم، كنت لا أشعر بشيء حولي، رغم تفتُّح حواسي كلها، صرتُ خفيفة كأني أطفو على

سطح الماء، ولا أدري كيف نادى من الخارج صوتٌ على أبي، فقمتُ من فوري كأنَّ جسدي قد عاد إليَّ أو عدْتُ إليه، أقول لأمي: "لا تجيبي، هؤلاء مخابرات."

دون أن أعرف شيئًا، أو أرى شيئًا بعيوني، ارتبكت أمي، لكنها استجابت لقوة صوت التحذير في كلامي، خاصة أننا معتادون على الخطر الأمني المحيط بأبي، بعدما غادرت السيارة، اعترضت أمي كأنها تلوم نفسها على ما قالته لهم، "لكنَّ سيارتهم عادية، ومظهرهم لا يَشي بخطر، لعلني تسرعتُ، وقد يغضب أبوك من سوء تقديرنا."

أمَّا أنا فلم التَفِتْ لكلامها، ولم أفكر إن كان صحيحًا أو خاطئًا، فعُدْتُ تمدَّدت على الكنبة، مُحاوِلةً استرجاع حالة السكون التي تملَّكتني، فلم أستطع.

حينما عاد أبي بعد ساعة، أخبرته أمي بالقصة كالمُعتذرة، سألها إن كانت السيارة جيب هونداي أسود، فكان منها "أنْ نعم" باستغراب، ثم سألها إن كانت السيارة ممتلئة، فقالت كانوا أربعة، وأخيرًا سألها إن كانت السيارة قد بقيت مكانها مدة قبل أن ترحل، فأجابت أنها بقيت ما يقارب العشر دقائق، وراقبتهم من النافذة يقوم أحدهم باتصال، فهزَّ رأسه، ثم تنهد ينفخ على بلاء يُزيحه، ثم نظر إليَّ نظرة عميقة وقال: "هؤلاء مخابرات فعلاً، وقد تعمَّدتُ الخروج من البيت لأني توقعت قدومهم، خيرًا فعلتِ."

أمَّا أمي فقد انبهرت وبانَتْ عليها كل علامات التعجب التي يطيق وجهها حملها، أما أنا فلم أملكْ لحظتها للأمر تفسيرًا.

في اليوم التالي، ملأت البانيو بالماء، والصابون المعطر، وغمرت نفسي في الماء أرغب بتكرار تجربة الطفو تلك، أنا لا أجيد السباحة جيدًا، لكنَّ أطراف البانيو ساعدتني على انعدام الوزن، بداية كان صعبًا عليَّ الاستغراق والشعور بالخفة التي شعرت بها سابقًا، ثم قليلاً قليلاً، حينما استرختْ أعصابي صار جسدي خفيفًا بحقٍّ، حتى طفا على سطح الماء، وشعرتُني قشَّةً تتأرجح مع الماء بعذوبة، لكنَّ شيئًا كالحدس أو التوقُّع لم يحصل، لم تظهر لي كرة الزجاج البلورية ولم أرَ أبعد من جدران الحمام.

بقيت في الماء على هذه الحال ساعة، حتى قرعت أمي الباب بقوة تطمئنُّ إلى أنني لم ينلني مكروه، ردَدْتُ بصوت جافٍّ، ثم جفَّفت نفسي وخرجت، كانت التجربة كلها جافَّة من أيَّة نتائج سوى البلل.

لكنني كنت سعيدة بهذا الانتقال لمرحلة الوعي بما يجري، ومحاولة تفسيره، فعليه تُبنى أمور كثيرة، هكذا أخبرني حدسي.

جلست على الشرفة أشرب قهوتي، بين شجيرات الريحان، وسار خاطري كالسحاب لا يعترف بحدود، صفتْ نفسي جدًا في تلك اللحظة، وقد أُخِذْتُ بالأصوات اللطيفة للطبيعة، وبالأناقة الفطرية للريحان، وبالتناسق الجميل للألوان حولي، فغرقتُ دون شعور مني عمَّا حولي، ووصلت إلى مرحلة من الانسجام والتصالح أنني قلت لنفسي إنني أسامح كل ما مضى لأعيش بهدوء، فشعرت بسلام داخلي كقنديلٍ في معبد، وانتشاءٍ كفراشة وقعت في

حقل من الزهور، دخلت البيت ثملة أثمايل سُكرًا من فرط ما عبقت روائح السكينة في خلايا جسدي، وقلت لأمي:

- ماذا ستطبخين اليوم؟ فأختي قادمة عندنا.

- لن تحضر اليوم، لم تتصل.

- مع ذلك، ستحضر خلال وقت قصير.

ولم تمر سوى ربع ساعة، حتى كانت أختي أمامنا مع أولادها، تخبرنا أن زوجها سافر للشمال فارتأت القدوم لقضاء اليوم عندنا، وأمي تخبرها ببهجة عن تنبؤي بمقدمها، وأنا في حيرة من ذلك اليقين الذي تلبَّسني.

عندها، هرعت إلى غرفتي، وأخرجت بعضًا من كتبي ودفترًا، وبدأت أسجل ملاحظاتي، فلا بد وأنا فيزيائية، أن أجد تفسيرًا علميًّا لِما يجري، بعيدًا عن لغة أبي الشاعرية أو الدينية حول ماهية الروح.

كنت أشعر أن الروح هي كلمة السر في كل ما يحيط بي، وهي مفتاح الخير ومِغلاق الشر لكل ما مرَّ بي ويمرُّ.

ليست خفَّة الجسد هي التي منحتني هذا الحدس، وأشعلت ليلي بالأحلام، على الأقل ليست وحدها، كل مرة حصل فيها هذا كنت قد أبصرت النور، خلف جدران الجسد وقضبان الفكر الأرضي، كأن روحي تتحرر من جسدي، لكن كيف تتحرر وأبقى على قيد الحياة؟

لم أجد إجابات تقرُّ بها بلابلي، ولكنَّ الورقة في يدي، ورغبة مُلحَّة بالعودة للكتابة تجتاحني هذه اللحظة، أهذا جزء من نداء روحي وتوقها؟ أم هو حتمية الرؤيا وتأويلها؟ لكنْ عمَّ سأكتب؟ وماذا؟ ومن أين أبدأ؟ هذه الرغبة المرتعشة للكتابة كيف أضبطها؟

ألقيت بالورق والقلم جانبًا بضجر، وقد تخلَّيت عن رغبتي البغيضة، فلا شيء يجبرني على القفز نحوها كأرنب يهرب من صياده، كل ما عليَّ فعله هو التوقف عن ملاحقة الفكرة، نظرت حولي بعينين بلا ذاكرة للأشياء، وبلا أدنى اهتمام، تمدَّدْت في سريري بحذائي كنوع من التذمر والضجر، لكنني على بطني انقلبت وجعلت رأسي قرب حافة السرير السفلية، ممسكة بخيوط الشرشف أنسلها قليلاً قليلاً برغبة واضحة للتخريب، كانت طاقتي أكبر من أن أحتويها باللامبالاة.

ثم استلقيت على ظهري فاصطدم رأسي بحافَّة السرير لعدم وجود وسادة، كان ذلك الألم كفيلاً بتفريغ طاقتي الهائلة، شعرت بذلك، شعرت بالاسترخاء بعد الألم، ووضعت رأسي بهدوء على الفراش، وتعلقت عيناي بالحائط، هناك، لأول مرة في حياتي، تحدِّثني الأشياء بوضوح، حين سمحت لها بأن تقول ما شاءت لا ما أمليته عليها من أحكام مسبقة.

كانت لوحة من الكرتون معلَّقة على الجدار تمثِّل لوحة عالمية شهيرة، لأمٍّ وطفلها، يلتفتان نحو اليمين، يحتضن ابنها كلبًا صغيرًا وهي تحضن ظهر الصغير إلى صدرها ويلفُّ شعرها على عجل وشاح أحمر، فكأنه خصل من

شعرها، يبدي أكثر مِمّا يُخفي، عيناهما كانت خُضرًا كزمرد، تلفُّهما رموش كثيفة جعلت العينين كأنهما ألماسٌ يشعُّ.

لم يلفت نظري شيء من ذلك، لعله في البداية فعل، لكنني حين استمعت وأنصتت، همستْ لي اللوحة بما لم يخطر ببالي، فلا أدري أهو خيالي الجامح، أم أن للأشياء لغتها الخاصة التي تتّسق مع دواخلنا.

قرأت في عينيِّ الأمِّ خوفًا وهروبًا، تردِّدُهما عينيُّ الصبي، رأيت الوشاح الأحمر نارًا تلاحق الأم، ورأيت قريةً تحترق بالكامل، وإن لم تظهر في اللوحة، رأيت امرأة وابنها يصرخان يطلبان مني المساعدة، إلى الحدِّ الذي أربكني فلم أميِّز الحقيقة من الوهم، اقتربت من اللوحة، وقفتُ على قدميَّ على السرير وحدقت في عيني الأم، كأنني أتحقق، ولم أستطع أن أُقنع نفسي بأن البريق في عينيْهما ليس انعكاس النيران التي التهمت كل شيء، كنت واثقة مما أرى، أو مما همست به اللوحة لي، هل للجمادات روح؟

جلست وكُلِّي لهفة للكتابة، فكتبت وأنا لا أعرف ما ستسيل به يداي، حين أنهيت الكتابة وجدت قصة قصيرة:

"نقطة وكمان نقطة يبقوا أيه؟"

أجابه زميله: نقطتين!

ولكنَّ الجواب الصحيح كان "نقطة كبيرة"

ما هذه العبقرية؟!

هكذا حدَّثَتْ نفسها وهي تتابع المشهد من المسرحية...

تسلل من بين قضبان دماغها المسلح بالإسمنت الشعب العربي ككل.

وتذكرت تلك الفلسطينية التي صرخت "وامعتصماه!" يا للجرأة الفلسطينية! أنسيتْ أن صوت المرأة عورة؟

تلك الفلسطينية قذفت حمم أفكارها قائلة: "لو أن كل فرد من شعب المليار بصق بصقة واحدة تجاه الستة ملايين من الأسباط لغرقت إسرائيل في بحر اللعاب"

تخيَّلَتْ مليار فم مكوّرٍ يقف تباعًا ومليار رأس مبتلة! ضحكت لخيالها؛ حتى في هذه نُخفِقُ!

هنا، لا يصح أن نكون كالبنيان المرصوص يبصق بعضه بعضًا.

نشَّتْ تلك الأفكار.. شعرتْ بحرارة لم تَدْرِ مُبتداها.. فميزان الحرارة يهز رأسه نافيًا أيَّ ارتفاع في درجة الشعور. ما الذي يجري؟

تساءلت ثم تنهدت بيأس، لم تكن تملك وقتًا لتفسير ما يجري في داخلها فضلاً عن تفسير ما حولها، وجدت حلاً لتبريد الحرارة بتشغيل المكيف، شيء من المتعة والدَعَة سرى في كيانها، لكنه رحل سريعًا معتذرًا بأن دماغها تسري فيه أفكار موبوءة عن فلسطينية تدندن:

يُمّا مويل الهوا يما موليليه

ضرب الخناجر ولا حكم الندل فيّا!!

وهوا بلادي ولا مكيفات أمريكية!

تلك الفلسطينية..

يا لها! ما لها؟

"حسنًا." قالت ساخرة: "سأبيع عقاراتي وأشتري بُراقًا لأكون هناك!"

هزَّتْ كتفيها، انتبهت إلى لوحةٍ على الجدار مائلة، لم تكن تهتم بالفن كثيرًا، كانت تحب اقتناء اللوحات السريالية فهي الأقرب إلى الواقع (كما تراه) كما أنها زينة الجدران الأنيقة التي لا تعرف طعم الشمس.

تأملت اللوحة؛ أمٌّ تحتضن طفلها، والطفل يحتضن كلبه الصغير، شعر الأم يتناثر من تحت غطائه الفزع.

اللون الأحمر يمرِّر أصابعه على اللوحة والأم تقبض بأناملها على الصغير لتحميه من قبضة الأحمر.

نظراتها التقت مع نظرات الصبي عند نقطة في الأفق وانعكس في عينيها التنين.

استيقظت من سطوة هذه اللوحة المبهمة، خطر لها أن تعدِّل اللوحة ولكنها تداركت: هذا عمل الخادمة.

ولّت ظهرها ولم تعقّب، لم ترَ الأم تمد يدها تستجدي كأس ماء.

قليلاً قليلاً، اختفت جدران البيت واختفت اللوحة لتظهر شوارعٌ وشاشاتُ عرضٍ كبيرةٌ.

ذابت الأم في ثوب الحداد، وحضر الأب.

الصغير يحتمي بأبيه من التنين والنيران، الأب لم يَعُدْ يطلب الماء، صوته الفجُّ يصرخ: مات الولد.. مات الولد..

خفَتَ صوته قليلاً قليلاً أمام ضجيج العابرين يتحسرون ثم يمضون مقتحمين أيامهم، والمشهد معلَّقٌ فيه الزمان والمكان.

يصرخ الأب:

مات الولد..

مات الولـ...

مات الـ...

مات...

ما...

ما من أحد!!!"

بعد أن قرأتُ القصة، سجلت ملاحظاتي حولها:

"بداية استغربتُ كيف انحرف مسار اللوحة على الورق، وتحولت إلى صمت عربي شديد، ولا مبالاة، مقابل هذا الوجع الفلسطيني، هذا مؤشر على عمق اهتمامي بالقضية الفلسطينية، لعل هذا يدل على تأثري بما جرى معي بأكثر مما ظننت، واهتمامي بعملي الحالي فوق ما تصورت.

لقد همست اللوحة لأعماقي بما لم أدركه بحواسي المادية، لقد ناجت روحي، فردَّتْ عليها روحي بما هجع زمانًا، منتظرًا لحظة الكشف والخروج، لعل الكتابة سِفْرُ الخروج من تِيه اللاوعي، إلى جنة الوعي بالذات.

الكتابة مشكلة فلسفية عميقة، هي ليست مجرد هواية تمارسها، إنها ذات يذوب بعضها بين السطور والأفكار. قلق، وشهوة؛ شهوة للحياة، للخلود، للتعبير، للصراخ، للهرب وللمواجهة. بل وأبسط من ذلك: هي متعة!"

حسنًا، أعدت القراءة، فوجدت عبارة راقت لي كعنوان رواية، فخططت في رأس الصفحة عنوان روايتي القادمة، وقد بدأ الضباب ينقشع عمّا ستكون عليه:

"لوحة سريالية"

توقَّفتُ هنا، فلا حاجة ولا طاقة لي بالمزيد الآن.

أمَّا شخوصي، أبطالي، أصدقائي، الذين عشتُ معهم وهمسوا لي بالكثير، فقد كان تعارُفي بهم مفاجئًا لي وغير متوقع المصدر، أتذكرون تلك الفتاة التي ألقتْ إليَّ سؤالاً في ورقة وفَلَّتْ؟ "هل يتوب الجاسوس؟" لم أخترعها من خيالي، لقد فاجأتني لاحقًا.

كنتُ في مكتبي في المقاطعة بعد يوم شاقٍّ من المحاضرات، كان عليَّ ترتيب أوراقي وكتابة تقاريري لتقديمها لخطّيبي، الذي لولا العمل المشترك بيننا لم أرَه، فرغم قرب موعد الزفاف بعد خروج أبي من السجن واستقرار أحوالي إلا أنني مازلت أشعر بغربةِ روحٍ عنه.

جاءني هاتفٌ يتأكد من وجودي في المكتب، ويطلب الإذن لإحداهن بالقدوم، كدْتُ أعتذر لكثرة مشاغلي وتعبي، لكنَّ الإلحاح الذي شممته والآذِنُ يَرُدُّ على أسئلة الفتاة، ويعتذر لها مؤكدًا أن عليها اختيار موعد آخر، أثار فضولي، فأَذِنْتُ لها.

كانت صبية صغيرة، ملابسها، واهتمامها البدائي بنظافة وجهها من الشعر الزائد، حركاتها المرتبكة، كلها توحي بأنها طالبة مدرسة.

- السلام عليكم.

قالتها بتلعثم، يبدو أنها بلغت جهدًا كبيرًا لتستخدم صوتها، لاحظت ارتعاشة خفيفة، وتوترًا في يديها إذ كانت تقبض على حقيبة اليد بقوة.

- عليكم السلام، أهلاً بك، تفضلي بالجلوس.

لكنها بقيت واقفة وعيناها تدوران في المكان، كأنها لا ترى الكرسي. قمتُ من مكاني، وقد تعودتُ على مثل هذه المواقف، خلال فترة عملي، إضافة إلى خلفيتي النظرية خلال فترة تدريبي، عن أشخاص يملؤهم الخوف والتردد، حين يرغبون بالبوح ويحتاجون لبعض الثقة.

- تفضلي.

أجلستها على الكرسي، وجلست قُبالتها، وابتسمت لها، كانت تهرب من نظراتي، فكرت في طريقة لبدء الحوار فقد شعرت بحجم قلقها، لكنني لم أعرف بعد هدف زيارتها، قلت:

- جيد أنني لم أقبل نصيحة الآذن بصرفك، شخصيتك تبدو جميلة، وبغض النظر عن سبب زيارتك، فأنا سعيدة بالتعرف إليك.

بقيت صامتة، فقلت بمرح:

- لن أدعوك لشرب قهوة في هذا الجو الحار، ألا تشعرين أن الحرارة أعلى من معدلها؟

هزت رأسها بالإيجاب، فقلت:

- وأخيرًا! هناك من يتفق معي، شغَّلْتُ المكيف فسخروا مني، تخيَّلي! سأطلب عصير ليمون لكلينا، ما رأيك؟

- لا، شكرًا.

نظرت إليها بدهشة مُصطنعة، كنت أتوقع ردَّها اللائق لارتباكها، لكنني بإصرار كمن يُعامل ضيفًا في بيته، أصررت على كأسين من عصير الليمون، ولأنني أعلم أن الخدمة غير متوافرة إلا للشاي والقهوة، فقد خرجتُ من المكتب وطلبت من الآذن أن يشتري لنا قنينة عصير كبيرة، يفرغها في كأسين.

- ها؟ أنت من أية منطقة؟ أنا من الخليل كما تعرفين.

كنت أعاملها كالأطفال، لتهدأ، لكنها رفضت أن تبوح، كانت تحتاج مزيد راحة لتنطلق.

فقررت الخوض في حديث آخر:

- هل تبحثين عن وظيفة؟ يمكنني المساعدة.

- لا، أنا ما زلت صغيرة، وأهلي سيرفضون.

- جامعية؟ أم طالبة مدرسة؟ إن كنت جامعية فنحن ندعم طلاب الجامعات بوظائف بسيطة، لو أن ظروفهم المادية صعبة، يمكنني كذلك المساهمة بتوفير منحة جزئية لك.

فغرت فاها كقِرْبَة، يبدو أنني لمست شيئًا مهمًّا لم تفكر الخوض فيه.

- ماذا قلت؟ هل أنتِ جامعية؟

- أنا في السنة الأولى، و...

- و...؟ (ثم ضحكتُ بهدوء) يا لكِ من خجولة! اسمعي يا عزيزتي، مهما كان الموضوع الذي جئتني به، فأنا أكثر من يفهمك ويتفهَّمك، لا تخجلي من الحديث، مهما بلغ حديثك من غرائبية، فهو ليس أغرب مما مررت به في حياتي، فتشجعي، وتأكدي أن حديثك معي سرٌّ لا يخرج، وسيتم التعامل معه بالطريقة التي تناسبك، بل وبأذنك شخصيًّا.

وجدتها تشجعتْ، باتت تنظر إلى وجهي مباشرة دون إشاحات، قَبْلَها كانت كمروحة الهواء لا تلبث ولا تستقر نظراتها على حائط.

قالت وفي صوتها ما يشبه صرير نافذة مُعتلَّة كَشَفَتْها ريح عاتية، لا لم يكن خائفًا، ولا عاليًا، ولا هامسًا، كان فقط صوتًا غير متوازن، صوتًا ينبئ عن اضطراب شديد، ورجاء شديد، كان صوتًا مهتزًّا آيلاً للنوْح:

- إن أخبرتك بقصتي... أنا مَن أعطتك ورقةً فيها سؤال...

ثم صمتت، ثم همست:

- "هل يتوب الجاسوس؟"

هززت رأسي بهدوء، كأني أريدها أن تتابع، لكنني في داخلي لم تسلم دقات قلبي مِمّا أسمع، واعترتني حيرة شديدة لا أعرف كيف أتعامل مع الموقف. تأمَّلَتْني تنتظر رَدّي، فاستدركتُ بعد الصمت:

- نعم، أذكرك جيدًا، أو لنقل أذكر سؤالك جيدًا، فقد شغلني، ليس لأنه خطير، ولكن لأنه سؤال جميل، أثار فضولي وأعطاني أفكارًا جميلة جدًا، حتى إنه جعلني أضع خطة متصورة لجاسوس تائب، عليَّ أن أشكركِ إذن! وها أنت أمامي، فشكرًا.

رغم كذبي المتواصل في كل ما قلته، لكني رجوت ألَّا يَعْقُبَ الكذب ردة فعل تفسد الأمر كله، فكذبٌ ثم خسران، مصيبتان!

حين ردَّتْ بصوت مرتاح، وعينين تلمعان دهشة وأملاً، غفرت لنفسي كذبتي، قالت:

- هل يمكن إن وقع أحد في مشكلة أن تساعديه؟ إن كانت مشكلته متعلقة بالمال؟

استأت من سؤالها، هل الأمر متعلق بالمال؟ هل كانت تمهِّد لتبتزَّ تعاطُفي لأجل المال؟ سألتها:

- ما علاقة المال بسؤالك؟

قالت، وفي صوتها خذلان واعتراف:

- سؤالي متعلق بالمال جدًّا، الجاسوس الذي يرغب بالتوبة، متورط في أمور مالية، ويريد أن يتوب لكن ظروفه المادية صعبة، وقد تورَّط معهم في ديون.

أدركت بحدسي أنها تتحدث عن نفسها، لكنني فضلت التظاهر بالحديث عن شخص آخر، لعلني مخطئة. حثثتها لتكمل:

- كيف تورط في الأصل؟ ولماذا يريد أن يتوب؟

- كان طالب مدرسة، ثانوية عامة، قبل ستة أشهر على ما أظن، لست واثقة لأنه ليس أنا...

هذه التأكيدات تؤكِّدُ عكسها في مثل هذه المواقف دومًا، الإصرار في المواقف الصعبة على أنه "ليس أنا" يضجُّ بالتأكيد أنه "أنا" ولو قيل العكس،

ولو أثبت المرء الشيء لنفسه، لتيقنًا أنه يتحدث عن غيره ويخفي سره بكل ما أوتي من طاقة، لا أحد يجرؤ على كسر هذه اللعبة، لأنّ أحدًا لا يجرؤ على نسب شيء مخجل لنفسه إن فعله، في حين أنه يملك القوة الكافية ليصوِّر نفسه بمظهر البطل الذي يحمي صديقه، دومًا هكذا تجري الأمور. أكملتْ:

- تعرَّفَ عن طريق الفيسبوك على صديق عربي ملحد، ناقشه حول أحقية الفلسطينيين والبعد التاريخي للبلاد، ومظلومية اليهود والتعايش المشترك، لقد تأثَّر قليلاً، خاصة أنه كان معجبًا بالفتاة، لكنها عرَّفَته على شابٍّ فلسطيني، وكانت تدور بين الثلاثة مناقشات، حتى التقى بالشاب الفلسطيني، وعرف أنه يرغب بالالتحاق بالجامعة لكن ظروفه المادية لا تساعده، فقدَّم له الشاب الدعم المادي، لكنه اكتشف أنَّ كل ذلك خدعة وأنه تورط في بثِّ أسرار يجب ألا تقال، وهدَّده لو باح بشيء فسوف يفضحه بالمال، والأسرار.

- حسنًا، بالنسبة للمال، يمكن التخلُّص من الأزمة لو ثبت التورط، أمَّا بالنسبة للأسرار فيعتمد الأمر على حجمها وخطورتها، لا أظن طالبًا حديث السن والخبرة في الجامعة يملك أسرارًا خطيرة تمنعُه.

- يعني... هل... برأيك...

ثم سكتت وبان الانفعال في وجهها فبات شفقًا احمرَّ تغرب شموسه، شجعتُها بابتسامة خافتة، وقلت:

- كل شيء ممكن حين نرغب به حقيقة، فعمَّ تتساءلين؟ ما هذا النبأ العظيم الذي تستفسرين عنه؟

- هل يتوب الجاسوس؟

- لِمَ لا؟ التوبة بين العبد وربه؟

- سيفضحونه.

- سنغطيه.

- سيلاحقونه.

- سنخبئه.

- سيُضعِفونه.

- سنقوّيه.

- سيهددونه.

- سنحرره.

- سيقتلونه.

- سنحميه.

صمتت، فقلت:

- المهم، هو قول الحقيقة كاملة حتى لا نتعرض لمفاجآت.

كانت هذه النقطة المهمة في حديثي معها، هذه النقطة الفاصلة، التي تثبت صدق التوبة، وقدرتي على فهم الصورة، انتظرت بعدها المكاشفة والاعتراف الكامل، فقالت بقوة:

- أنا كنت طوال الوقت أتحدث عن نفسي، وقد أرسلت للشاب الفلسطيني صوري، وهو يهددني بها، لو عرف أبي بالصور فسوف يقتلني، لأني أرسلتها بشعري وملابس البيت... ملابس النوم، ظننته يحبني، لا أعرف ماذا أفعل. أخوتي الكبار سوف يذبحونني لو عرفوا.

- لماذا قررت أن تتوبي؟

- أنا لا أريد أن أكون جاسوسة! أنا أعرف معنى الجاسوسية.

- ما معناها؟

كان الجواب مهمًّا لي فوق تصوُّرها، فأنا حتى اللحظة أعرف أن الخيانة هي أن تبيع قومك لغيرهم، كم أحترمُ عدوي حين يخلص لشعبه! لكني لا أعرف هل يحترم عدوي من ينضمُّ إلى صفوفهم؟ هل يرونه خائنًا لبني جلدته؟ أم صديقًا لهم؟

- معناها، أنني أخبر عن شعبي بأمور تضرُّهم، معناها أنني أستبيح دماءهم، معناها أنني أضرُّ مَن وثق بي.

- لكنَّ عدوك، يصير صديقك، ويرى أنك تقدِّمين له خدمات جليلة.

- لكنه يقتل أبي وأخي وابن بلدي ساعتها، لكنه لا يقدِّم لي مثل ما أقدمه له، لكنه حين ينتهي مِنّي يُعدِمني.

ثم قالت بانفعال محامي دفاع:

– أنا للحقيقة ليس بين أهلي مناضلون، لكنَّ أمي ربَّتني بحيث لا أنقل أخبار بيتنا للجيران، فكيف أنقل أخبار قومي لمن يريد ضُرَّهم؟

– كيف؟ متى قررت أنك تريدين أن تتوبي؟

– هذه قصة طويلة.

– أخبريني، نهاري كله صار لك.

– عندما ترين فتاة غربية لا علاقة لها بفلسطين، تتضامن معنا فقط لأنها شعرت أننا أصحاب حق ومظلومين...

ثم تسربت دمعة من عينها، وإذ بها كسحابة أبرقت بأعمق ما فيها ثم سَحَّتْ دموعها حتى غرق الكلام. هدَّأْتُها قليلاً، فأكملت ودموعها تخونها انسيابًا عذبًا أثَّر فيَّ كثيرًا إذ شعرت بفرط صدقه، قالت:

– يموتون لأجلنا ونحن نخون أوطاننا!

يا إلهي! بكيت معها لحظتها، بكيت نفسي وزوجي السابق، وبكيتها حتى أنهكتني، ما كان يجب أن أتفاعل معها بهذه الطريقة، لكنها أثَّرت فيَّ فوق طاقتي، ثم قالت وهي تلوح بيديها بشكل عشوائي:

– تعرَّفتُ على متضامنة إيطالية عن طريق الفيسبوك، وتكلَّمنا عن فلسطين وجعلتني أشعر بفخر كوني فلسطينية، جعلتني أشعر بمعنى القضية، ثم صدمتني مرتين: مرة حين عرفتُ أنها يهودية، ومرة حين رأيتُ

صورها في غزة مع المُهدَّمَة بيوتهم، تقف وسط الركام، ترفع علمنا كأنها في حفل نصر بهيج! كم شعرت بالخجل من نفسي، وبعدها كانت محاضرتك، وفكرت في سؤالك لكني توجست خيفة، فكتبت الورقة، وبعد تردُّدٍ طويل وضغط كثير من الشاب لمزيد معلومات وأسرار، جئتك.

- ما هي الأسرار؟

- لا أدري أهمية الأمر لهم، لكنه طلب مني مراقبة زوج جارتنا، ورصد تحركاته، كما طلب مني في الجامعة أن أتقرب مِن فتيات معينات، وأحاول الاندماج في الحركات الوطنية في الجامعة، ووعدني بمنصب قياديٍّ مُستقبَلاً، ومنحة دراسية كاملة لو نفَّذْتُ أوامره.

برقت عيناي:

- هل يمكنك البوح باسمه؟

تردَّدَتْ، ثم أجَّلَتْ، لكنها أعطتني رقمها للتواصل، واسمها كاملاً وعنوان بيتها، كان عليَّ أن أتيقن من قدرتي على الوصول إليها في حال أصابها مكروه من ضغطٍ أو كَشْفٍ.

في ذلك اليوم، وأنا في طريقي للبيت، تعرَّفْتُ كما قلتُ لكم على شخوص روايتي، تعرفت عليهم وابتسموا لي، عرفت لحظتها عمَّن سأكتب ولماذا، كانت ملامح بطلي "فيتوريو أريغوني" تلوح لي بغليونه وقبعته تبتسم لي بسعادة.

عرفت لحظتها أن الوجع الفلسطيني، كبير، أكبر من أن نعيشه فقط، نحن نحتاج لأن نؤرِّخه في رواية، ونبوح به للعالم، عرفت لحظتها لماذا وكيف ومن خلال أي شيء تبزغ فلسطين في ثوب رواية أو على صهوة قصيدة.

حين وصلت البيت، بدأت البحث عن طريق النت في سيرة حياة فيتوريو أريغوني، الذي سمعت عنه مرة، وبدأت على عجل بكتابة روايتي:

"لوحة سريالية"

الإهداء

ليس لأَنَّنا أكثرُ وفاءً مِنكَ لنا

ولكنْ، لأنَّ دمكَ وفيٌّ لنا حتى في موتك

ولأنَّ في القلب بابٌ لا يَدخُل مِنه إلَّا الاستثنائيون

اسمه بابُ الإنسان

كانَ لكَ في ذاكرةِ شعبِنا الطويلةِ حديقةَ صلاةٍ لكَ وحدَك

لأَنَّنا لا ننسى يدًا امتدَّتْ لَنا، وجسدًا حَمى ظُهورَنا، ووجهًا ابتسم لِصغارِنا، ودمًا حضنَ أوجاعنا

كانتْ هذه الروايةُ لأجلِك

اللحظة الفارقة / وجع/ ١٤ أبريل ٢٠١١ غزة:

على الطرقات المُهترئة المتكسِّرة القديمة، بين البيوت المهدَّمة أو الآيلة للسقوط والشاحبة كالقمر، الفارغة مِن الحياة كبئر معطَّلة، ركض الصبي فتحي بسرعة كبيرة جدًا، لا يبالي بحذائه المُمزَّق والحًصى التي تحزُّ لحمه، ولا بطرف بنطاله الجينز الذي حاولت الأسلاك الناتئة من البيوت المهدمة على الجانبين أن تسمك به لتسأله عن الخبر فمزَّقَتْه، رفع حَطَّته المُرقَّطة بالأبيض والأسود يلفُّها حول رقبته إلى وجهه ليمسح دموعه التي لا تتوقف، تنهمر صامتة بحرارة، وعلى شفتيْه ارتجاف الكبرياء المُوجِع حين يصبح الألم غير مناسب لعمرك، فتنوح رجلاً كالأطفال، أو تذرف طفلاً دمعًا صامتًا كالرجال. كان يركض مترنحًا لا يرى الطريق، فوقع مرة فوق كومة من بقايا الطوب المتناثر من حائط بيت متهالك، قام لا يبالي بالدماء التي سالت من يده، مسحها ببلوزته فغاصت الدماء الحمراء في اللون الأسود حتى اختفت ولم يبق منها إلا رائحة الدم التي تخرج من البيوت بدل روائح الطعام المطبوخ.

كاد يقع في حفرة على الطريق تفوح منها رائحة تنبئ عن فوران الحياة السفلية للمدينة نحو الأعلى، كانت مياه الصرف الصحي هي البركان المتفجر كل يوم، لا تُقتَلُ بالحرارة ولكن بالرائحة.

ترك فتحي نفسه بلا توازن فاصطدم كتفه بجدار المسجد مفقوء المئذنة من أثر قصف غابر عابر، توقف لحظات لالتقاط أنفاسه ودموعه، ثم ركض سريعًا ثانية، حتى انعطف وصعد تلة من الإسمنت المسلح والحديد، كانت

دارًا مُخلِصة لساكنيها حتى رحلوا فتهدَّمت، وصل إلى غرفةٍ نوافذُها كبابِ مغارةٍ من أثر القصف، لا يكتمل لها سقف، مُتيحة للقمر ليلاً تجفيف بقايا الذكريات، وللشمس نهارًا إعادة نسجها بما يشبه الحنين فلا تزول، وهكذا، يتعاقب عليها الليل والنهار لعقد هدنة مع الأوجاع، ثم حفرها في الذاكرة من جديد، لتصير شاهدًا على نزيف لا يتوقف في شريان الحياة.

دفع فتحي لوح الخشب بكلِّ جسده، كأنه جَنينٌ لكنه يهرب عائدًا إلى رحم أمه فَزَعًا من الحياة، كان سابقًا يملك رفاهية القفز كعدّائي السباقات عن اللوح الخشبي الذي يرتفع حتى منتصف حلق الباب، لكنه الآن لا يستطيع التوقف عن الركض هربًا من وإلى أوجاعه التي تحيط به كالبحر يحيط بجسد السبّاح لتخترق مسامه وتبلله تمامًا، لكنَّ هذه الأوجاع تتكاثر من الداخل إلى الخارج حتى غمرته في بحر من الكآبة الثقيلة.

وصل إلى آخر الغرفة لاهثًا، يتلفت حوله بيأس وضياع، لا يعرف أين يبحث، ثم استقر بصره على أرضية الغرفة، حيث فَرْشَةٌ قديمة عالية وبقايا لحاف مهترئ وبرميل حديديّ على أرضٍ غير مستوية.

ركض إلى الصندوق بعثر محتوياته كأنه سماء تندف ثلجًا أو ريح تذرو قشًّا، وأخرج منه شيئًا أخضر يلمعُ، بجسد مرتجف كأنه غريق يبحث عن طوق نجاة.

جلس على الفرشة منهارًا وحَضَنَ الأخضر إلى صدره وانحنى عليه بفمه ورأسه وناح نواحًا شديدًا قبل أن ينقلب على جنبه ويتكور ضامًّا ركبتيه إلى

صدره، في بكاء جارف، ويغمغم بصوت متقطع: فيتوريو... فيتوريووو... لا ترحل، الله يخليك! (لا، لن أخبرك عزيزي القارئ ما معنى فيتوريو، يبدو أنه شخص ما، أرجوك لا تقلب الصفحات مستعجلاً، يمكنك الاستعانة بالسيد جوجل لكنه سيقتل متعتك في رواية دفعتَ ثمنها، اصبر قليلاً ما دمت قررت أن تخوض هذه المغامرة معي.)

بقي على حاله هكذا حتى حلَّ الليل، والليل كما قلنا، يجفِّف الذكريات، أو على الأقل يُبطِل حواسَّك عن الحياة لترتاح قليلاً مِن عبئها. غفا قليلاً وصحا قليلاً، وهلوس كثيرًا، حتى شعر أن النوم جريمة في ليلة كهذه.

قام منزوع الدسم من زخم الحياة، حاول فتح عينيه لكنَّ القذى تبعثر حول رموشه فشبكها معًا كالأغصان.

كالشوك في اليد كان حذرًا في نزعها، لكنَّ بعض رموشه خُلِعَتْ معها، "لا يهم، كل شيء الآن متاح، فيتوريو ليس هنا ليوبخني على سوء تعاملي مع ذاتي."

أنهى تنظيف عينيه، ولم يلجأ للماء، غاب عنه ذلك، لا أدري هل غاب عن وعيه استخدام الماء، أو غاب عن بيته الرُّكاميِّ وجودُ الماء، كلا الاحتمالين قائمٌ بقوة، والاختيار متاح لك أيها القارئ، خاصة أن ذلك لا يؤثر في سير أحداث الرواية.

نظر بيديه إلى الأخضر بين يديه وهجم عليه بكل حواسه يعانقه، ويشمه ويمنحه دموعه بكرم.

نزّت الدموع من عينيه، وشعر ساعتها لأول مرة بأن أنفه لا يستوعب هواء كافيًا بسبب جفاف السائل داخله، أدخل إصبعه السبابة ليجرف ما علق من شوائب في مسار الهواء بمنخريه (لماذا تشعر بالقرف قارئي العزيز؟ ألم تفعلها يومًا؟ كل الفتيان في هذه السن يفعلونها! كن واقعيًّا!)

أخذ نفسًا عميقًا ليتأكد أنَّ المهمة تمَّت بنجاح وأنه لم يبق شيء يعيق دخول الهواء إلى رئتيه، سحب كمية كبيرة من الهواء فشعر ببعض الراحة المؤقتة التي لا تصل إلى رتبة الارتياح، هي هدنة محارب شرس فقط.

مسح بطرف كُمِّه ارتجاف شفتين طارئًا اعتراهما، من رغبةٍ في البكاء. ورمش بعينيه سريعًا مُفَتِّتًا الدموع المتأهبة للسقوط. تناول رشفات سريعة من الهواء دخولاً وخروجًا ليمنع نفسه من هيجان القلب، تلفَّت حوله واستقرت عيناه على الحائط أمام فرشته الإسفنجية العالية، كانت تلك الإسفنجة تستريح على سرير ما في يوم ما.

على الحائط المواجِه تنبَّه إلى أنَّ بقايا الدهان الفسفوري يزداد سطوعًا هذه الليلة، لعل القمر الذي بدا في طريقه نحو الاكتمال هو من أعطى الجدار هذا السطوع!

قام من مكانه حافيًا نحو الجدار، كأنه يناديه، اقترب منه، كانت كمية الدهان أكبر مما توقَّعَ، كانت أطول منه وهو الفتى ابن الثلاثة عشر ربيعًا، أو خريفا، أو شتاء أو مزيجًا منحوتًا من كلمتي الخريف والشتاء معًا، ليصير فصلاً خاصًّا بغزة وحدها يعكس بؤس حالها.

تحسَّس الجدار بقلبه، ولمسه بعينيه، وفحصه بيده، ابتعد عنه قليلاً، تراءت له بسبب الظلال رسوم كثيرة، حسب زاوية النظر، مسح بيده عليها، إنها ملساء أكثر من باقي الجدران، الدهان يمنحها ملمسًا يتفوق على الجدران التي خرمشتها الصواريخ أو نفخت فيها الريح.

حدَّق في الجدار، أمال رأسه قليلاً، اقترب، ثم ابتعد، ثم اقترب، ثم ابتعد بسرعة، لمعت عيناه، عاد راكضًا وضعٍ يده على الجدار يرسم خطوطًا وهمية سريعة متقطِّعة كأنه يُوصِل نقاطًا متقطِّعة ببعضها.

ابتعد قليلاً، هز رأسه بِرِضًا، ابتسم قليلاً، تلك الابتسامة التي تعتلي وجوهكم حين تستجيبون لبَسمة الصغار في حضرة العزاء الكبير.

اهتزَّ جسده كما لو وسوس له شيطان فجأة بفكرة مفاجئة لم تخطر له.

ركض نحو البرميل ثانية، لم يجد ما يبحث عنه، كانت الأشياء متناثرة على الأرض منذ المساء (كما تَذْكُرُ؛ حين أخرج ذلك الأخضر اللماع)، بعثر الأغراض على الأرض، حتى وجد علبة بخَّاخ حبر أسود، رجَّها ليتأكد من امتلائها، ثم نظر إلى الجدار.

مع أول ضغطة على الجدار، بعلبة البخاخ شعر ببياض في الذاكرة وبمرارة العجز عن التذكُّر، (تخيَّلْ نفسك تتذكر شيئًا مهمًّا جدًا لك أو حتى تافهًا كاسم ممثلٍ ما في مسلسل قديم، ولعبت الذاكرة معكَ لعبة القط والفأر، كم سَيكونً حجم غضبك من نفسك وشعورك بالتحدي لتتذكر!) ضرب

فتحي جبهته بيده، لكنَّ حَصى التفاصيل لم يصعد لسطح الذاكرة الرملية، فرك جبينه، رغم ذلك بقي كل شيء صامتًا. لو عرف أنَّ أسوأ وسيلة للتذكر هي التركيز لَرَحِمَ نفسه قليلاً مما هو فيه، فالذاكرة لا تفنى ولا تُستَحْدَثُ بضغطة زرٍّ، لكن تأتي على مهل وتذهب على مهل.

عزيزي القارئ، ماذا تتوقع أنَّ الفتى فتحي سيفعل في الجدار؟ هل أزعجه السطوع فأراد مَلْئَهُ سوادًا يناسب حالته؟ أم هل سيرسم شيئًا خاصًّا عليه؟ ماذا سيرسم؟ حسنًا، أنت تتفوق في توقعاتك، هذا جميل، أنت قارئ ذو حدس جيد. استمر في المتابعة، فأنا "الكاتبة" لم تَقُلْ شيئًا بعد، ومازال لدينا الكثير لنعرفه معًا، أنا أنتظر رد فعلك بصبر جميل، فلا تكن أقلَّ صبرًا.

اللوحة ١:

تأمَّلْ هذه الصورة عزيزي القارئ، حسنًا قد تروق لك ضحكته الصافية، يجب أن تعرف سببها.

قد يستفزك القرط طرف حاجبه، هل ستظل على رأيك حين تعرفه أكثر؟

قد تروق لكِ وسامته، لا تتأمليه كثيرًا، فملامحه تغري بالوطن وبالحب.

هل يُذَكِّرُكم بشخص ما؟ شخصيًّا حاولت أن أبحث في شريط الذاكرة عن شبيهٍ له يلحُّ على ذاكرتي فلم أتذكر، قلَّبتُ صور جوجل للبحث عن ممثل شبيه فلم أجد، لعل أحدكم يكون أقوى مني ذاكرة فيخبرني يومًا.

ولكنْ، مهلاً! من هذا؟ وما علاقته بالرواية؟

هرع فتحي إلى الكيس الأخضر اللماع في الظلام، وفضَّ غموضه برفقٍ كأنه على وشك إبطال مفعول عبوة ناسفة، أو كأنه يفتح عيون طفل وليد على دهشة الحياة. مدَّ يدًا ترتجف كأنها يد سارق يوشك أن يسرق من المعبد شمعة ينير بها طريقه المظلم، أخرج صورة متوسطة الحجم، تأملها، ثم أخرج أخرى، ثم ثالثة، لم تُرْضِه أية واحدة منها، فأمسك الكيس وقلبه على رأسه ونفضه على الفرشة فتناثرت الكثير من الصور الفوتوغرافية بأحجام مختلفة أمامه، بعثرها وصار يتأملها ويبتسم.

مرر أصابعه عليها (أششششش عزيزي القارئ، لا تشتت ذهن فتحي بفضولك، عمَّا قليل ستعرف.)

لمسها كأعمى يقرأ لغة بريل، ثم استغرق في ملامحها، قرَّبها لوجهه كثيرًا، كانت مُعتِمة بسبب الظلام، نظر ناحية الجدار، خطرت له فكرة، سحب الفرشة بكل ثقلها وقرَّبها من الجدار حيث انغمست في نور القمر وبدت الرؤية أوضح قليلاً.

كان ينظر في الصور، حتى توقَّف عند صورة (تلك التي رأيتها سابقًا عزيزي القارئ)، نحّى باقي الصور، أمسكها بيده، ووقف أمام الجدار؛ في يدٍ الصورة وفي يدٍ علبة البخاخ الأسود.

وضعت قلمي جانبًا، كان أمرًا مرهقًا؛ أن تكتب يعني أن تُفْرِغَ بعض روحك وكل طاقتك في الكتابة، هي لذة يعقبها ارتخاء وإنهاك، لم أشعر بمثل هذا من قبل، إنَّ تجربة أحاسيس جديدة في الكتابة يعني تطوُّرًا في المستوى والأسلوب، لذا قررتُ البحث عن وسيلةٍ تُضارِع هذا الدفق المؤلم الذي لا تلملمه ورقة ولا يجاريه قلم، كنت أرتعش وأنا أكتب وبطيئة جدًا وأنا أضطر إلى رسم الكلمات، لم تكن الورقة تجاري انهيار الأفكار، لذا فتحت اللاب وقررت أن أكتب مباشرة هناك، خاصة أنني تألمت جدًا وشعرت ببغض شديد وأنا أنسخ أفكاري من الورقة إلى الطباعة، كانت عمليةً أشبه بتحويل فتاةٍ حيَّةٍ إلى لوحة، تفتقد إلى الروح، رغم أن الكلمات هي هي لم تتغير، لكني شعرت أني نقلت الرسم، وبقيت الروح معلقة على الورق، لعل هذا هو السبب الذي منعني من تمزيق الورقة بعد الفراغ من النقل.

في تلك اللحظات التي انهمكت فيها بالكتابة، لم أنتبه إلى نداء أمي، تدعوني لأكلم أبي، خرجت من غرفتي، كانت قد جهزت ثلاثة فناجين من القهوة، حدست أنه خطيبي، ليس غيره، همست أمي بذلك مؤكدة، حملت صينية القهوة ودخلت الصالون، قدمتها بينما يتحدثان، وأتابع بصمت، يحددان موعد الزفاف، يسألني أبي عن مناسبة الموعد، لم أعترض، بات زواجي أمرًا لا مهرب منه، أو أمرًا تقبلتُه أخيرًا، أو بحكم ما جلبه لي من استقرار وبعض حرية، أو أنني ما زلت أومن بحلمي وبعلاقته به، فقد فهمت حقًا أنه الجندي

العسكري الذي بقي واقفًا عند مطلع الدرج يذود عني ويحميني مبتسمًا لي، وأنا أقف في الأعلى أَخُطُّ وأمحو، وحولي نوافذ من نور.

لا أعرف السبب بالضبط الذي دفعني للاستسلام، أحيانًا نختار عكس رغباتنا تمامًا، لأننا ندرك أن رغباتنا خاطئة، كنت كمن يسأل طفلاً: "أيَّ عقابٍ تريد؟" وأنت تعرف أنه سيختار الأحبَّ إلى قلبه، لكنَّ الأنسب له هو ما يكرهه فتستبعد ما اختار وتُناولُه العقاب الذي استبعده، لأنه أبعد أثرًا في نفسه، هكذا فعلت؛ نظرتُ فيها أُحِبُّ فاخترت ما أنفر منه، لأنني دومًا أسيء الاختيار في شؤون القلب، لعلني هذه المرة أُدْرِكُ أخيرًا ما عليَّ البحث عنه لأفتح قلبي له.

تمَّ الزواج، كان بسيطًا، لم يكن مثل زواجي السابق، لكنْ هذه المرة كان الكل أسعد مني، عكس المرة السابقة، أصبحت مشوشة قليلاً؛ هل السعادة داخلية لا يهمُّ فيها المشاركة؟ أم السعادة هي المشاركة؟ على الأقل لو لم أشعر بسعادة غامرة في زواجي هذا، فأنا أشعر بالأمان النابع من الراحة النفسية بمباركة أهلي.

لم يحضر كثير من أهل العريس، فالشمال بعيدة والحواجز كثيرة، حاجز حوارة قاس جدًا، فإذا تجاوزوه عليهم أن يتجاوزوا بعده حاجز "الكونتينر" الإسرائيلي في آخر مدينة العيزَريِّة في أطراف القدس، قبل دخولهم متعرِّجات وادي النار، وهي طريقة قاسية ملتوية بين الجبال، كأفعى هاجعة لا تنزاح، على العابرين المخاطرة بالمرور فوق جسدها، وويلٌ لِمَن ابتلعته الطريق!

قديمًا كانت طريق وادي النار ترابية وكثيرًا ما وقعتْ فيها حوادث مدمرة بسبب ضيقها ووعورتها والتفافها الشديد، كانت بعض السيارات تقع في الوادي، ويطول إغلاق الطريق ساعتها، الآن تمَّ تعبيد الطريق، أو بالأحرى تمَّ تجميلها كمن يرشُّ على الموت سُكَّرًا، فلا الموت يحلو ولا السكر يذوب.

اكتفوا من العائلة بحمولة سيارتين كبيرتين، أما نحن فقد حضر كثيرون، بعضهم يدفعه الفضول وآخر يجامل أهلي، وثالث قدَّم واجبه الذي لا مناص منه.

لم نَقُمْ بكل تقاليد الزواج رغم أنه زواج عريسي الأول، لأنَّ اختلاف العادات وبُعد المسافات قد ابتلعا الكثير؛ اكتفينا بحفل ساهر يوم السبت لأنَّ بعض أبناء عائلته عُمَّال في إسرائيل ولا يمكنهم الحضور يوم الجمعة، كما اكتفينا يوم الجمعة بحفل مباركة للرجال دون النساء.

لم أكن أهتم بكل ذلك، ما تمَّ وما تلاشى، لكنني أذكر الأمر لأنني لا أريد نسيان شيء مما جرى، لأنني أريد أن أفهم كل شيٍّء يدور حولي أكثر، إذ بدأت أرى الحياة فسيفساء صغيرة تتجمع معًا لتشكِّل اللوحة الكلية لحيواتنا، لا يمكن الحصول على لوحة متكاملة ما لم نهتم بالتفاصيل بداية، لكنَّ الرؤية الكُلية مُهمة فيما بعد، بعد أنْ نبني معًا حياة كاملة، إذ يَكْمُن الشيطان ساعتها في التفاصيل التي تُغرِقنا وتُنسينا جمالية الكل.

زواجي لم يشغلني عن عملي ولا عن روايتي، بل زادني حماسًا أو هروبًا من اللحظة الحاسمة.

فاجأني زوجي بأنه رجل نظيف جدًا في بيته، لا يحبُّ الصوت المرتفع في شيء، يقظ خفيف النوم، خفيف الحركة، خفيف الأكل، خفيف الاسم! اكتشفت أنَّ مذاق اسم زوجي في فمي خفيف أنيق لطيف؛ "فريد.. فريد.. فرييييد."، هل تغير مزاجي أم اكتشفت ذلك حين تجرَّدتُ؟

لكنني بكل حال لم أحبَّه حقًا رغم كل ما ذكرته، كنت أستلطفه أو أقنع نفسي به، كلا! كنت لا مبالية لأنني أعرف أنَّ زواجي به سينتهي كزهرة ربيع أينعت ثم ماتت دون أن تترك بذرة في ذاكرة المكان، لكنني كنت أرتاح له ارتياح الصديق لصديقه الذي يعرف عنه كل شيء ويتقبله كما هو.

سألته يومًا في إحدى جلساتنا الهادئة:

- فريد، كيف قبل بي أهلك؟ كيف أقنعتهم بزواجنا؟

حين نظرتُ إليه بتحدٍ، كانت ملامحه مذهولة كانقطاع خيط الكمان خلال العزف، صمت طويلاً، كمن يفكر ثم قال بصوت إذاعي مُحايد:

- أهلي سعداء جدًا بزواجنا، لقد شعروا حين أخبرتهم قصتك كاملة وعرفوا أهلك أنني من المحظوظين، أهلي يرون أنني تزوجت بطلة وطنية.

- بطلة؟ أين البطولة فيما جرى لي؟ (قلتها بسخرية مرة أو بانتقاص للذات، لكنه لم يحفل)

- أنْ تملكي الشجاعة لتفكِّري بعقلك وتتخلي عن زوجك، فهذا يعني أنك ذات معدن أصيل وصاحبة مبدأ مهما قست عليك الظروف. أن تقولي

"لا" في أشد لحظات ضعفك وبُعدك عن أهلك ليس بالأمر الهين، لقد رأيتُ مَن تخلَّى عن مبدئه لأسباب أتفه بكثير من أسبابك. أنت قلعة صمود.

أفلتتْ مني فكرةٌ ترسَّخت، واكتشفت أنني بنيتها على رمال:

- ألا تشعر بالعار مني إذن؟ ألن تطلقني قريبًا أو تتزوج أخرى؟ ألست ترى نفسك بطلاً ضحَّى "لِيَسْتُرَ" بنت ناس؟

احمرَّ وجهه لا أدري غضبًا أم خجلاً، قال:

- تزوجتك لأنني... أحترمتك.

ثم قام من مكانه إلى المطبخ، سمعته يُقرقع بلا سبب محدد، ثم ذهب للشرفة، ثم عاد ووقف بالباب وقال:

- لستِ مذنبة إلا بقدر ما تذنب نخلة لأنها زُرِعَتْ في غير أرضها.

ثم اعتذر بأن عنده موعدًا ولن يتأخر، وخرج من البيت. خفضت رأسي، ورغم ذلك لم تكن هي اللحظة الحاسمة.

حينما عاد تحدثنا عن فتاة السؤال "هل يتوب الجاسوس"، ووضعنا خطة مبدئية للتحري عنها، ومراقبتها، واختلفنا في خطة مساعدة لها، قال:

- نزوِّجُها.

- أَكُلُّ مرةٍ تتورط فتاة تزوجونها؟ أَلا مِن خطة بديلة؟

- ما المشكلة؟ هي بكل حال ستتزوج، نحن سنجد لها مَن يحميها ويقدِّر الموقف.

- هل الجميع يقدِّر الموقف؟ وماذا لو رفضتْ؟ وماذا لو لم تحبَّه؟

كم كنتُ غبية! رأيتُ في عينيه غاباتٍ مِن الشوك، لكنه رمش كثيرًا سريعًا، ليُخفي وجعه، ولم يواجهْني، ليته فعل! لماذا في كل مرة أوجعه يصمت ويتحاشى الغضب؟ سألته بعنف:

- المفروض أنك رجل ذو كرامة، أعتقد أنك يجب أن تغضب مني.

- لا أغضب منك.

قالها باستسلام، فاعترضت:

- لماذا؟ كم مرة أهنتك وأوجعتك؟ كم مرة قلعت الشوك من يدي وغرزته في عينيك؟

- لأني أحترمك، وأريد أن ابني حياة مشتركة معك...

- يا إلهي! أنت تُهديني ورودًا وأنا أهديك خناجر! لماذا تسكت؟ هل تتعامل معي كمريضة نفسية يجب الصبر عليها؟

- كلا!! (كم انفعل لحظتها!) أنا فقط أقدِّر أنك لن تحبِّيني سريعًا كما فعلت أنا، كما أنه من حقك ألَّا تُحبيني، كما أنني وعدت أخاك أنني لن أخذلك، كما أنني.. أنا.. أحببتك.

انكمشتُ حين قالها، هل خفق قلبي بقوة يومها؟ لماذا شعرت بلذة حين قالها؟ لكني لم أبادله الكلمة، لم أكن شجرة ياسمين يهزُّها ليشمَّ عطرها، كان

قلبي قلعة حصينة وراء غابات من الشوك ومساحات مَغروزٌ فيها الخناجر، لا أبالي هل يَصِلُ أو يموت دوني.

- لنَعُدْ إلى تلك الفتاة لو سمحتَ، ولنُنْهِ هذا الجدل الدائر. أنا أريد توضيح موقفي وسبب رفضي: لا يمكن كلَّما حصل موقف مشابه أن نعالج الأمور بالطريقة نفسها، هل سنكون كتيبة من العرسان لمثل هذه المواقف؟

- هذه حالاتٌ نادرة صدِّقيني، بحكم خبرتي وموقعي أؤكد لك أن الحالات التي تنجو من براثن الخيانة قليلة جدًا.

- وكيف تفعلون لو لم تُعْجِب الشاب؟ سيُهينُها في كل موقف.

- ستخضع بداية لمراقبة دقيقة لمعرفة ظروفها، ثم لا تلبث إن تحققنا أن نُرِيَها للشاب المرشَّح فإن راقت له زوجناهما.

- هل راقبتموني؟

- كلا، أنت لم تغرقي في وحل الجاسوسية، ولو جزئيًا.

- وأبي؟ الحادث، الساعة؟

- لم تكوني تعرفين، أكَّدت مصادرنا ذلك، فضلاً عن شهادة أخيك، وتسليمك للملفات.

- حسنًا، بكل الأحوال غدًا موعدي معها، إن حضرت واعترفت باسم الشاب، وتعاونت معي جيدًا، نفكِّر في الخطوة التالية.

- بكل حال، ارفعي لي تقريرًا كاملاً بكل ما يجري.

صمت قليلاً ثم سألني بتردد:

- ما أخبار روايتك؟

- هل تعترض أم ماذا؟

- كلا، بالعكس! أنا سعيد بك وبروايتك، أرجو أن تكمليها، متحمس لقراءتها، وسوف أسهِّل لك عملية نشرها بشكل مناسب.

- أحقًا تقول وتفعل؟

- جرِّبيني.

ثم ابتسم، فرقَّ قلبي قليلاً، لكنه عاد سريعًا إلى عبوسه، وبقي كذلك حينما طلب مني زوجي عدم الذهاب للعمل في اليوم التالي، فكرت ماذا سيكون السبب سوى أني استشعرت أنه يُقصيني عن قضية الفتاة، ليأخذ قراراته فيها وحده، التهب دمي بالغضب، واكتسح قلبي شحوب كالقمر، وبان عليَّ هدير الأفكار الداخلية، فوضع يده على كتفي مبتسمًا، وأخرج ورقة وقال:

- عليك أن توقِّعي على هذه الورقة، إنها إجازة لمدة شهر، وسوف تظلين على اطّلاع بكل القضايا والملفات في نطاق عملك، لكنني رغبت أن تتفرغي لروايتك قليلاً، على الأقل إلى أن تستغرقي في تفاصيلها.

عانقته شكرًا وقبّلته حبًّا وامتنانًا، (هل قلت حبًّا؟) لا أعرف، لكنني شعرت أن شفتيْه رحيق وأنا فراشة، رغبت أن أعانقه ثانية، لكنني بقيت مكاني وبيننا نَهَرٌ من الورود، يبدأ من الفخذ شفافًا نفاذًا يثير النحل في دمنا، ويصعد أحمر ناضجًا حتى شفتينا والوجنات، يثير شهية الأكل، صار جسدانا أنا وهو في تلك اللحظة مائدة شهية من الحلويات، لكنني بقيت مكاني لا يطرف لي رمش، أنوء بحملي، إلى أن بادر هو فحملني وفي السرير الذي طالما بغضته، رقص جسدانا رقصة متناغمة كمرساة تغازل عمق البحر.

كنت أشعر بانتعاش كبير صباحًا بعدما ودَّعْتُ زوجي إلى عمله، شعرت بأنني قد ارتويت روحًا وقلبًا وجسدًا، واسترحْتُ فكرًا، شعرت أنني إنسانة مكتملة الفصول، نضرة كحبة ندى، خفيفة كنغم، فتحت اللاب وعُدْتُ إلى روايتي، لكنني حين كتبتُ وجدتني أنحرف عن مسار الحكاية، لتصير حكاية حب أقرب للقصيدة:

ما لي وللمسيحِ أَخَضَرَ أم ذَهَب؟
وعندِي مسيحي
ظهروه خَلاصٌ
غيابه نصَبٌ على نَصَب
يصنع من جسدي مدينةً مُقدَّسة
يعصر من روحه خمرًا معتَّقةً
لأشرب /

فلا أنا أسْكَرُ فأكتفي
ولا هي تَنْضَب
ما لي وللمسيح أَحَضَرَ أم ذَهب؟
وعندِي مسيحي
معجزتُه الحُب.

ما علاقة ما كتبت بالرواية؟ هل تؤثر الحياة الاجتماعية المستقرة على الكاتب فتُحيله إلى صدًى لمشاعره المفعمة بالكره أو الحب؟ تعلمتُ سابقًا من رواية العميل أن الكره حين يطغى ينفجر في وجه الورقة بطلاً شريرًا أو نهاية مؤلمة، لكنني الآن يُسيِّرُني الحب، ولا أريد أن تتحوَّل روايتي إلى نهر يُغذِّي بحر الحب في قلبي.

لماذا تكتب أغلب النساء أدبًا رومانسيًّا؟

كان عليَّ أن أضع إجابات محتملة لأتجنَّبها جميعًا، فلم أجد إلا جوابًا واحدًا لكل شيء: "نحن نكتب ما يؤرِّقنا ويشغلنا، سواء ما امتلأنا به ففاض على الورق، أو ما جُعْنا إليه فعشناه مع أبطال على ورق."

فكرت للحظات أن أجعل روايتي رومانسية، لكنني أحجمت سريعًا، وأنا الفيزيائية التائهة بحثًا عن حقيقة الروح، والمُستحدَثة في عالم الحب، لن أبدأ برواية عن أعقد ما في الإنسان: التزاوج الروحي.

إذن،

ما هدفي من كتابة الرواية؟ هل الكتابة أو الأدب عمومًا رسائل؟ أيجب أن تخضع لتنظير قوميٍّ أو فكريٍّ ما؟ ماذا لو كانت مجرد ريشة؟ رسم بالكلمات لا أكثر ولا أقل!

ولكنْ، حتى ما نرسمه يخضع لشيء في دواخلنا، فنحن ننتقي ما نراه أو نفكر فيه، إذن نحن لسنا موضوعيين، والأدب ليس ريشة تخُطُّ الواقع دون أن يتدخَّل فيه.

إذن، لماذا نكتب؟

الكتابة لِمَن يعانون من مرض الاهتمام أو الفضول، طبيبٌ نفسيٌّ، يبيعك وقتًا طويلاً ليسمعك، ووقتًا أقصر ليَنسى ما قلته، سيطرة للأنا الآخر فينا، فنفهم أنفسنا أقل أو أكثر.

إنه مرآتنا، التي تخبرنا أننا لسنا بخير، تخبرنا كم كبرنا! وكم تغيَّر مَسار نحلة عابرة في أرواحنا.

الكتابة حيلة ماكرة لتوجيه عيونٍ كثيرة، لتنظر إلى الشيء ذاته معًا، ولعقول كثيرة كي تحتلَّها، ما استسلمتْ لك، معًا.

لماذا أكتب رواية؟ لكل ذلك معًا، أو لحاجةٍ خارج المربع كاملاً.

المبتدئون يكتبون ليُثبِتوا لأنفسهم أنهم بخير، نوعٌ مِن النرجسية السطحيَّة لمُداعبة حلمٍ ما بالشهرة وبالقدرة، أو تقليدًا في التعبير، لإغراء أنثى ما.

أمَّا من يكتب شيئًا جيدًا، فإن دافِعه لا مرايا فيه، لا ينظر إلى نفسه في المرآة حين يكتب، فما يؤرِّقه أجلُّ مِن التفكير في ذاته؛ قد يقلق بشأن رضا الآخرين، وما قلقه ناجمٌ إلَّا عن رغبةٍ مُلِحَّة في وصول صرخته أو آهاته للعالم.

كتابة المبتدئ كالوجبة السريعة؛ سهلة التحضير سريعة الالتهام، احتجْتُ وقتًا طويلاً لأدرك أنني سأكتب رواية، ووقتًا إضافيًا، أخطُّ وأمحو وأقلِّب الفكر لأثبت، ومع ذلك أخجل أن أُسمِّيها رواية.

وهئنذا أشهد ضدَّ نفسي، فأنْ تَنْقَضَّ على نفسك أقلُّ وحشية مِن أنْ يبتلعك الآخرون.

فالكتابة حِمْلٌ لا بُدَّ له من مخاض، والكتابة غيمة، لا تستعجلها بالانهمار قبل أوانها، والكتابة جرح، لا تتركه قبل أن تشفيه مهما طال الوقت، وأنت رسولٌ والكتابة وحيٌ، كن طيبًا وصبورًا، لا تستعجل الوحي، ولا تنتظره بالتوقعات، دَعِ الوحي يقول ما يشاء لا ما تشاء.

قمتُ مِن أمام اللاب، لأبتعد عن الرواية قليلاً، فليس كلُّ بُعْدٍ جفاء، أحيانًا البُعد يقرِّبنا أكثر، قمتُ أتجوَّل في غرف البيت، كأنني أكتشفها من جديد، شعرت أن روحًا سَرَتْ فيها، كأنَّها كانت خرابًا وعَمَرَتْ بالحب، كم شعرتُ بألفة وأنا أقف أمام خزانة ملابس زوجي، كدت أغلقها، لكنَّ البناطيل الجينز والتيشرتات، لفتت نظري، كأنها تنادي عليَّ، لأول مرة أنتبه أنَّ زوجي يقتني ملابس كهذه، دومًا أراه بالزيِّ العسكري، أو بملابسَ قماشيَّةٍ فقط، كانت جميلة، أنيقة، لماذا لا يلبسها؟ تخيَّلْته بها، أعتقد سيبدو جميلاً، نظرًا

لنحافته، فتحتُ أدراجًا وأغلقت أخرى، كان من بين المصاحف في البيت مصحف مهترئ صغير، يخبرني المصحف أن زوجي قد أثقل عليه بالقراءة، حتى ذابت صفحاته مع روح زوجي، كان فضولاً ممتعًا أن أنبِّش في أغراض زوجي الشخصية، ليس فضولَ التجسس، ولكنه فضولُ الاستكشاف، شعرت أن أشياء زوجي تتحدث أكثر بكثير مما يقوله لي عن نفسه.

أشرطة كاسيت وطنية، وأخرى لمغنيين مثل عبد الحليم وكاظم الساهر، يا للرومانسية! لزوجي ذائقة فنية خاصة، آه! إنه يحب نجوى كرم، وأصالة، هذا جميل؛ إنَّ هذا يخبرني أنه يحبُّ المغنيات ذوات أسلوب معين، يهتمُّ بالصوت وليس بالشكل، حسنًا هذا خير من التنانير القصيرة والصدور المنفوخة.

لأول مرة أجلس على كرسي طاولة الطعام الرسمية، كان دومًا يُعجَبُ بها، ويطلب أن نأكل هناك، يقول: "ما فائدة شرائها وعدم الاستمتاع بها وتركها للضيوف؟" وكنت أصرُّ على تناول الطعام في المطبخ، فهذا أسهل وأقرب من نقل الصحون إلى الصالة.

كانت الكراسي عالية، لكنها مريحة، تذكَّرتُ طول زوجي، لأول مرة أنتبه أنَّ طوله في ساقيه أكثر، لذا يحبُّ هذه الطاولة! الكراسي العالية ترُيح ساقيْه.

كانت الأشياء تحدِّثُني بأكثر مما ظننت، كأن لها روحًا خاصة بها، لا تتحدث إلى إذا أَصَخْتَ السمع وشنَّفْتَ الأذن، لأترك لها أن تقول ما شاءت، لا ما تريد سماعه، الأشياء تَشِي بصاحبها إذن بأكثر مما يريد.

سألت نفسي: "كيف يمكن أنْ تحبَّ إنسانًا على البُعد؟ ما لم يُسْمَحْ لك برؤيته على حقيقته؟ كثيرون يسهُل عليهم تزييف حقائقهم، لا حاجة لهم بالكذب، يكفيهم أن يُخفوا عنك الحقيقة."

بدأتْ علاقتي مع الأشياء تتطور أكثر، تلك السجادة، تخبرني أنَّ أهل زوجي قوم بسطاء في ذوقهم رقيقون في حالهم المادي.

بينما كنت أطوي أفكاري طيًّا حول السجادة تفتحت أمامي أحاديث أخرى، ذهب فكري إلى سراديبَ لم تخطر لي من قبلٍ، فالسجادة بذاتها تتحدث عن ذاتها تمامًا كما تَشي بأخبارٍ عن أصحابها، كلُّ خيطٍ فيها حكاية، ائتلاف نسيجها وألوانها معًا حكاية كبيرة، تقول الكثير، كم شهدت هذه السجادة من أناس وأحداث حتى وصلت إلى هنا؟ كم عمرها؟ أو كم سيطول عمرها؟ تلك اللحظة حدَّثني حَجَرٌ في بناء البيت:

- قد أصير مُلْكًا لأحفادكِ مِن بَعدكِ، تموتين وأبقى أنا.

- هل تملك روحًا أكثر مني لتعيش؟

- بل أملك روحًا أقلّ، لذا أبقى وتذهبين.

- لم أفهم؟

- كلَّما زاد نشاط الروح وحيويتها، تسارع موتها باستهلاكها، لكنني الثابت، أو ما تسمونه جمادًا، أبقى طويلاً رغم ضحالة الروح فيّ.

- وماذا يبقيك حيًّا إذن؟

- تذكَّري الأهرامات، منذ آلاف السنين قائمة، لو ملكت روحًا مثلكم لإحتاجت جسدًا شديدَ تفاعُلٍ وحيويةٍ الجزيئات، والروح لا بُدَّ أن ترحل، وساعتها تخمد الحركة فيفنى الجسد الحيّ، أمَّا نحن، فلأننا ساكنون أصلاً، وروحنا ضئيلة فلا نمرُّ بالموت الذي تمرُّون به إلا بعد مدة طويلة جدًا وبطيئًا.

- وما هي الروح فيكم؟ هل تشعرون كما نشعر؟

- نشعر بلا شكٍّ، لكنْ ليس مثل البشر أو ما يسمى الكائن المتحرك.

- المتحرك؟ تقصد الحيّ!

- كلا، مقابل الجماد الحركة، كائنٌ جمادٌ وكائنٌ متحركٌ، وكلُّنا أحياء بدرجات.

- حسنًا سأقبل فكرتك أو أتقبلها، أكمل...

- كما قلت لك: كلما زادت الحركة والحيوية سرع الفناء واستهلكت الروح، سمعتُ أنكم تجمِّدون الجسد بخفض الحرارة، فيحيا فترات طويلة، أليس هذا تجميدًا؟ ألا يقنعك هذا؟ ثم الحيوان يعيش أكثر من الإنسان لأن روحه أقل كثافة، فهو لا يتذكر أحيانًا، ولا يحقد أحيانًا، ولا ينطق مطلقًا، وقوانينه أبسط دائمًا، أما النبات فهو بَيْنَ بَيْن، كائن متحرك في مكانه، لذا يعيش طويلاً كالزيتون، ولكننا نعيش حتى الخلود، نحن خالدون للحقيقة، نحن أكثر حياة منكم بني الإنسان.

ثم صمت الحجر، أو صمتت أفكاري الفيزيائية التي اتَّخذت شكل هلوسة ما، أظنُني بدأت أخلط بين الفيزيائيّ الواقعيّ الماديّ والروائيّ الخياليّ الذي يمنح الأشياء حياة أخرى بنظرة أخرى.

رغم ذلك منحني هذا الأمر التعمُّق أكثر في الأشياء، منحتُها حياة، نعم وحدَّثْتها، وأوَّلْتُ الكثير من التصرفات بطريقتي، حتى بات خيالي جامحًا لا يوقفه شيء، كل ذلك كان تهيئة لي لأكتب، اكتشفت أنني أملك خيال الكاتب ونظرته الخاصة للأشياء وأنني فقط كنت أحتاج للمسة عصا الساحرة الطيبة أو تعويذتها ليثور كل ذلك.

لذا قررت أنْ أغيِّر شكل روايتي، هذه المرة:

المشهد الأول كما هو، كما كتبته لأنه الحقيقة الأكيدة في روايتي، وما عدا ذلك وهم، تلك اللحظة الفارقة هي الصرخة التي يجب أن تُطلَق.

أذكر أني رأيت لوحة بعنوان الصرخة، بحثت عنها على جوجل فوجدتها، مناسبة جدًا، لأستَفِدْ إذن مِن القصة القصيرة التي كتبتُها حول الأم وطفلها، كانت مناسبة جدًا، مناسبة تمامًا لما أريد قوله، بل أعطتني المزيد من الأفكار.

اللوحة ٢:

بينما العائلة في زيارة إلى أحد المعارض الدولية للوحات، راقتْ للأب لوحة مُبهمة غير واضحة المعالم لأحد، حصل اعتراض شديد من الابنة والزوجة، وتمَّ التصويت حول ذلك سريعًا في ردهة المعرض، صوَّتت الزوجة والابنة

ضدَّ اللوحة، وصوَّت الأب لصالحها، أمَّا الابن فقد انحاز للأب بقرار من الأب. اعترضت الزوجة، أمَّا الابنة فقد قالت بلا مبالاة:

- صوتان لصوتين، تعادُل.

- للذَّكر مثل حظ الانثييْن، نَغْلِبْ!

ثم اشترى اللوحة، وحُمِلتْ إلى البيت، على مضض مِن الغالبية.

نظر الابن إلى اللوحة بعد أنْ أخذت موقعها على الجدار في غرفة الجلوس مقابل التلفاز، كانت نظرته مليئة بالامتعاض والشعور بالقلق المُبهم، لعل ما أوحتْ له به اللوحة وهي التي تحمل عنوان "الصرخة" ويبدو فيها رجلٌ غريب الملامح ضاجٌّ بالصراخ وحوله هالات، قد أزعجته، ذكَّرته بقناع فيلم الرعب **the scream** (الصرخة)، وقفت أخته بجانبه وقالت:

- يبدو أنَّ ضعف بصر أبينا قد ازداد لتروق له لوحة كهذه!

نظرت إلى أخيها ثم هزَّت رأسها:

- هل أعجبتك اللوحة حقًا؟ أنت أطرش كيف سمعت ما قاله؟ هل تعرف ما يجري؟ لماذا أكلِّمك أصلاً؟ عائلة من مجانين.

ثم ذهبت، وتَبِعها الأخ، حينما أدارا وجهيْهما للوحة، صارت خطوطها أكثر احمرارًا قليلاً.

خلفَ اللوحة؛ داخلَ اللوحة بمعنى أدق، كانت الخطوط تتحوَّل إلى أمواج بحر يحمل سفينةً قادمة مِن الغرب، نحو غزة، وعلى الشاطئ، هناك

نزل من السفينة شابٌّ ثلاثينيٌّ وسيمٌ أشقر دائم الابتسام، يحمل حقيبة على ظهره وقبعة على رأسه وغليونًا في فمه، لم يفارقوه طوال رحلته الممتدة.

أعدْتُ قراءة ما كتبتُ، إلى أين أريد أن أصلَ؟ وما الذي أريد قوله؟ هذا الفيتوريو عصيٌّ على الوصف، كبيرٌ على القلم، إنه يشبه جيفارا، كلا، بل أراه أبهى وأنقى، لو قارنتُه به سيكون جيدًا للقارئ، لكنَّ مشاعري لن تكون بخير، ضميري يزعجني، حُكِمَ على فيتوريو بأجمل مِمّا حُكِمَ على جيفارا، ألأنني أراه ببعدٍ أخلاقيٍّ أوضح؟

لا يجوز الخوض في خصوصيات الأبطال بكل حال.

هل أوضِّح للقارئ أن اللوحة هي... لا، عليه أن يعرف وحده إلامَ ترمز اللوحة وعلاقتها بالعائلة.

كان قادمًا، عزيزي القارئ، مِن بلاد الرفاهية، تاركًا الأهل والحبيبة، ليقف هناك على شواطئ غزة، تبزُّ غزة اليوم أختها عكا بأسوارها البشرية.

سكن فيتوريو في شقة صغيرة في الطابق الثاني، في مخيم جباليا مع رفيقٍ له من بلاده "إيطاليا"، يدعى كين أوكيف، واستطاع بسهولة أن يكسب ثقة الناس، خاصة الأطفال.

أكل المقلوبة الغزاوية الحارَّة جدًا، فأهل غزة حين يطبخون يستعملون للأكل الملح والفلفل الحارّ، يتذكَّر فتحي (أنت تعرف فتحي الآن عزيزي

القارئ، الذي ذَكَرْتُه في أول روايتي هذه، نعم هو فتًى غزاويٌّ في الرابعة عشر من عمره.)

يتذكَّر فتحي أنَّ فيتوريو أصيب بدهشة بالغة وهو يشكو لصديقه الصغير حرارة الأكل، فيردُّ عليه فتحي قائلاً:

– حين ترغب أمهاتنا بعقابنا، تَحْرِمُنا مِن شطيرة الفلفل الحارّ، نحن قوم دَمُنا حارٌّ وأرواحنا كذلك.

***

كان الأب يجلس قبالة التلفاز، نادى الشبح العابر أمامه، فجلست:

– ماذا ستطبخين اليوم يا عزيزتي؟

– دعْ زوجتَكَ تطبخ.

– آه هذه أنت يا ابنتي؟ أين أمك؟

– ليستْ أمي، أخي يعبث بأشيائه.

– ماذا أكلتِ؟ أين... زوجتي؟

– نحن نأكل أيَّ شيء يتوافر لنا، لماذا لا تصلح نظارتك؟

– أخوك يحتاج عملية لأذنه.

– أنتَ تشاهد فيلماً مترجمًا، سأغيِّر المحطة، هذا فيلم عربي قديم يناسبك تمامًا.

- أحضري لي شيئًا آكله.

- زوجتك ستفعل، أنا خارجة.

حينما رفعت صوت التلفاز توسَّعت الصرخة في اللوحة، وزادت الدوامات احمرارًا...

وتألَّم فيتوريو في ذلك اليوم، كان الصباح صيفًا لم تَبِنْ بوادره بعد، استيقظ مبكرًا جدًا، وارتدى ملابسه على عجل، وخرج يترنَّح ثملاً بهذا الهواء الذي تتعمَّق رائحته في جسده كلما اقترب من شاطئ البحر، لوَّح للصيادين من بعيد، التَفَتَ خلفه على وقع خطًى مسرعة، فرأى فتحي يركض نحوه، يلوِّح له، توقَّف قليلاً، حتى أدركه الفتى فوقف يلهث، ثم وضع يديه على ركبتيه، ورفع رأسه مبتسمًا وقال:

- أنتَ متأخِّرٌ يا فيتوريو، مثلي.

ثم أشار إلى الشاطئ:

- سبقني أبي، ورفض أن يوقظني لأنه يظنني مريضًا اليوم.

لم يفهم فيتوريو كثيرًا مِمَّا قيل، فهو لا يتقن العربية ولا يتذوَّق معانيها، لكنَّ ملامح الفتى وابتسامته غمرا روحه المرهفة ورغم أنه لم يدرك الحديث فقد أدرك مراميه، فابتسم وربَّتَ على شعر فتحي وسارا معًا حتى وصلا حيث مراكب الصيادين التي كانت تتهيأ للانطلاق.

في ذلك اليوم بقيت الأمور هادئة لساعاتٍ، والقوارب تخترق البحر، حتى أغرى البحر أهله بالمزيد، يُلقون شباكهم فيُلقي شباكه، يبحثون عن السمك، ويناديهم لأحضانه أعمق، حتى تجاوز قاربٌ العمق المسموح به، (لم يتآمر البحر عليهم، لا تَلُم البحر عزيزي القارئ لا ذنب له، هو فقط مشتاق لأهله شوق الأم لولدها، وقد تدفعها اللهفة لبعض الأخطاء أو الأذى غير المقصود.)

النيران من كل الجوانب، والصيادون يخفضون رؤوسهم، بعضهم يلقي حمولته من صيده الثمين في عُرض البحر، كأنه يعتذر عمّا فعل، حوافّ القوارب لا تصلح للاختباء، خفض فيتوريو رأس فتحي للأسفل، واقترب من مقدمة القارب...

قطع انسجامي فيما سيكون جرس الباب، لعلّه زوجي، قمت لأفتح وأنا مشغولة الذهن بفتحي، لماذا يسطو على روايتي؟ أليس فيتوريو هو البطل؟ من البطل إذن؟ من يقود الآخر؟ هذا الفتى الصغير يسيطر على روايتي بأكثر ممّا ظننت.

فتحتُ الباب شاردة الذهن، أيقظني صوته كجرسٍ إضافيٍّ فتحَ باب عقلي له بعد أن نادني جرس الباب.

- ما بكِ؟

- لا شيء، مشغولة بروايتي فقط.

احتضن كتفي ونحن نتمشى سويًا نحو غرفة الجلوس، أمسكتُ بيده المعلَّقة على كتفي حين جلسنا، وسألته:

- لمْ تخبرني أنك من عشاق الميكانيكا.

- كيف عرفتِ؟

- عبثت بأغراضك، استجوبتها فاعترفت سريعًا بين يدي.

- أغراضي خائنة واشية!

ضحكنا سويًا ثم صمت قليلاً، وقال بعد تردد:

- عندي أخبار لك، أرجو أن تتفهميها جيدًا.

- خيرًا. (وخفق قلبي كالعادة حين يهيِّئُني أحدهم لخبر ما، كم أودُّ توقُّفَهم عن هذه العادة البغيضة، فأنا أحب أن يداهموني بخبرٍ مهما كان قاسيًا بدل هذا التعذيب النفسي المُمهِّدِ له)

- تلك الفتاة، ثبت لنا أن كلامها صحيح، وقد اعترفت باسم الشاب الذي أوقع بها، وقد قمنا بتوظيف من يراقبها، وحاليًا المؤشرات تدلُّ على توبة صادقة، وقد وافق أحد الشباب الزواج بها.

- مرة أخرى؟ لا حلَّ سوى الزواج؟

- عزيزتي، سأخبرك قصة.

- تفضل، لكنْ قبلَ ذلك، ماذا جرى للشاب؟

- تمَّ خطفه والتحقيق معه.

- ماذا ستفعلون به؟

- يبدو أنه لا وزن له، فلم يطالب به أحد.

- أهله تقصد؟

- بل من يعمل معهم، كان يمكن المطالبة به أو تهريبه أو التدخُل. يبدو أنه سيطيل المكث في السجن، أو سيُخلى سبيله، فقد فُضِحَ اجتماعيًّا تقريبًا.

- سيكون منبوذًا.

- الأرجح. المهم سأخبرك بالقصة: سمعتُ من صديق لي أنّ نجم الدين أربكان، وقتما كان رئيسًا لبلدية أسطنبول، فعل الكثير، ومِمّا فعله أنه زار مرة الساحة التي تجتمع فيها البغايا، ثم أمر موظفيه في اليوم التالي بإحضارهن وسؤالهن عن أسباب عملهن، ومدى استعدادهن لترك هذا العمل، حينما وجد تجاوبًا من غالبيتهن، أحصى عددهن فكُنَّ أربعمائة امرأة، وكانت الخطة أن يبحث عن أصحاب العمل الشاقّ جدًا والمستوى المتدنّي معيشيًّا من الشباب العُزّاب غير القادرين على الزواج، واقترح عليهم أن يزوِّجهم بهؤلاء النسوة على أنْ يتركن مهنة الدعارة وتتغير وظائفهم إلى وظائف أكثر راحة، مع تعهُّدٍ بتكفُّل البلدية بمصاريف الزواج كاملة في حفل جماعي كبير. وبالفعل تمَّ الأمر، ووافق أربعمائة شاب على العرض، وتمَّ الزواج بالاتفاق. بعد سنة، أراد أربكان أن يفحص ما آلت إليه الأمور، ليختبر مدى

نجاح مشروعه أو لنقل نظريته، فوجد من أربعمائة أسرة فقط، وركزي الآن على (فقط): ثلاثًا وعشرين أسرة فكَّت روابطها، واستمرت البقية. ها؟ ما رأيك؟

للحقيقة، تلوَّثت قناعتي برفضي المطلق لفكرة التزويج كحلٍّ لمشاكل اجتماعية أخلاقية، وجدت ما فعله أربكان رائعًا، بل وجدت قبول الشباب هو الرائع، وجدت أنه مجتمع يريد أن يعيش بدعم بعضه بعضًا. قلت ودموع التأثر تتوارى خلف الصوت المرتجف:

- قصة مؤثرة، وذات قيمة عالية.

- لا أقصد أنَّ الفتاة التي تعرضت لضغوطات نفسية وجنسية، كالبغايا، لكني قصدت أن هذه النوعية من المشاكل تتوقف بتكوين أسرة وتحطيم الدائرة التي تحاصر صاحبها، قصدت أن الشاب الذي يأخذ بيد الفتاة نحو أسرة سويّة إنما هو الحَصَان والأمان لها من كل رجل آخر يحاول سرقة وجودها نحو الهاوية.

- هل أفهم من كلامك أن المرأة غير المتزوجة...

- سيبتلعها ثقب الماضي الأسود لأنها إذا خرجت ولم تجد قوة أكبر تُدخِلُها في دائرة أخرى، ستدور في الفراغ.

ثم قال بانفعال تقريري:

- هذه هي الحياة! هناك أمور لا يمكننا إنكارها مهما حاولنا.

- جميل أن الشباب تقبل فكرة أربكان لأجل المجتمع بكامله.

- هذا يدعم فكرة أن الجاسوس يمكن أن يتوب لو رغب بذلك حقًا، لكنه يحتاج إلى دائرة أخرى تبعده عن الأولى، كذلك يحتاج إلى من يعرف حقيقته فيكون عينه الثالثة التي تبصِّره بما قد يعمى عنه أو يتكاسل فيه.

- بكل حال، أتمنى لها حياة سعيدة. الغداء جاهز، هل ستأكل؟

- بلا شك.

بعد الغداء ذهب زوجي ليغفو قليلاً، لم أستطع الخوض في روايتي، أمرُ الروح مازال يشغلني، أشعر أنه إجابة كل شيء، ومفتاح كل شيء، كفيزيائية، تعاملت مع القوانين الجافة لفترة طويلة، بدأ عالم آخر يجذبني إليه، عالم أشعر ولا أدرك علاقته بالقوانين الفيزيائية وبكل شيء.

عالم الروح أمرٌ شاقٌّ وصعب، الفيزياء تدرس المادة لكن الروح شيء ما وراء المادة، مهلاً! أحقًا لا يمكن تفسير الروح ماديًّا أو علميًّا؟ طوال الوقت أرفض هذه الفكرة، هذا هو ما يشغلني تحديدًا: تفسير الروح ماديًّا أو فيزيائيًّا.

لأرتِّب أفكاري إذن؛ الروح مرتبطة بعالم الأحلام، حين تخرج من الجسد، ومرتبطة بالحدس، كيف عرفت أن أختي قادمة؟ هل همس شيء لي؟ أم رأت روحي ما لم أره؟ وإن رأته فلا شك أنها رأته بعيدًا عن الحواس المادية التي نعرفها، أيْ بعيدًا عن حواس الجسد، والروح مرتبطة بعلاقتي بزوجي

وبروايتي، وبأحلامي، كيف عرفتُ ما ستؤول إليه الأمور وكان القوة التي تدفعني للمسير؟ ما علاقة الروح بالمستقبل؟

هنا، تذكرت نظرية أينشتاين، وعلاقة الزمن بالمستقبل وبالضوء وبتسارع الزمن، تداخلت الأوراق كثيرًا، وتدافعت الأفكار في رأسي، أحقًا؟ أمعقول ما أفكر فيه؟ كيف سأتأكد؟ لا بُدَّ من دليل على هذا الجنون. أذكر كلام أبي، "الروح خفيفة الوزن كالضوء"، و "الروح للجسد كرائحة القهوة"، و "الروح من أمر الله"، بل هي نفخة من روح الله، أليس الله من نور؟ أليس النور ضوءًا؟

هنا: خطرت لي فكرة مجنونة: لماذا تكبَّر إبليس على آدم واستعلى؟ ألم يكن إبليس من نار؟ أليست النار شكلاً أو درجة ثانية من درجات النور؟

ما هي أشكال النور؟ النور الصافي المجرَّد، نور الشمس الناتج عن النار، نور البرق...

هل يعقل أن إبليس تكبَّر على آدم تكبُّر النار المضيئة نورًا على الطين القاتم المُعْتِم؟ فلمَّا نفخ الله روحه في آدم شعر إبليس بغش أو خداع ما؟ إنه يتطاول على الإله! يرى أنه والإله من المادة نفسها والخلاصة نفسها "النور"، بغضِّ النظر أهو نور صافٍ أو نور ناريٌّ.

هذا هو إذن، الروح مرتبطة بالضوء والزمن والنظرية النسبية، وهذا يفسر كل شيء، كل شيء حرفيًّا، كل الحياة، والعلاقات، والفشل والنجاحات.

حقًا، الفيزياء عظيمة.

ثم ضحكت وقفزت، حتى رأيت زوجي يقف أمامي وقد اعتراه خَبَل مِن المشهد، لعله يظنني مخبولة بدوري.

سِرْتُ نحوه كالمخمورة منتشية، وذراعاي مفتوحان، وحضنته بقوة بفرح.

كيف سيفهمني؟ طلب تفسيرًا، لكنْ لا يمكننا تفسير كل شيء دومًا، قلت له: "وجدت لروايتي فكرة رائعة، لكنني أحتاج بعض معلومات حول غزة الآن منك."

كان مترنحًا بين الدهشة والنعاس، فأجَّل حديث غزة، مما سبب لي ارتياحًا كبيرًا، فذِهْني مشغول بشيء آخر للحقيقة.

ومع ذلك قمت بهمَّة أكتب مشهدًا مؤجَّلاً خطر لي في الرواية، خفت أن يَضْمُر لو أجَّلْته أكثر، فكتبت:

بدأ فيتوريو يتماهى مع روح المكان، كانت غزة تحصد الجوائز الكبرى من مشاعره، حمل حنظلة على ذراعه وشمًا، وعانق فلسطين كوفيةً لا تفارقه، وقاوم كثيرًا، حتى انحَفَرَتْ كلمة "مقاومة" وشمًا على باطن ساعده الأيمن، بدأ يتعلم بعض الكلمات العربية مثل "السلام عليكم، مرحبا، كيف حالك، شكرا، مقلوبة"، كلَّما نطق بالعربية أمام جَمْع ضحكوا من طريقته، بلا سخرية، كان يشاركهم الضحك، ويجتهد أكثرً، طلب منه فتحي أن يعلمه

بعض الكلمات الإيطالية مقابل تعليمه العربية، فوافق، علَّمه كلمات مثل: "Ciao/Buongiorno/Grazie".

" قال له فتحي مرة:

- أنتم الإيطاليون تمطّون الكلام كأهل الخليل عندنا، تقولون Grazieeeee! شوووووكرًا!

ضحك فيتوريو، لم يفهم كل شيء، لكنَّ تلك الروح... حسن الظن ذاك... المحبة الناشئة، تجعله يدرك براءة الخطوات كلها.

قال فتحي بعدما ضحكا معًا:

- فيتوريو، لقد أنقذت القوارب البارحة، خفتُ عليك، كنت ترفع العلم الفلسطيني، وتقف في مقدمة القارب كأنك بوباي.

ثم وقف فتحي يصور المشهد ويقلد صوت الرصاص، ثم حمل علمًا، ولوَّح به متمايلاً كأن الموج تحته.

ضحك فيتوريو كثيرًا، لكنه كان مهمومًا بأمر آخر، خطر له وقرر أن ينفِّذه مع صديقه الإيطالي الذي يجيد العربية ويساعده كثيرًا في الترجمة وتعرُّف طبيعة الحياة، فذاك الصديق الإيطالي أتقن العودة إلى غزة كل مرة يُرحِّلونه فيها، منذ ثلاث سنوات.

مساء، حين اجتمع فيتوريو بصديقه اقترح عليه أن يقوما معًا بمشروع بثٍّ إذاعي عبر الإنترنت، سأله صديقه:

- ما فائدة الإذاعة؟

- سنقوم بالحديث عبرها للعالم عن تجاربنا في غزة، سنخبر العالم بما يجري.

- لقد اتفقنا منذ البداية ألا علاقة لنا بالسياسة، ستصير هكذا صوتًا يرضي طرفًا ويغضب آخر، قد ترفض الحكومة الإيطالية موقفك.

- كلا، لا علاقة للإذاعة بالسياسة، لن نتحدث عن الكبار، فهذا شأنهم، سنتحدث عن الصيادين، وعن الأطفال، وعن شجر الزيتون. هذه صوتها مخنوق مبحوح، نحن سنكون صوت هؤلاء إلى أن يصير لهم صوت.

عندما، تأسست الإذاعة، تعطَّل التلفاز في بيت العائلة، نظرت الفتاة للوحة، تقول لوالدها:

- أعتقد أن في اللوحة جمالاً ما، لم ألمح من قبل الرجل بالقبعة، اللوحة تقول أكثر مما ظننت.

- ارفعي صوت التلفاز قليلاً إذن، اشكريني لهذه اللوحة إذن.

- الرجل أنيق بقبعته، رغم أنه يبدو شبحًا لا ملامح له، يولينا ظهره، نحو شاطئ البحر، لكنه قد خفف من حدة الصرخة.

- حمقاء!

- لماذا؟

- الصرخة اسم نتذوقه وليس صوتًا نسمعه، كيف ترين اللوحة؟

- أكاد أسمعه للحقيقة، ابنك الأطرش لا يسمع، وأنت ضعيف نظر.

- أين زوجتي؟

- ابحث عنها، اتصل بها.

- أخوك بخير؟

- هل تعرف أين تذهب زوجتك أو ماذا تفعل؟ أنت تنفق عليها بلا حساب، ونحن... أنت لا تهتم بنا.

- مَن يهتم بمَن في هذا البيت؟

- ها هو ابنك.

جلس الفتى مقابل أبيه، كانت اللوحة فوق رأس الأب، تأملها الفتى طويلاً، لمح للحظة أشخاصًا يتحركون في المشهد، هزَّ رأسه ورمش بقوة، أحقًا ما رأيت؟ بيتنا تسكنه الأشباح، واللوحة مسكونة كذلك، يجب أن نتخلص منها.

قالت الفتاة وهي تراقب أخاها:

- أبي، يبدو أن ابنك معجب جدا باللوحة، فهو كثيرًا ما يتأملها، ويتأثر بها.

– لا بد أن يفعل، إنها لوحة نادرة، هذه الزهور في اللوحة أصلاً نادرة.

نظرت إليه ابنته بدهشة مصدومة، ثم قالت:

– أصلحْ نظارتك، افحص بصرك. وأنت تعال معي.

ثم جرَّت أخاها من يده، وخرجت.

***

– سأسمِّي إذاعتي: إذاعة حرب العصابات.

– يا له من اسم عجيب يمتلئ وحيًا!

– وقد قدَّمت طلبًا لكل من إذاعة بوبلير الإيطالية وصحيفة إيل مانيفيستو لنشر أخبار غزة هناك.

– أنت نشيط جدًا يا صديقي، أنت تقوم بعمل رائع.

– الرائع هو يوم قدومي إلى غزة، لقد كانت واحدة من أسعد لحظات حياتي.

– أذكر ذلك جيدًا، لقد قبَّلت الأرض يومها، كان مضحكًا وغريبًا، كالمُهجَّر العائد، لقد أشعرتني أنك فلسطيني حقًا. أليس من أجدادك فلسطيني؟ لعل جدك عشق فلسطينية.

ثم ضحك بشدة.

– جدي مقاوم، فقد حارب في وجه النظام الفاشي السابق.

– أوه! وأمك رئيسة بلدية، يا لها من عائلة!

- كفاك، نم الآن، أمامي غدًا يوم طويل، سأرافق الصيادين.

- ستأكل صيادية إذن؟

- أحبُّها، لولا الطعم الحارّ الرائع فيها!

- رائع أم مريع؟ هل أصبحت تحب الحارّ فجأة؟ كنت تشكو حرارة الطعام هنا.

سبتمبر، ٢٠٠٨:

" هذه اللوحة تثير جنوني."

ثم خرج.

اللوحة مغطاة بستارة سوداء كثيفة، دخل الأب فلم ينتبه لذلك، رفع صوت التلفاز يتابع فيلمًا عربيًّا قديمًا.

كانت اللوحة بعد هذا التعتيم، تتوسَّع دوائر الصرخة فيها حول الرجل وتزداد احمرارًا، أصبح صوت الصرخة المكتومة أشبه بأزيز جارح للأذن وللروح، رفع الرجل صوت التلفاز أكثر فأكثر، قلَّب المحطات وغرق في ضحك وهو يتابع مسرحية هزلية.

خرج فيتوريو يومها صباحًا، وقد اعتنق كوفيته، واعتمر قبعته، وتسلح مزاجه الباسم بغليونه، كان الصيف ما يزال يمنح من نفسه للبحر والأرض، دافئًا ضبابيًّا مثيرًا للمشاعر المرهفة، لم تكن هذه الأجواء معتادة لفتى ميلانو

الذهبي، حيث ولد في بيسانا بريانزا، رغم كثرة أسفاره حول العالم، يتذكر أنه منذ اجتاز اختبار البالغين الذي يسمح له بالسفر خارج البلاد، بدأ بالترحال حول العالم، لكنَّ القدس هي التي شدَّته إليها جدًا، هناك حين زارها قبل خمس سنوات، عرف أين سيكون لاحقًا، لقد وجد روحه التائهة أخيرًا، في تلك اللحظة فهم أن عمله سيكون مكثفًا في هذه البلاد.

هبط جسده المُنحدَر الذي صار رمليًّا أكثر إلى الشاطئ، وهبطت روحه المحلِّقة في سماواتها إلى الواقع، لوَّح للذاهبين إلى رزقهم وحتفهم اليومي، منضمًّا إليهم في مقدمة القوارب التي ولجت البحر كما ينسحب الكحل في العين، بدأ النهار يتصاعد وتكاثفت الحياة مع بزوغ الشمس، كان يومًا هادئًا وادعًا، وفيتوريو يستمتع بمدِّ الشِّباك وسحبها مع الصياد الذي أشركه قاربه، لكنَّ شيئًا فيهم جميعًا بقي خائفًا يترقب، فلا سلامة لموسى وفرعون يترصَّده، مع ذلك مرَّ الصباح بهدوء، وعاد الصيادون إلى الساحل.

لكنْ ذلك لم يطل، بمجرد أن غطى الفتى اللوحة، حتى أعتم المشهد كاملاً، وتجرأت البحرية الإسرائيلية فقصفت الساحل بالمدافع المائية التي أعلنت هدفها بوضوح؛ استهداف كل ما هو متحرك، لم يبالِ فيتوريو، مع تعالي الصرخة، قذف نفسه في وجه القذائف التي طارت نحو صياد فلسطيني، فأصابت فيتوريو شظيَّة زجاجية في ظهره، فسقط، لم يمت، لكنه من شدة الألم فقد الإحساس.

طال بقاؤه في المشفى، وأصر على أن يتعالج في غزة، رافضًا الرجوع إلى بلده.

أحتاجُ إلى استراحة قصيرة من الكتابة، استراحة تهمس لي بها الشخوص ماذا أفعل وماذا أقول، فشخوصي/ أبطالي/ أصدقائي، يهمسون لي بما يريدون أن أقوله عنهم، فيتوريو يطالبني بالحديث عن غزة، عن حياة غزة، عن أهلها، عن شوارعها، عن أوجاعها، لتكتمل الصورة، لأنه لو كتب رواية فأنا متأكدة أنه سيتنحى وسيجعل غزة البطل، فللمكان روح أيضًا.

الصيادون يطالبونني بالحديث عن معاناتهم، معاناة تصريف البضاعة، والمخاطر اليومية، والموت الذي بات معتادًا، وفتحي يريد أن أقول كم جعلته الحرب ناضجًا، وأبقت جرحه طازجًا! وكم هو فيتوريو... يريدني أن أقول حرفيًّا عن فيتوريو:

قليل من الناس يموت ليحيا

أكان عليك أن تموت لنعرف كم أنت جميل؟

وكم أنت حيٌّ وحيٌّ وحيٌّ في الذاكرة؟

لكنَّ مسار الأحداث وثياب الأدوار التي لبسها أبطالي، والمواقف، والفوضى التي أحدثوها أو حدثت لهم تُجبرني على أمر آخر؛ اعترف لأبطالي أني رغبت جدًا بالحديث عن كل ما يطالبونني به، لكنهم حينما اختاروا بداياتهم، دفعوني لاختيار نهاياتهم.

لا، لم أختر البدايات مطلقًا، أنا فقط عشت معهم واستمعت إلى همسات ملامحهم وابتساماتهم وأوجاعهم، فقلت ما أسروا لي به.

بطولة فيتوريو وما فعله، يسيل دموع قلمي حرقة وشوقًا إلى الحديث عنها، لقد أحببتُه وأحببت الحديث عنه حتى بتُّ مولعة بتفاصيل مَجْدٍ لا أريد أن يصير من رماد.

قررت أن أسأل زوجي عن وضع غزة الآن، انتظرته حتى يعود، كنت قد لاحظت بين أشيائه ما همس لي أنه يحب غزة حبًّا عميقًا، أفلاطونيًّا، لا يزيده أو ينقصه شخص أو فصيل أو حدث.

- حدِّثني عن غزة.

- كان الله في العون.

- ظالمة أم مظلومة؟

- المكان والإنسان والحقيقة مظلومون.

- والظالم؟

- الإنسان ظلم الإنسان، والسياسة ظلمت الحقيقة، والتاريخ ظلم الجغرافيا، أقصد ظَلَمَ المكان.

- هل تنحاز إليها؟

- أنحاز إليها كاملاً، لأسباب غير أسبابهم.

- كأسباب فيتوريو.

قلتها وأنا سارحة.

نوفمبر، ٢٠٠٨:

- مَن غطّى اللوحة؟

- ....

- أنتَ فعلتها، فلماذا؟

- ....

- أخي، أيها الأطرش! رغم كل ذلك، فقد حُسِبَ صوتك لصالح اللوحة.

كوَّرتِ الغطاء وخرجتْ.

"تبًا! لقد عادت اللوحة للحياة، ليتَ سفركِ طال أكثر، شهران وأنا مرتاح هانئ البال، هذه اللوحة تمزِّق مزاجي، أوه! إن سحب الغطاء عنها جعلها تميل. لن أعدِّل وضعيَّتها، فلتبق مائلة كميزان غير سوي."

ثم انحنى برقبته وهو يتأمل اللوحة المائلة، ووضع يديه على خديه مقلدًا، وفتح فاه عن آخره، ولم يتوقف عن هذه السخرية إلا حين صفعته كفٌّ على رقبته، لم يشعر بأنفاس أبيه وهو يقترب منه مدققًا النظر فيه.

- ماذا تفعل يا ولد؟

"لماذا يصفعني هذا الرجل؟ في المرة القادمة سأبادله الصفعة."

- أليست لوحة بديعة؟

وقف متفاخرًا يستجدي جمال لوحته الأثيرة، زمَّ عينيه وحاجبيه وشفتيه، وأشار للوحة بعصاه وقال لابنه:

- انظر، لقد قيل لي إن الأزرق والبرتقالي أكثر لونين ينسجمان معًا، هل هو برتقالي أم أحمر؟ أراه أحمر بلون الدم.

"هذا الرجل منذ أن ماتت أمي، وتزوج تلك الحيزبون التي لا نعرف لها أصلاً، ولا نراها إلا مادَّة يدها طلبًا للنقود. أمي، كانت رفيعة الذوق، لو عاشت لما كانت هذه اللوحة، اغتالوا أمي فضعنا."

- أريد أن آكل لأشرب دوائي.

ثم أشار بيده نحو فمه، علَّ ولده يفهمه.

"لا أريد أن آكل، لا شأن لك بي، ولن آكل مطلقًا من طعامكم الجاهز. سأشتري بعض الخبز وأغمِّسه بالملح."

ثم خرج، وانهار الأب على مقعده من الجوع والتعب.

كانت اللوحة مائلة حقًا، مائلة كثيرًا، خطوط الأفق تزداد احمرارًا وتمتزج مع خطوط الأزرق الممتد عبر البحر، سمع الأب صرخة مكتومة، تلفت حوله، لم ير شيئًا ولم يسمع صراخ الصيادين والأطفال داخل اللوحة ولا

رأى فيتوريو وهو يقف درعًا بشريًّا حاميًا لصياد كادت ترديه رصاصة، في البحر.

لم تُصِب الرصاصة أحدًا، لكنها أغضبت مُرسِلها، اعتبرها خائنة لم تؤدِّ رسالتها، فعاقبوا فيتوريو لأن الرصاصة تحالفت معه ضد أهدافهم، وتم ترحيله إلى إيطاليا.

- مَن يصرخ؟

قالها الأب بصوت عالٍ، وهو يرفع رأسه مستشرفًا.

"لا بد أنه ذاك الولد الأطرش العاقّ، أين زوجتي؟"

دخلت ابنته على إثر صرخته تهرع:

- لِمَ تصرخ؟

- هل التلفاز مفتوح؟

تلفتَتْ حولها، ثم سألته:

- من أين تأتي بالنقود وأنت قاعد في البيت؟ من أين تعطي زوجتك مصروفها اليومي؟

- زوجتي غنية جدًا.

- هل تنفق عليك؟

- من سيرث كل أموالي؟

- سأفتح لك التلفاز.

- أها! إنه مغلق إذن، من أين جاءت الصرخة؟ من يصرخ؟

فتحت التلفاز، المحطة الأولى قناة إخبارية، قلَّبت المحطة، لكنه طلب أنْ تعيدها لحالها ليسمع الأخبار، أعادتها، ووقفت عاقدة يديها حول خصرها تنقِّل بصرها بين التلفاز وأبيها ساخرة الملامح، في التلفاز خبر:

"هذا وقد صرح السيد فيتوريو أريغوني، أنه سيعمل على إحياء "حركة التضامن العالمية" من أجل غزة"

ثم صورة لشاب ميلانو الذهبي، يبتسم ويرفع إشارة النصر، لفت نظرها جماله ونظرة الحب في عينيه، تلك الشقراء بجانبه، تبدو كصديقته، تقف بجانبه امرأة كبيرة في السن، هل هي أمه؟

جلست الفتاة تراقب المشهد باهتمام بالغ، تنظر إلى أبيها بطرف عينها: "لماذا يهتم؟ هل يرى ما أراه؟" تقول الأم للصحفيين: "المكافحة من أجل الحرية تسري في دماء ابني، نحن عائلة قاومت الظلم طويلاً."

في شريط الأخبار يكتبون أنها السيدة إيجيديا بيريتا، سيدة قوية الملامح، توحي بالثقة والصرامة، إنها رئيسة بلدية إذن! (ما بك عزيزي القارئ؟ أتشكِّك في المعلومات؟ إنها في الأخبار؟ اسأل عم جوجل سيخبرك، فالأسماء لديك الآن.)

- أبي، ماذا يجري؟ من هذا؟

- وما أدراني؟ إنه يقول كلامًا عجيبًا، شخص يحبُّ أن يتعب نفسه.

يصرِّح فيتوريو للصحفيين قائلاً: "إسرائيل واحدة من أسوأ أنظمة التمييز العنصري على مستوى العالم."

- اقلبي المحطة، (قالها وهو يمصمص شفتيه) هذا رجل واهم يعيش بطولات الأفلام.

- ماذا ستشاهد؟

- أي شيء يسلِّيني لحين عودة زوجتي.

- على فكرة، اللوحة مائلة، سأعدِّلها، لقد أصبحت جزءًا من ديكور البيت لا يمكن قلعها، كشوكة نبتت في بيتنا.

ثم عدلت اللوحة وخرجت.

ديسمبر ٢٠٠٨:

- فيتوريو... فيتوريوووو.

ثم ركض فتحي ملوحًا للعائد، وقف لاهثًا بين الجموع التي توافدت لاستقبال فيتوريو.

كان حليق اللحية والشارب، فبدا شعره أكثر سوادًا، تحت قبعته التي باتت كبتلات الزهرة لا يمكن نزعها، كوفيته الفلسطينية تعانق هواء غزة

بفرح ظاهر، حين نزل من السفينة القادمة محمَّلة بالمتضامنين، هبط يقبِّل الأرض، هل سجد؟ كلا، فقط قبَّل الأرض، (إنه يتوحد مع روح المكان، هل أخبرتكم أنَّ غزة عشيقته السريَّة التي لا يطيق فراقها، ويتمنى الموت في حضنها؟ حسنًا ها قد عرفتم الآن، فلا تتعجبوا أن ينحني ليبادل الأرض الروح).

- ها قد عدت!

- نعم.

ثم نظر للكاميرات بشفتين فكَّ ارتباطهما حول غليونه بما يشبه ابتسامة متهدلة، وهو يستعرض جواز سفره الفلسطيني بيد، وقلادة من الفضة باسم فلسطين بيد أخرى.

كان حاجباه الكثيفان متباعدان متهدلان للأسفل وخط شفتيه العلويتين، والخطوط أسفل خديه على جانبي فمه، كل خطوط وجهه كان متقوسة كمهرج حزين، لكن خلف ذلك القناع -إن كنت تجيد النظر- عينان كالرادار حادَّتان واثقتان لمحارب شرس يعرف أهدافه جيدًا.

- هذه الصيادية... (ثم أكمل بيده أنها ممتازة)

- صحة وعافية.

قال الأب الذي سارع لاستضافة فيتوريو نيابة عن ابنه فتحي، وهزَّ كين أوكيف، رأسه موافقًا وهو ينفخ فمه لحرارة الطعام اللاهبة كصيف.

- فيتوريو؟

- نعم، فتحي؟

- ما معنى اسمك؟

لم يَحْتَجْ فيتوريو لترجمة الكلام كالسابق، قال:

- فكتور!

قالها بفخر، لكنه فتحي لم يفهم شيئًا.

هزَّ كين رأسه بأسف ضاحكًا، وقال لفيتوريو:

- هذا اسمك بالإنجليزية، معنى اسمه (وأرسل كلامه لفتحي الذي انتبه بشدة كأنه يسمع مزامير داود تنشد):

- اسمه بالعربية: نصر... منتصر.. منصور.. شيء كهذا.

- عظيم!

فتح فتحي عينيه دهشة، قالها والطعام يملأ فمه، فسقطت حبات الأرز، ليوبخه أبوه على سوء أدبه أمام الضيوف، ولَكَمْ شعر بحرارة الخجل تتصعَّد في وجهه، لولا أن ربَّت فيتوريو على ظهره مبتسمًا.

حينما عاد فيتوريو متأخرًا إلى بيته، بعد الاستقبال الحافل من زيتون غزة وشاطئها وقواربها وصياديها وأطفالها، صنع لنفسه ولصديقه كين قهوة إيطالية مركَّزة كان قد جلبها معه.

- أوه! فيتوريو، فيتوريو العزيز، هذا رائع منك! أنت رحلت إذن لتجلب القهوة الإيطالية وتعود.

ابتسم فيتوريو وأردف:

- ولآكل البيتزا هناك وحدي، ولأراقص الجميلات دونك.

تنهد صديقه:

- لماذا لا يمكنني أن أحب فتاة من غزة؟ إنهن ينظرن إلينا ويبتسمن بخجل ثم يمضين. ألم تحاول أن تغازل إحداهن؟

- كفى كين! أنت تعرف عادات المكان، لا يليق بنا هذه الإساءة لأهل المكان.

- معك حق، لكنني أشعر بجفاف مشاعر، كما أشعر بضمورٍ في فحولتي.

- تصبح على خير يا صديقي.

في اليوم التالي، رافق فيكتور كما أحبَّ فتحي أن يناديه، بعض المزارعين على الحدود مع خطوط النيران الإسرائيلية، وحينما انهمر الرصاص عليهم وقف بكوفيته التي لم ينزعها منذ لبسها أول مرة، يصرخ بأعلى صوته: "الحرية لفلسطين! الحرية لغزة."

نادى فتحي عليه بأعلى صوته، لكنه لم يستجب له، ووقف جدارًا حاميًا حتى أصابته رصاصة مخترقة جسده، فسقط الجدار، وهرع إليه المزارعون ينتشلونه من مرمى النيران.

بقي فيكتور في المشفى مدة قصيرة، لم يتوانَ بعدها عن مهمته المقدسة، فكثيرًا ما كان يُرى يُنْزِل صناديق الأدوية والمساعدات من السفن القادمة لكسر الحصار.

وبينما كانت وفود المتضامنين تهبط من السفينة، صرخ أحدهم بفرح قائلاً:

- فيتوريو!

رفع رأسه، فرأى صديقه الفلسطيني القادم مع المتضامنين لكسر الحصار، وضع الصندوق من يده أرضًا وسارع لعناق صديقه.

- فيتوريو!

- أهلاً بك يا صديقي، أهلاً بك، كيف أنت؟ أنت قادم مع المتضامنين؟

- تخيَّل! أنا فلسطيني قادم لأتضامن، لألقى صديقي الإيطالي وقد تحوَّل بشكله وملابسه وكلامه إلى فلسطيني غزِّيّ يستقبلني كأنه واحد منهم!

ربَّت فيكتور على كتف صديقه، وأكملا معًا تنزيل الصناديق، ثم توجَّها إلى الظل:

- كيف حالك في جباليا؟

- الخطر في كل مكان يا صديقي، والتهدئة تنتهي قريبًا، وسمعت أن الحكومة ترفض تمديد التهدئة، لا أدري ما سيحصل، في كل يوم قصة معاناة

تتكرر، والناس مرهقون ومستنفزون جدًا. لقد أُصبت بطلق ناري قبل مدة أثناء تضامني مع المزارعين.

– رأيتك على التلفاز حين رحَّلوك، كنت مزعجًا كفاية لتطالب برفض الإفراج عنك إلا مع الصيادين، وبكل جنون تصرُّ على إعادة القارب له! لقد أزعجتهم يا صديقي لدرجة كبيرة.

– منذ ٢٠٠٣، بعدما زرت البلاد لأول مرة، حين كتبت تقريري الصحفي عن مجزرة جنين أزعجتُهم، لا يحبونني، لقد أدرجوني وقتها على قائمة الإرهاب الإسرائيلية، تخيل!

– أتدري أني أشعر بخجل منك؟ أنت فلسطيني أكثر مني.

ابتسم فيكتور ومد بصره طويلاً، ثم قال:

– أود لو أُدفن هنا في غزة، في جباليا.

نظر إليه صديقه بدهشة وحيرة:

– أنت إيطالي الوطن حقًا، لكنك فلسطيني الهوى جدًا.

لقد شارفتْ روايتي على نهايتها، وأدركت الآن لماذا في حلمي رأيتُ الكلام وقد استحال صورة، لم يخطر لي ذلك حين أسميتها، آه! هذه البذرة التي أزهرت في رحمي تمنحني لذة الأمومة، حتى مواجعها لذة، جيد أنني مددت إجازتي، لقد أحسن زوجي بقراره، دومًا تؤرقنا البدايات، حتى

نتلمس الخطوات، إن روايتي تدهشني أحيانًا بما تفاجئني به على ألسنة أبطالي، إنهم يبيِّتون لي الكثير من النوايا، ويهمسون لي بالكثير من الأسرار، في مرة أثناء كتابة مشهد عودة فيتوريو إلى غزة، لم أستطع التقدم حرفًا، لم أعرف السبب، استمرَّ ذلك يومين، كنت أريد الحديث عمَّا قبل وصوله إلى غزة، تواطؤ ركاب السفينة المتضامنين مع البحر لأجل غزة، والأرواح المغامرة على بوابات العبور، لكنَّ أحدًا منهم لم ينطق بحرف.

كنت حائرة، غاضبة تائهة، أكتب وأمحو، كلما كتبت شعرت أن ذلك غير صحيح، أو مفتعل، أو... كان أبطالي صامتون بحقٍّ، لا أشعر بهم أمامي ولا أتفاعل معهم، ولا أراهم.

كان ذلك من أشقِّ ما حصل معي، حتى كدْتُ أصاب بتخمة اليأس والملل من أيِّ جديد، حتى بعد يومين، بينما كنت أنظِّف الصحون، اتصلت أمي تريد زيارتي، لتبارك لي حملي، وأخبرتني أن والدي سيأتي معها.

كانت هذه أول زيارة لهما، وأنا في المطبخ بتُّ أتخيل مشهد قدومهما، وأتلمَّس زقزقة قلبي فرحًا، رفعت رأسي فجأة فشاهدت فيتوريو يصل غزة، شاهدته يطوي المسافات كأهلي، وهو مثلي لا يحفل بشيء إلا بلحظة وصوله غزة، والباقي أمواج من يأس وملل وترقب، لقد كان يهمس لي، أخبرني بالسر:

فيتوريو: يا عزيزتي، لا أحد منا يهتم بما يجري في السفينة أثناء الطريق، فكل ما أمامنا بحر، وكلنا نركب موجة واحدة.

أنا: ألم يحصل شيء في السفينة يستحق الذكر؟

- لا شيء يستحق الذكر، على الأقل بالنسبة لنا، لم يكن الأمر أكثر من حفلة تعارف وتعاهد بالصمود.

- ومن أين أبدأ المشهد إذن؟

- من اللحظة الفارقة.

- لحظة الوصول؟

- نعم.

ثم ابتسم لي طيفه، وابتسمت، وهمس لي هاتفًا بحماسة:

- هيا! اكتبي.

فتركت كل شيء وجريت إلى جهازي أكتب وأكتب وأكتب وفيتوريو يهمس لي بما جرى، لتتجسد مشاهداته مشاهد سجلتها في جهازي كأني أعيشها، لم يكن صعبًا عليَّ هذه المرة ما كتبته، لم يكن عصيًا، ولم يكن ثقيلاً ولا مفتعلاً، كنت فقط أسجل بسرعة فائقة ما بثَّه لي من أسرار.

لاحقًا، كلَّما استعصمت الكتابة وعَصَتْ، أدركت أن أبطالي يمتنعون عن البوح لأن ما سأقوله لا يروق لهم ولا يناسب مواقفهم، فأبتعد قليلاً، أراقب المشهد ثم أخترقه فأصير شبحًا ويصيرون حقيقة، أسمع ما يقولونه، وأتوقع ما سيفعلونه، ثم أعود لتسجيله.

في مرة، كنت عابثة قليلاً، تحت مزاج نشوة جامحة إثر مغازلة زوجي لي، كدت أكتب على لسان فيتوريو بعض العبث حينما تحاور مع كين أوكيف حول بنات غزة وعدم اقترابهن وعدم قدرة أيٍّ منهما على مغازلتهن أو إقامة علاقة معهن كبنات إيطاليا، حقيقة كدت أوِّرط فيتوريو في كلام لا يليق به كإنسان يعرف أهدافه جيدًا. كدت أكتب على لسانه يخاطب صديقه كين:

- لكنَّ فتيات غزة جميلات، يمكننا العثور على واحدة.

ليردَّ عليه كين:

- كلهن يغطين أجسادهن، هل تعتقد أنهن مثيرات كالإيطاليات؟

لكنَّ فيتوريو، ظهر لي في اللحظة الحاسمة، وأخذني من يدي، قائلاً:

- تعالي معي.

- إلى أين؟

- إلى شقتي في جباليا، وإلى حياتي في المخيم.

- لماذا؟ ماذا ستفعل بي؟

حينما صرنا في شقته، تحوَّلتُ مرة أخرى إلى شبح، وبات هو حقيقة، رأيته منهمكًا بين أوراقه وملفاته، وتقارير صحفية كثيرة، رأيت يستريح قليلاً ليداوي جراحه الطازجة من إطلاق النار، رأيت في عينيه قلقًا حقيقيًّا على كل شيء حوله، يمنح كل ما حوله مسحة من قلقٍ حزينٍ أنيقٍ.

ثم خرج من شقته المتواضعة، وتبعته شبحًا، في الشوارع تفوح رائحة الموت المرتقب، وفي السماء تحلق حمامة بين رصاصتين، وأمام البحر يشيِّع الناس كل يوم أحلامهم مع الغروب، ومع الشروق يتحدّون للصمود يومًا آخر حتى آخره.

عدنا إلى حيث أكتب روايتي، فقال لي بعتاب:

- أيمكن لِمَن رضي أن يعيش هذه الحياة، كأهلها، أن يخون أهلها؟

صمتت أتأمل موقفه، فأردف:

- أنا لست مسلمًا لكنني إيطالي والمثل عندنا يقول: "إذا كنت في روما فافعل مثل أهل روما." أنا أحترم مشاعر الناس، وأفهم جيدًا كيف يفكرون.

يومها لم أكتب عنه إلا بعد أن اتفقنا على الصيغة الدقيقة التي ترضيه، فضلاً عن معانيها.

٢٧، ديسمبر، ٢٠٠٨ الساعة ١١:٣٠ صباحًا:

- إنه يوم السبت! هل ستخرجون من البيت أم ستبقون كالعادة أسرى الجدران؟

لم يجبها أحد، فرفعت بصرها إلى أعلى بتأفُّف، ووقفت نظراتها مصدومة حينما رأت اللوحة على الجدار:

- من فعل هذا باللوحة؟

تلفتت حولها، نظرت إلى أبيها، لا يمكن أن يكون هو، فهو يحب لوحته الأثيرة جدًا، وسيُجنُّ لو انتبه، هل يكون أخاها؟ لماذا يكره اللوحة إلى هذا الحد؟ وفيم يهمُّه أمرها؟

- ما الذي يزعجك يا ابنتي في اللوحة؟

صمتت، وهي تنظر إلى أخيها بطرف عينها، قالت لنفسها: "الأفضل أن أصمت، وإلا فلا شيء سيردع غضب أبي ساعتها، وقد يحرمنا الميراث أو يطردنا من البيت، قد يتهمني بالتآمر لو عرف. فلأصمت حماية لأخي، هذا أفضل حل، ثم إنها لوحة غير ذات قيمة فعلية لنا، ثم إن أبي لا يبصر جيدًا، ثم إنَّ جسد اللوحة موجود فماذا لو تخربشت بعض ملامحها بالأسود؟"

ثم خرجت.

- ماذا جرى للوحة يا ابنتي؟ لماذا لا تجيبين؟ أين أنت؟ أين أخوك؟ أين زوجتي؟ أين الجميع؟

في تلك اللحظات كانت غزة تتعرض لقصف كثيف فيها عُرِف بعملية الرصاص المصبوب، كان الناس يتناثرون في كل مكان أحياء علَى أقدامهم أو أمواتًا على بطونهم أو ظهورهم، لا شيء واضح المعالم، ولا تعرف من أين ستأتيك رصاصة، لا تعرف زوايا الموت وزوايا الحياة، كل شيء متداخل، حاول فيتوريو جاهدًا أن يفعل شيئًا، لم يكن بيده أكثر من سلاحه؛ الإعلام، لقد كسب تعاطفًا كبيرًا من الشارع الإيطالي لصالح غزة، كما استطاع أن يثير

الرأي العام هناك، فقامت مظاهرات كثيرة تندد بما جرى، لقد كان هناك حيث الموت، فلا سماء تظلُّه ولا أرض تقلُّه، ولا شيء بيده يفعله، سوى الصراخ والصراخ والصراخ للعالم.

وانتهت الحرب، كان قليلاً ما يخرج كما نصحه جيرانه، وكان يتزود لطعامه مما يخطفه سريعًا خلال فترات الهدوء النسبي، يتقاسمه مع شريكيه في الغرفة ومع جيرانه لو أتيح له ذلك.

حينما وضعت الحرب أوزارها، خرج يتمشى بين البيوت.

لم أستطع أن أكمل المشهد، ليس لأن فيتوريو لا يريدني أن أصف ما شاهده، بل لأنه استدعاني لأشاهد بنفسي ما جرى هناك، جاءني في تلك اللحظة التي انغمست فيها أريد وصف المشهد، أخذني من يدي حزينًا كئيبًا مقهورًا، وقال:

- عليك أن تري بنفسك ما جرى هناك، لا يمكن لأحد أن يصف ما جرى إلا من رأى، الأمر فظيع جدًا، إنها حرب عصابات غير متكافئة.

ثم مد يده، فمددت يدي، وأخذني في جولة هناك في شوارع المخيم، حيث عبس كل شيء، الناس في الشوارع تتحدث عن نصر، نصر الصمود، رأيت النصر رماديًّا؛ نصرٌ كالهزيمة، أو هزيمة بحجم الانتصار، أغلقت سمعي عن الخطابات السياسية والعسكرية من الطرفين، دققت في أرقام الموتى، لا مقارنة! لا تكافؤ، لا أفق للحزن أستخلص منه أيَّ بادرة فرح، لقد بلغ الحزن منتهاه.

حلَّقت مع فيتوريو عاليًا فوق كل شيء، نحاول أن نبحث عن إشراقة وسط الركام، مات أهل فتحي، وغرقت قوارب الصيادين، تهدَّلت أكتاف البيوت وتشققت أفواه الشوارع.

طلبت منه العودة، فلا شيء يصف حجم الخراب، لكنه ابتسم لي بحزن قائلاً:

- هذا الخراب جميل.

- كيف؟

- سيعود كل شيء أفضل مما كان.

- والإنسان؟ من يعيد أهل فتحي؟

صمت وعدت إلى بيتي أكتب ما شاهدناه معًا.

- فيكتور؟

- نعم يا كين.

- ماذا تفعل؟

- أكتب.

- ماذا؟

- أؤلف كتابًا حول حرب غزة السابقة، جمعت فيه كل التقارير الصحفية حول ما جرى مما شاهدته، وتقارير حول الانتهاكات التي تمت.

- مممممم، وماذا ستسميه؟

- غزة: كن إنسانيًّا.

- أوه! جميل.

وأخيرًا ظهرت الزوجة التي لا ظِلَّ لها، لقد شعرتُ برعب مخجل حينما عرفت حقيقتها، كيف لم أعرف قبل الآن؟ لقد بكى الصبي الأطرش حين عرف أنني ألفق له تهمةً بهدوءٍ حذر، لقد دفعني إلى اكتشاف الحقيقة، كيف راوغتني هذه الأنثى الأفعى؟ كيفً لم أنتبه سابقًا؟ يا لخبث وبشاعة ملامحها حين انكشفت لي، كان لا بد أن تكون هي! ومَن غيرها؟ العمل بصمت وبسرية تامة، وتحت غطاء الغياب المتواصل، لم أنتبه إلى تسلُّلها خلسة إلى البيت، لم أنتبه قبل الآن قط أنها الفاعل!

١٤، أبريل، ٢٠١١:

دخلت الفتاة الغرفة على حين غرة، فصرخت:

- ماذا تفعلين؟ زوجة أبي، هذه أنت؟ طوال الوقت كنتِ أنتِ التي تغطِّين اللوحة أو تشوهين ملامحها؟ لقد شككت في أخي المسكين، ألم تخافي من غضب أبي؟

ثم اقتربت من اللوحة:

- يا إلهي! لقد دهنتِها بالكامل بالبخاخ الأسود، لم يَعُدْ هناك لوحة. لماذا؟

- إنها تزعجني، ولا تروق لذوقي، لو أخبرتِ والدك فسوف أتصرف، ولن يروق لك ما سأقوله. تذكري أن أخاك هو المتهم الأول بشهادتك أنت.

- تهددينني؟

- أنبهك.

ثم خرجت.

أعتمت اللوحة للأبد.

جلس فيكتور أمام حاسوبه يكتب في مدونته مقالاً يُشيد فيه بجهود الفلسطينيين لتهريب الغذاء، واصفًا إياها بـ"معركة خفية من أجل البقاء"، ثم خرج من بيته، قاصدًا شاطئ البحر، كان قد اشتاق لوجوه الصيادين، ونسيم البحر مع حلول الربيع، لكنَّ شيئًا لم يكن بخير، تنفس في الأجواء رائحة جديدة عليه، رائحة نشازًا، سأل نفسه إن كانت الحرب على الأبواب؟ فرائحة الموت قريبة جدًا كظل.

رافق بعض الصيادين في رحلتهم اليومية، كان كل شيء هادئًا هدوء القبور، وحينما عادوا إلى الشاطئ اختلى بنفسه على صخرة يدوِّن ملاحظات حول مقاله الذي سيكتبه لاحقًا.

كان فتحي يعرف أين يجد صديقه دومًا، يحفظ كل الأماكن التي يمضي إليها، لم يجده في أيِّها أو في أيِّ مكان آخر، قيل له إنه شوهد آخر مرة بعد رحلته

مع الصيادين، تفقد النت، فوجدت مقالاً له قبل ساعات، اختفى فيكتور فجأة دون أن يترك أيّة علامة.

ساعات قليلة مضت استبد فيها القلق بفتحي على صديقه، حتى انفجرت غزة كلها بخبر مروع امتدت نيرانه إلى كل فلسطين، والعالم.

تناقل الناس الخبر، على يوتيوب فيديو مصور لفيكتور معصوب العينين، وجماعة سلفية تهدد بقتله خلال ثلاثين ساعة ما لم تفرج سلطات غزة عن قائدهم المودع في سجون غزة.

كان فيكتور في الفيديو جاثمًا على ركبتيه، والدماء تسيل من رأسه، كان مشهدًا مفزعًا، فيكتور مخطوف!

بُذِلَتْ جهود كثيرة في تمشيط المنطقة بحثًا عنه، وكانت محاولات ضخمة للضغط بالإفراج عن الزعيم المزعوم لإنقاذه، وقبل أية خطوة فعلية، ووسط دهشة الناس وحيرتهم وتخبطهم، قبل المدة المحددة، تمَّ العثور على جسد فيكتور من قبل الأجهزة الأمنية الفلسطينية، مشنوقًا في منزل مهجور شمال قطاع غزة.

(أتذكرون أول مشهد؟ فتحي ليلاً يرسم على الحائط؟ وهو يبكي وينادي على فيتوريو حزينًا غاضبًا؟) أتمَّ فتحي رسمه وقد فرغت علبة البخاخ الأسود، نظر إلى الجدار متأملاً، كان فيكتور يمسك في اللوحة يد حنظلة

وهما يغادران موليان ظهريهما لنا جميعًا، غليونه في فمه، وعلى رقبته كوفيته الفلسطينية، كلاهما يرفع علامة النصر، وفيكتور يبتسم لحنظلة.

أما الابنة في البيت، فقد غضبت أشدَّ الغضب للوحة التي أصبحت مفعمة بالسواد، انتظرت حتى غادرت زوجة الأب الغرفة، فقلبت اللوحة،على أمل ألا ينتبه الأب لما جرى، وكانت المفاجأة؛ على ظهر اللوحة صورة بالبخاخ الأسود لشاب بالكوفية، في فمه غليونه، يمسك يد طفل يرفعان إشارة النصر، يوليان ظهريهما للجميع:

"كأنَّ الطفل حنظلة الفلسطيني؟ كأني رأيت هذا الشاب من قبل؟ من أين أتى الرسم؟ هل كان موجودًا من قبل؟ إلى أين يغادران؟"

تمت

١٣/ ٩/ ٢٠١٥

النهاية

بعد أن أسدلت الستار، واكتفيت من حظِّ القارئ بما ناله، بقيت مع أبطالي وحدي أحتفظ لنفسي ببعض أسرارهم، عشتُ مع شخوصي مشاهد كثيرة، فضَّلت أن أستأثر وحدي بمعرفة ما جرى لفتحي بعدها، وبأوجاع إيجيديا أم فيكتور، وبنقل جثمان فيكتور إلى إيطاليا، احتفظت لنفسي بوقفات التضامن والزيارات الدورية لقبره، وعشت طويلاً مع أشياء فيكتور وما أخبرني به عن تفاصيل حياته اليومية في غزة، وعمَّا أخبرني به عن حبيبته الإيطالية، وعمَّا أصابها إثر رحيله.

الحكايات لا تنتهي، لكنَّ لشهرزاد الحكايات قرارها باللحظة التي يجب التوقف عندها عن البوح، ماذا جرى للعائلة؟ للأب؟ لزوجة الأب؟ للابن الأطرش؟ كل شيء ما زال يتنفس، كل شخص ما زال يتحرك، كل حياة ما تزال قائمة، لكنْ لم يَعُدْ يعني القارئ كثيرًا أن يعرف، عليه فقط أن يدرك أن إسدال الستار لا يعني موت الحكايات؛ فهناك خلف الكواليس حياة، وفي

الشارع حياة، وحتى في السموات حياة نغفل عنها، وعند اللحظة التي انتهى فيها آخر مشهد، عند تلك اللحظة بالذات، يمكن أن تبدأ حكاية جديدة، فكل نهاية ما هي إلا بداية لمرحلة جديدة.

لذا، تركت قارئي عند تلك اللحظة، وبقيت بعدها أيامًا مع أبطالي بأنانية الكُتَّاب المعهودة أستمتع منهم بما قررت الاحتفاظ به لنفسي.

هل عشت الحلم أم استيقظت منه الآن؟ أحيانًا تكون أحلامنا أشدُّ واقعية من ظنوننا وإن بدت وهمًا خرافيًّا، وفي أحيان أخرى، تصبح أحلامنا التي لمسناها وظننا أننا نعيشها واقعًا، غَرَقًا في الوهم يجب أن نستيقظ منه، أما أنا فقد اعتورتني الحالتان؛ وما ظننته مجرد حلم بات واقعًا، وما لمسته واقعًا، تبدد كالحلم.